ما وَراءَ الشّمسِ

أوراق من حياة سجين عراقي في عهد البعث

١٩٨٠-١٩٩١

عنوان الكتاب: ما وَراءَ الشّمسِ
المؤلف: حميد مسلم الطرفي
التصنيف: سيرة
الطبعة: الأولى
سنة الطبع: ٢٠٢٤
مدير الدار: رياض داخل
التنسيق الداخلي و تصميم الغلاف: فلاح العيساوي

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق في بغداد (٤٠٢١) لسنة ٢٠٢٤م

ISBN :978-9922-8262-0-2

دار السرد للطباعة والنشر والتوزيع
العراق - بغداد - شارع المتنبي
هاتف: ٠٧٧٣٥٩٢٩٤٨٤

بريد إلكتروني: alrtyu44@gmail.com

رياض داخل: Facebook

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من المؤلف.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

حميد مسلم الطرفي

ما وَراءَ الشّمسِ

أوراق من حياة سجين عراقي في عهد البعث
١٩٨٠ـ١٩٩١

سيرة

٢٠٢٤

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ . وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ . وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ . فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾

سورة إبراهيم (٤٤-٤٧)

الإهداء

إلى روح أمي التي خطت على فوطتها السوداء بمداد دموعها خطوطاً بيضاء من كثرة البكاء على ولدٍ شهيد أُعدِم وسجين مغيّبٍ.........

إلى روح أبي الذي ظلَّ مكابراً حتى قتلته الحسرات وأماتته الآهات همّاً وغمّاً على ما جرى على ولديه......

إلى كل الشهداء الذين أودعونا الأمانة ورحلوا ولازالت أماناتهم نبراساً تُضيء لنا الطريق حتى نلقاهم.........

إلى أخوتي أخوة المحنة وبقية سيف الجلاد......

أهدي هذا الجهد المتواضع آملاً أن يكمله الآخرون منهم.......

المؤلف

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

في كل زمن تجد متنفذين وخاضعين، حكام ومحكومين، أقوياء وضعفاء، والأقوياء إما بمالهم أو بسلطتهم أو بكليهما أحياناً، وفي الخصومات تجد من يمتلك شرف الخصومة وآخرين لا يمتلكونها وهؤلاء غالباً ما يهددون خصومهم بأنهم سيجعلونهم وراء الشمس، ويوم كنت يافعاً كنت أتصور أن ذلك يعني أنهم ينفونهم إلى مكان بعيد كمن يقول ما وراء البحار، لكني بمحنتي مع نظام البعث والحقبة الصدامية منه خصوصاً عرفت أن خصمك يعني أنه سيجعلك لا ترى الشمس، وهي كناية عن الطوامير والسجون التي لا تدخلها الشمس، وإلا فأي مكان في الأرض تصله الشمس اقترب أو ابتعد، وقد صدق كاظم عريبي وهو معتقل من أهالي الناصرية خفيف الدم يجيد الطرفة في أحلك الظروف وأقساها، ولا يهاب الجلادين في طرائفه، يحكي عنه السجين

كريم محسن كاظم أنه يوم دخل مديرية (أمن) الناصرية في عام ١٩٨٠ أومأ بالتحية وهو في باب المديرية ملوحاً بيديه المكبلتين إلى الأعلى وهو ينظر إلى السماء، فسأله الجلاد على من تُسلّم؟ فقال إني أسلمُ على الشمس فلا أراها بعد اليوم. ويحكي لي ابن أختي السجين باهر سلمان كشيل الغزالي أنه عندما تم تسفيره من مديرية (أمن) النجف إلى مديرية (الأمن) العامة، هو ومعتقل أخر وذلك في عام ١٩٨٢ ووصلوا ليلاً طلب الحرس من الجلادين المرافقين لهما سر الليل يقول فأجابه كبيرهم (قلم جاف) فقال له الحرس كيف تُخبر عن سر الليل بصوت عالٍ أمام هؤلاء المعتقلين الـ... . فقال له: هؤلاء لن يروا الشمس بعد اليوم وذلك ما كان. (ما وراء الشمس) حكاية حقيقية بكل تفاصيلها حرصت أن لا أعكر مزاج القارئ بكمِّ الآلام والفضائع التي رأيتها وسمعتها وقد تركت ذلك لكتّاب آخرين، واكتفيت بالهيِّن القليل مما رأيت وسمعت ولاقيت، كي لا أزرع الرعب والخوف أمام الثوار فهم موجودون مادام الطغاة موجودين، وكي لا يتحول السجن إلى نكسة في حياة المجاهدين، اكتفيت بهذا القدر ولكنه حقيقي وواقعي، فكل الآلام التي اسردها في هذه الحكاية يرافقها الأمل واليسر، (إن مع العسر يسراً)، فأحد عشر عاماً ونصف العام ما كانت لتنقضي لولا الأمل المنشود، وروح الود والدعابة بين أخوة المحنة وبقية سيف

الجلاد، لولا السخرية والاستهزاء من القدر ودورانه، ما كانت لتنقضي ونحن أصحاء؛ لولا الرضا واليقين والقناعة بما كُتِبَ علينا، ما كنا لنبقى حتى ساعة كتابة هذه السطور؛ لو لا إيماننا دوماً بأن الحياة (طُبِعت على كدرٍ وأنت تريدها... صفواً من الأقذاء والأكدارِ... ومكلفُ الأيام ضد طباعها... متطلبٌ في الماء جذوةِ نارِ) ما كنّا لنخرج أكثر عزماً وتصميماً على السيربذات الخط الذي ارتضيناه في بداية الطريق.

ما كان خياري أن أسرد هذه الحكاية، فنحن بأحوج ما نكون إلى التسامح والمحبة والوئام، وتجاوز ما فات، والعفو والصفح من شيم الأحرار، لكني رأيت بأم عيني وسمعت بأذني من يحاول تزوير التاريخ والشهود لازالوا أحياء، رأيت وسمعت مزورين، مزورين كاذبين ومتصدين للشأن العام، ويا يا للأسف يسوقون أباطيل وأراجيف حول دمائنا وتضحياتنا، أحدهم مثلاً افترى فريةً تهدّ الجبال فقال: إن المقابر الجماعية التي تم اكتشافها بعد سقوط النظام ما هي إلا لرفاة جنود عراقيين أعدمتهم إيران!!! هذا ما يدفعنا حقاً لأن نوثق تلك الحقبة السوداء من تاريخ العراق آملين ألا تتكرر وألا يطمع الجلادون بالعودة مرةً أخرى لحكم البلاد وقهر العباد. هذه حكاية عن دراية وليست رواية لقاصٍّ أو روائي يصنع الأحداث من مخيلته ويرسم فيها صورة بطل عتيد في مخيلة القارئ، حكاية بطلها سجين لازال يأمل في واقع أفضل وغد

أجمل لأبناء وطنه، غدٍ أجمل عيشاً وحكماً ورعايةً وعدلاً، فما أريق من دماء لغيارى وأبرار هذا الوطن وما لاقى سجناؤه الأحرار يستحق ذلك الغد، فلا غرابة عزيزي القارئ أن تكون الصياغات والعبارات كما هي بلا تنميق ولا تجميل فهي بحق حكاية عن دراية ورواية شاهد لازال حيّاً، بسرد ما لاقاه بكل عفوية وصدق، يروي الأحداث لمعاصريه ولمن بعده من الأجيال آملاً ان نستوعب الدرس والتجربة جميعاً، وألاّ نسمح للظلم والطغيان والاستبداد بالعودة من جديد والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

المؤلف

٢٠٢٤/٨/٢٠

الفصل الأول
استعدادات مبكرة

لم يكن المعلم في الابتدائية موظفا كسائر الموظفين أمام أعين تلاميذه، بل له من الهيبة والوقار والجاذبية ما يأسر به قلوبهم ويشد أنظارهم هذا في المعلمين غير الهادفين الذين لا يحملون رسالة وليس لديهم انتماء أيديولوجي أو حزبي، بل يؤدون واجبهم على أفضل وجه كما هو شأن معلم القراءة المرحوم مهدي صالح فما بالك بالنسبة لأولئك الذين اعتنقوا الشيوعية كالأستاذ هادي عبيد أو انتموا لحزب الدعوة الإسلامية كالأستاذ حميد مهدي سلمان المحنة. كان الأخير ذا شكل غريب فهو اشقر الشعر والحواجب وأشفار العين والوجه احمر قاني، كان رحمه الله لا يجد فرصة للحديث الا تحدث فيها بكلام معسول ولست ادري لماذا كان يحضى باحترام الشيوعيين والبعثيين على حد سواء رغم انه كان واضحا في الدعوة إلى الله بل وانتماؤه إلى حركة إسلامية ما، بشكل واع يبعث على الشعور بانه رجل منظم ويقوم بتوزيع الكراسات ذات المحتوى الديني على طلبته ربما لأن

الشيوعيين كانوا معارضين للحكومة كذلك فوحدة الهم تجمع الطرفين أما البعثيون فربما كانوا قد أجلوا المواجهة مع الحركة الإسلامية إلى إشعار آخر؛ لمحاولتهم التفرد بعدو واحد فليس صحيحاً ضرب عدوين في آن واحد؛ لذا لا يستغرب البعض من القول بان البعثيين هم من روج لكتاب اقتصادنا وفلسفتنا للسيد الشهيد محمد باقر الصدر (قدس سره) وهم من شجع على انتشار فتوى (الشيوعية كفر والحاد) للسيد محسن الحكيم (قدس سره). لقد أسرني ذلك المعلم الوقور والمربي الفاضل بطيب كلامه وخلُقه الرفيع، فكان يصطحبني اصطحاب الأب الحنون لولده إلى جامع الناحية الصغير في الصوب الشرقي من الناحية أعني بها ناحية القادسية التي كانت تابعة لمحافظة الديوانية ثم تحولت إلى تبعيتها إلى محافظة النجف الأشرف. الصوب الغربي من الناحية فيه هو الآخر جامع أكبر وأوسع وأحدث بناءً، لأن مركز الناحية ومدارسها والمحكمة والسجل المدني كلها تقع في الجانب الغربي، لم أكن أعلم أن الجوامع لها أذواق ومشاعر مختلفة، فلا زلت أتذوق تلك اللحظات الروحانية في جامع الناحية الصغير وانا في الصف الخامس الابتدائي حيث يقرأ لنا أستاذ حميد في رمضان دعاء (اللهم ارزقنا حج بيتك الحرام في عامنا هذا وفي كل عام واغفر لنا تلك الذنوب العظام فانه لا يغفرها غيرك يا رحمن يا علام) شعور

غريب ممزوج ببراءة الطفولة والتعلق بالغيب من جانب والفخر بوجود معلمك معك وهو يؤدي الصلاة إلى جانبك لتعود بعدها إلى البيت مزهوا فرحا تشعر بالتميز على أقرانك في المدرسة. لم يجهد نفسه أستاذ حميد في متابعتي، ولم يضايقني بالسؤال عن صلواتي وبالأخص صلاة الفجر، ربما لأنه يعلم أن ليس لدي من قرناء السوء ما يُفسد فطرتي ويُسيء إلى سريرتي، أو إنه يعلم أن والدي من المصلين. كان أبي رحمه الله يميزني عن أَخَوَيَّ الكبيرين وواضح ذلك في الحظوة والاهتمام، ولا أزعم أن ذلك مقصود لغرض في نفسه فهو رجل أميٌّ لكني اعتقده أمراً طبيعياً لاختلاف سلوكي عنهما فهما يكبراني الأول بأحد عشر سنة والثاني بسنتين الا انهما ليسا متوجهين دينيا في حينها، إذ أنهما لا يقيمان الصلاة؛ ربما شكلت لي تلك الطفولة باعث الثقة بالنفس والتفوق في الدراسة فأنا طيلة سنوات الابتدائية كنت الأول على زملائي وتلقيت هدايا على تفوقي من بين ما ظل منها ملازما لذاكرتي كتاب (العَبَرات) لمصطفى لطفي المنفلوطي وقد كتب على صفحته الأولى مدير المدرسة الأستاذ علاج عبد الرضا الغزالي (هدية إدارة مدرسة القادسية الابتدائية للبنين إلى الطالب حميد مسلم) انه كتاب ملأ قلبي حزنا وشكل بداية حسي وتفاعلي ومشاركتي لعموم الأخرين إذ كنت أعتصر ألما بل وحتى ابكي وانا اقرأ قصصه.

لم يفارقني الأستاذ حميد في هذه المرحلة وكان يهدف دائماً ان ينمي فيَّ الشعور بالقوة والتفوق ويبعث ملكة التأثير؛ فأُقيمَ في ناحية المشخاب حفل ومسابقة لمواهب الخطابة لطلبة الابتدائية فأرادني ان أشارك فيه وهو امتحان عسير بالنسبة لي ومعترك لم ادخل فيه سابقا ولم امتلك الشجاعة الكافية للاعتذار وبرزت حينها مشكلة؛ فطلاب الابتدائية عندنا في الناحية لا يرتدون البنطلون والقميص وإنما الدشداشة كما ان لا أحدا منا يقتني ذلك في بيته في حين تطالبنا إدارة المسابقة بأن يكون زي الطالب المشارك رسمياً، وليس سهلا في الوقت المسموح ان نذهب إلى النجف لشراء البدلة المطلوبة كما ان شراءها لارتدائها في يوم واحد فقط يعد ضربا من التبذير والإسراف لعائلة محدودة الدخل كعائلتي ولم يتعاهد ذلك أهل الناحية؛ وبعد سؤال وبحث من الأستاذ حميد تبين له ان احد زملائي كان لديه بدلة يمكن ارتداؤها لهذا الغرض. لم يعترض الطالب ناظم عبد الزهرة عواد على الفكرة أبدا ورحب بها هو وأهله وجلب البدلة في الوقت المناسب؛ ورغم أنها لم تأتي مناسبة تماماً في قياساتها الا أنها تبدو نسبياً كذلك.

اذكر ان الكلمة التي شاركت فيها في المهرجان (المسابقة) كانت مؤيدة للحكومة في ذلك الوقت وتحدثتْ عن تأميم النفط وأهميته ربما كانت لإخفاء معارضة الرجل للنظام أو

ان التأميم كان إنجازاً يستحق الإعجاب والتقدير منه أو من الحركة التي ينتمي إليها، لكني أرجح الاحتمال الأول. لم أكن موفقا في ألقاء الكلمة إذ بدى عليّ الإحراج والتلكؤ لأنها التجربة الأولى التي اظهر فيها أمام جمهور كهذا وأنا واقف على منصة، وكل هذا الجمع ينظرُ إلى وجهي، خاصةً وأنا طفل كثير الحياء، إذ بدوتُ كما لو أني أرى وجهي وقد أحمر من شدة الخجل، وأن صوتي يتهدج ونبضي يتسارع ونفسي يضيق، ورجلاي لا تعينانى على الوقوف ويدي ترتجفان، في تلك الأثناء كنت أتمنى لو أن كل كلمتي كانت سطرين وأنّى لي بذلك؟ ولو ان أستاذ حميد اختار غيري ممن لهم سوابق بالتمثيل لكان أفضل إذ كان هناك مجموعة من الطلبة تؤدي تمثيلية عن الحيوانات أحدهم يمثل دور الأسد اسمه راجح، كبير الرأس، طويل القامة، بعيد ما بين المنكبين فكان دوره يلائم هيئته؛ ولكنه أراد تنمية مواهبي الخطابية وعوضا عن خسارتي في المسابقة فإنه كرمني في المدرسة لمجرد اشتراكي فيها. أصبحت محط اهتمام بقية المعلمين ويحاولون الاقتراب مني بالمزاح حينا وبالشدة الظاهرية حينا أخر فمن غريب ما اذكر ان الأستاذ عبد الأمير العبادي وهو من أهالي المشخاب أنبني بشدة ذات يوم لمجرد خطأ بسيط لا أتذكره فبكيت وفجأة دخل أحد المعلمين فتساءل متعجبا وكان حينها أيام زيارة الأربعين للإمام الحسين (ع) وكان عدد

من الزائرين يمشون على الطريق المجاور للمدرسة ونراهم نحن من ساحة المدرسة ولو كان باب صفنا مفتوحا فنراهم كذلك فأجاب أستاذ عبد الأمير متهكماً، انه يبكي لأنه لم يذهب إلى الزيارة فازددت بكاءً وعلا نشيجي. لم ينوِ طبعاً التنمر علي بهذا السلوك، لكن يبدو أن بعض المربين تماماً كبعض الآباء يأنسون بانفعالات أبنائهم حتى لوكان ذلك سبباً في بكائهم، ألمس هذا كثيراً في تصرفات بعض الآباء أو الأخوال تجاه الصغار، فولدي نور الحسين اليوم يفعل ذلك مع أولاد أخواته الصغار يبكيهم لكي يضحك.

في يوم شتوي ممطر اضطر المعلمون الذين يسكنون النجف والمشخاب ان يبقوا في الناحية لان الطريق من ناحية القادسية إلى المشخاب غير معبد بالمرة وعندما يسقط المطر بغزارة ينقطع الطريق فدعى الأستاذ هادي عبيد المعلمين وهم أربعة على ما أتذكر بينهم الأستاذ عبد الأمير العبادي، الذي سبق ذكره، كان طريقي إلى البيت يمر ببيت الأستاذ هادي فجئت معهم ولما وصلنا إلى بيت الأستاذ دعوني جميعهم ان آأتي معهم وان اخبر احد التلاميذ الجيران ليخبر أهلي وبين خجلي من الحضور ورغبتي في ان أكون مع المعلمين اخترت الأخير، ومررنا أولا بمضيف علي حمود وهو خال الأستاذ هادي عبيد وهو مضيف على شكل (جرداغ) ذو هيكل خشبي يغطى من جوانبه ومن سقفه

بـ(البواري) المصنوعة من القصب وكان على دكةٍ عالية، قريبا على بيت الأستاذ هادي، وقد تركت كتبي فيه ومن غزارة المطر فقد اخترق الماء سقف المضيف وبدأ يخر قليلاً، فاصطحبنا الأستاذ إلى بيته الداخلي وتركت كتبي أنا في المضيف وعندما تفقدها الأساتذة سألوني عنها فقلت لهم أني تركتها هناك فقالوا هيا أجلبها، الم تر كيف خر سقف المضيف، فقلت ببراءة الطفولة: أنها ليست كتب جامعة؛ وهنا رد علي الأستاذ عبد الأمير العبادي ليزيل ما تبقى في قلبي من مزاحه معي وبنبرة جدية، هذه الكتب هي من يوصلك إلى الجامعة يا حميد، قم فأتِ بها إلى هنا؛ وادركت صحة الكلام واستحييت من نفسي وجلبتها إلى الغرفة. للجلوس في الغرفة في يومٍ مطير، وشتاء قارص طعم خاص، فالدفء في الغرفة والضوء الساطع ذي اللون الشمسي ونشوة المبيت مع المعلمين تغمرني بشعور جميل. لم أكن أعي بشكل تام ما كانوا يتحدثون به؛ الا أني أدرك ان لديهم صداقة خاصة، أو شيئ يجمعهم انه هدف مشترك هم مشترك سر مشترك، أبصر بقلبي أن شيئا ما موجود بين هذه المجموعة، ولكني لا اعرفه، ليتبين فيما بعد انهم جميعهم إما منظمون بالحزب الشيوعي العراقي أو مؤيدون له. عندما أخبرت الأستاذ حميد بمبيتي معهم لم يزدريني أو يؤنبني، بل زاد اهتماما بي وأعطاني مجموعة أخرى من الكراريس الصغيرة لعبد الرزاق

نوفل ذات ألوان بهية في غلافها وكتابة محركة (مضبوطة الشكل)، وطباعة أنيقة، تشد القارئ إليها.

لم تكن كارزما الشيوعيين أمامنا كتلاميذ كتلك التي يتمتع بها الأستاذ حميد فهو من أهالي ناحية الجدول الغربي (الرجيبة) وله أقرباء في المشخاب وناحية القادسية في حين ان الأستاذ هادي عبيد من أهالي الناحية نفسها لكنه رحمه الله كان جديا قليل الابتسامة، ذات يوم في الصف الثاني الابتدائي وكان حينها مطبقا لمادة القراءة، فجاءنا وكان درسنا في القراءة (هل تعرفني) وعندما وصل الدور اليّ سألني أن أُجيب على السؤال الآتي: اعمل في الليل والنهار اشتغل وأقول تك تك تك فهل تعرفني الساعة... الفلاح...وهناك خيار ثالث لا أتذكره ولشدة رهبتي من الأستاذ أجبته: الفلاح؛ فأمسك بشحمة أذني اليمنى وقال: هل أبوك يقول تك تك تك؟؟ فاستحييت كثيرا ولم أرد.

فعاليات البعث الطلابية

لقد كان البعثيون شديدي الحماس في السبعينيات وعندما تبلغهم قياداتهم بشيء فانهم ينفذونه بكل قوة وسرعة وجدية، إنهم حديثوا عهد بالسلطة ولديهم تحدٍّ كبير وهو الحزب الشيوعي بامتداداته الواسعة وثقافته والجهة التي تقف وراءه ألا وهي الاتحاد السوفيتي، ففي الأحداث التي يعدها

البعثيون وطنية وأعياد ومناسبات تأتي الأوامر إلى اللجان الطلابية (الاتحاد الوطني لطلبة العراق) بالخروج بتظاهرات فيأتي هؤلاء الاتحاديون إلى إدارة المدرسة المتوسطة في الناحية ويطلبون منهم إخراج الطلاب وجميع الطلاب دون استثناء في الدرس الثالث أو الرابع ليأتوا بهم إلى المدرسة الابتدائية فيدخلون إلى ساحاتها والتلاميذ داخل الصفوف فيأتي الإيعاز من المعلمين بخروج التلاميذ والالتحاق بطلبة المتوسطة فتتشكل حلقة كبيرة والكل يضرب على الكتب وينادي بالهتافات الحماسية ومما أتذكره من شعارات (فلسطين جاكي جاكي حزب البعث الاشتراكي) و(هلهولة للبعث الصامد) ويندمج التلاميذ مع المظاهرات كونها تخلصهم من ملل الدرس وجديته فيتسربون من الدرس ومن يتبقى منهم فسوف يقوم المعلمون بإخراجهم، وهكذا ديدن الطلبة دوماً قديماً وحديثاً.

حكاية الأستاذ خلف

كان أسوأ ما أتذكر من مدرستي الابتدائية هو ذلك المعلم الذي ناصبني العداء لسبب لا زلت أجهله حتى الأن فلست أرى مبررا مقنعا لتصرفه معي فهو يهددني بين الحين والآخر بأنه (سيلعب بي جقلنباك)، وهو مصطلح تعنيفي جسدي، كانت ذريعته دوماً أني حين أأتي إلى المدرسة، لم أغسل

وجهي، رغم أني كنت أفعل ذلك. ولشدة خشيتي منه صرت أغسل وجهي في بيتنا ثم أذهب إلى بيت جارنا ساجد علوان الغزالي، وهو تلميذ معي لأغسل وجهي في بيته؛ وليكون شاهدا لي عند الأستاذ كاظم خلف؛ وحتى ذلك لم ينفع إذ يمسك عصا بيده من منتصفها ثم يديرها بأصابعه، ويسحب سواد عينيه إلى ما تحت جفونه، ويتقدم بخطوات مرعبة وهو يوجه نظره نحوي ويقول كلمته المشهورة (اليوم العب بيك جقلنباك) لكنه لا يضربني فقط يقول ذلك ويبدأ درسه. لست أدري إن كان ذلك حرصاً منه على أن أكون أنظف وأجمل مما هو عليه في حينها أو إنه تسلية اعتاد عليها أو ربما اتخذني وسيلة لإرهاب التلاميذ الأخرين للتقيد بالنظافة.

هيبة المعلم

لقد كان المعلم في ذلك الوقت أرقي وأهيب موظف في الدولة ليس بنظر التلاميذ فحسب، بل هو كذلك بنظر الجميع كنا إذا رأينا المعلم بعد الدوام نلوذ بأي شيء من اجل ان لا يرانا. لقد كانت الأسئلة العامة (البكالوريا) تُردُّ ردا للسادس ابتدائي وكان مدير القاعة يقف منتصب القاعة عالي الصوت ليرد الأسئلة لقد كان الأستاذ علي الياسري وهو مدرس هو مدير القاعة في امتحانات السادس الابتدائي أتذكر سؤالا من أسئلة العلوم فقرأه الأستاذ علي الياسري (اذا أُعطيتَ كميةً

من التمر فكيف تصنع منها دبسا) وأتذكر أيضاً انني نسيت البطاقة الامتحانية في احد الأيام فارتبكت كثيرا وكان ذاك قبل ان نبدأ بدخول القاعة وما اسرع عودتي للبيت مهرولاً ويكاد قلبي يبلغ حنجرتي، والحمد لله تمكنت من جلبها قبل دخول القاعة الامتحانية فكان ذلك درساً طوال حياتي.

الدراسة المتوسطة

لم تكن المتوسطة نقلة كبيرة في حياتي فالأستاذ عبد الحميد ظل يتابعني ويوجهني ويخفف علي بعض ما أواجه. العلاقات بالأساتذة الجدد تتخذ منحىً اقرب فبعض منهم يقيم في دار خاصة في الناحية فأحدهم من الكاظمية وهو جاسم الموسوي مدرس الفيزياء وصباح من بغداد مدرس اللغة الإنكليزية وجمعة مدرس الرياضيات من كركوك وبيان مدرس اللغة العربية من النجف الأشرف ومدرس لغة إنكليزية أخر واسمه عبد المجيد من أبي الخصيب من البصرة ولي مع الأخير حكاية طريفة فهو ممن دخل إلى صفوف حزب البعث متأخرا وأراد ان يثبت لرؤسائه الولاء ببعض النشاطات فتكلم معي بهدوء ان انتمي إلى صفوف الحزب وانا في الصف الثالث وعندما رفضت لم يكن يتوقع ذلك فهو ذو تأثير كبير على الطلبة وله شخصية جامدة، قليل المجاملة، حازم في الدرس مجدٌ فيه وأراد النيل مني باي

طريقة ولكنه لم يجد من وسيلة لذلك فمستواي الدراسي جيد جدا وانا الأول على صفي في الأول والثاني ولعدم وجود مدرس في الرسم فانه قد تولى تدريس مادة الرسم لنا ولم اكن بمستوىً جيد في درس الرسم فوزع ذات يوم نتائج امتحان الرسم وكانت درجتي فيه أربعين من مائة أي إني كنت راسباً فقال بصيغة التشفي وأمام الطلاب حميد راسب بالرسم فقلت -ودون وعي لما أقول-: (واذا) فقال وما هي (إذا) باللغة الإنكليزية؟ ولم يتوقف غضبي فرددت: ((أنت لم تكلمني بالإنكليزي حتى أتكلم بالإنكليزي)) ولم يرد بشيء واعترفُ انه كان يحترمني في داخله ولم يكن لئيما أو حاقدا ولو كان كذلك لردني ردا قاسيا وسبب لي الكثير من المتاعب؛ لكنه وكما اقرأه اليوم إنه لم يكن هو مقتنعا بما يقوم به.

الصداقة مع أستاذ

لقد كانت علاقتي بأستاذ اللغة العربية النجفي الأستاذ بيان من أجمل العلاقات وأحببت اللغة العربية من ذلك الوقت وعندما انتقل الأستاذ بيان إلى النجف الأشرف حصلت على اسم المدرسة التي انتقل إليها وأرسلت له رسالة اعبر فيها عن حبي وتقديري والرسائل في ذلك الوقت تصل بالبريد اليدوي وكانت تستغرق سبعة أيام بين ناحية القادسية

والنجف حتى تصل إلى يد المرسَل إليه وطالما كانت تبتدئ بديباجة معتادة ((أول سؤالي الوحيد عن صحتكم واعتدال أوقاتكم)) فرد على بما نسميه في ذلك الوقت ((معايدة)) وهي بطاقة تهنئة، يلتفت الطلاب إلى عامل الخدمة في المدرسة وهو يطرق الباب ليستأذن مدرس مادة الرياضيات الأستاذ جمعة وهو من أهالي كركوك -لم نلتفت ونحن في ذلك العمر وتلك الفترة من أي مذهب هو- فيسلمه المعايدة ليخبرنا أنها لي أصابني شعور ممزوج بالزهو والفرح ولم أدرك في حينها أن الوفاء للآخر طبع ينمو ويترعرع متى ما وجد بيئة ملائمة. لقد زار الأستاذ بيان مدرستنا ربما لمتعلقات إدارية فطلب من السيد المدير أن يزورني في صفي لأني الوحيد الذي راسله بعد نقله ومازالت ابتسامته تلوح لعينيّ وهو يدخل الصف وهو يقول: (أوووووه حميد صاير طويل) فعلاً ان صف الثالث متوسط أحدث انقلاباً في تكويني الجسدي والنفسي وهكذا هو شأن السنة الخامسة عشر لأي شابٍ لكنه وبفضل الله بالنسبة لي كان هذا العام هادئاً سلوكياً تحت تأثير عاملين أساسين هما الجدُّ في الدرس وما يتبع ذلك من مديحٍ يكيله لي زملاء الدراسة والمدرسون والمعارف من الأهل والأقرباء وغير الأقرباء ومتابعة الأستاذ الشهيد السيد حميد مهدي سلمان المحنة رحمه الله.

حكاية الشقيق الكسول

بيني وبين شقيقي الأوسط الشهيد نوري (رحمه الله) ثلاثة سنين في العمر وأربعة مراحل في الدراسة أتذكر ذات يوم وأنا في الأول الابتدائي حيث المدرسة من جزأين جزء على شكل صرائف وآخر على شكل طابوق وفي جو شتوي مشمس وفي ساحة المدرسة الترابية تعذر على وأنا أمسك بكتاب القراءة في ساحة المدرسة تهجي وقراءة كلمة (قبقاب) وعندما طلبت منه المساعدة اعتذر تمنعاً و(حرشةً) وبعد دقائق صحت بوجهه عرفتها عرفتها فضحك وغادرني. المرحوم الشهيد نوري لم يكن ذا رغبة في الدراسة وكان يختلق الأسباب والأعذار للغياب وعدم التحضير وكان والدي رحمه الله شديد الامتعاض منه وكثير السؤال عنه، ذات مرة وفي امتحانات نصف السنة وهو في الصف السادس الابتدائي وعندما استلم نتيجته (الوثيقة) كان مكملاً في درس الرياضيات وقبل أن يصل إلى البيت قرر أن يغير النتيجة بنفسه حدثته نفسه هذه الامتحانات هي نصف السنة كما أن المهم هو درجة البكالوريا ونقد أبي سيكون هداماً لا اقوى على مواجهته ربما يصل حد الضرب وأخي الأكبر أكثر صرامةً من أبي واخي الأصغر (يعنيني) هو الأول على صفه هكذا حدث نفسه فغير الدرجة بما يلائم لتكون درجة نجاح وجاء مهرولاً إلى أبي وأهلي أنا ناجح ناجح وفرحنا جميعاً

غير أن أخي الأكبر تأمل في النتيجة قليلاً ليرى أنها قد كتب عليها مكمل بالرياضيات لقد نسي أخي نوري رحمه الله أن يمسح الكتابة إذ غير الدرجة ونسي الكتابة في خانة الملاحظات فبهت وهرب من البيت حتى هدأت الأمور ثم عاد. ومرت السنون فكنا في صف واحد أنا وهو في الصف الثالث المتوسط.

ذات يوم كان لنا امتحان شهري في مادة اللغة الإنكليزية وكنت أعددت له إعداداً جيداً كان رحمه الله يجلس معي على رحلةٍ واحدة وما إن أكملت الحل وهممت بتسليم الورقة إلى الأستاذ حتى سحبها مني ومسح اسمي وسجل عليها اسمه فقط ودفع اليَّ ورقته التي لم يكن فيها سوى الأسئلة وقام مباشرةً وسلم الورقة إلى أستاذ صباح، أما أنا فقد ضاقت أنفاسي وتصبب العرق من جبيني ولم يكن لي من حيلة إلا الإجابة السريعة للأسئلة وكتابة اسمي على الورقة وقلبي يغلي غضباً على هذه الفعلة التي لم أكن أتوقعها أبداً إلا إنني استطعت إكمال الأجوبة وإن كانت بخط ردئ وعندما وصلت إلى البيت تصارعت معه وهو أقوى مني جسماً إلا أن شعوره بخطئه وشفقته علي جعلاه لا يقاومني وأنا أضربه حتى استطاع امتصاص غضبي مهدئاً: لا عليك يا أخي ستنجح حتماً وأنجح أنا، أنا أريد أن أدخل البكالوريا ليس إلا، هكذا كان يرد علي وانا غضبان مزمجر، ولمرحه

ولطافته استطاع إقناعي أن أقبل بتجديد التجربة مستقبلاً ولكن هذه المرة برضىً مني.

لقد ذُهل مدرس اللغة الإنكليزية من النتيجة لكنه لم يساوره الشك أن ما حصل هو نتيجة غش أو تبادل للأوراق. وكانت درجته أعلى من درجتي قليلاً. لم تستمر هذه العملية طويلاً إذ أوصل بعض الطلاب الخبر لمدرس الأحياء رزاق عطية الذي مسكنا ونحن نتبادل الأوراق فاعتبر ذلك غشاً على الطرفين وانتهت هذه العملية من حينها. وبقي المرحوم نوري في الصف الثالث وأنا غادرته إلى الرابع عام.

الانتقال إلى أصلنا في كربلاء

لقد كان العام ١٩٧٥ و١٩٧٦ حافلاً بالصخب والضجيج حول نظام حافظ أسد في سوريا وكانت التظاهرات ضد تدخله في لبنان كثيرة لقد كان الشعار الذي أتذكره في مظاهرات الطلبة المجُيّرة والمُسَيسة هو (أسد أسد في لبنان أرنب أرنب في الجولان) لقد شح ماء الفرات في هذين العامين بدرجةٍ كبيرة وهاجر الكثير من سكنة الفرات الأوسط إلى المدن المقدسة في كربلاء والنجف طلباً للرزق كما جرت عملية تطوع فتحها النظام لصفوف الشرطة السيارة كما أسماها في ذلك الوقت.

نحن من أصول أهوازية نزحت إلى كربلاء عام ١٨٨٢م كما يقول شيخ العشيرة عزيز جفات وكان الجدود النازحون قد استوطنوا منطقة النبهانية بين قضاء الهندية وكربلاء لكنهم بعد فترة من الزمن مروا بضائقة اقتصادية نتيجة شح المياه في الهندية فتفرقوا يبحثون عن لقمة العيش الحلال وكان منهم جدي في حين بقي الأغلب من أعمامنا في مكانهم وهكذا هو شأن الأزمات في بلد الغالبية تقاوم والأقلية تنفر سريعاً علها تجد في الحركة بركة ودارت الأيام وما عاد لنا في ناحية القادسية ما يربطنا بها فنحن لا نملك الا دونماً واحداً اشتريناه بمكاتبة ولم يتم تسجيله أصولياً حتى اليوم كما ان الشعور بالغربة ينتابنا بين الحين والآخر فنحن وان كنا التحقنا بعشيرة الغزالات وتزوجوا أختي الكبرى الا أننا نبقى من عشيرة جذورها الأهواز وفرعها الهندية كل ذلك أدى بوالدي ووالدتي إلى اتخاذ قرار العودة إلى كربلاء وهذه المرة مركز المدينة في الجمعية باب طويريج وكان ذلك يوم الإثنين ١٩٧٦/١٢/٦ وكنت حينها في الفصل الأول في الصف الرابع الإعدادي.

وفاء الكلاب

لم يكن لدينا من الأثاث ما يستدعي عجلة فخمة فنحن حتى انتقالنا من ناحية القادسية لازالت بيوتنا من طين هذا

ونحن من متوسطي الحال وربما من أغنى جيراننا جميعهم فلدينا دكان صغير إضافة إلى عائد الفلاحة من الشلب، استأجرنا سيارة حمل صغيرة البعض من العائلة ذهب مبكراً إلى كربلاء وترك آلام الانتقال الكامل من مسقط الرأس إلى كربلاء لغيره كنت فيمن بقي لم أكن على ما يرام فحزن عميق ينتابني وخوف من المجهول يراودني، لم اكن افهم معناه، إنه الخوف من بيئة جديدة، أصدقاء جدد، مدرسة جديدة، فجر كل ذلك الحزن وحوله إلى دموع، كلبنا الوفي الذي ظل ملازماً لسيارة الحمل، الطريق غير معبد تسير ببطيء والكلب خلفها قطع حوالي ألفي متر وهو يهرول وعاد آيساً، أخبرنا الجيران فيما بعد إنه ظل في الدار يعوي ليالٍ فيبكي بعض الجيران حتى تعود الفراق فسكن أنينه وخف حنينه وهكذا هي الحياة.

الحياة الجديدة

لسنا غرباء تماماً في محلتنا الجديدة فعمتي الحنونة أم جبار قريبة منا وعمتي الأخرى أم محمد وهي زوجة خالي لا تبعد سوى عشرة كيلومترات عنا حيث تسكن في موضع الأجداد في النبهانية وكثير من أبناء العشيرة حوالينا في المنطقة، لكني شخصياً أشعر بشيء من الغربة، لم أكن انطوائياً ولكني لست منفتحاً كنت ميالاً للدرس والمتابعة

لكن زخم الحركة الذي يرفدني به أستاذي ومعلمي الشهيد سيد حميد جعلني افكر في الاندفاع كثيراً نحو بعض زملاء الدراسة وهنا نشأت لي علاقة حميمة بالشهيد صاحب عبد الحسين الدهان، كان كثير التردد علي وتوثقت العلاقة والصداقة كان مؤمناً مخلصاً يشيد كثيراً بمفاخر ومناقب السيد محمد مهدي الشيرازي وكيف أثر في الشباب في كربلاء، كنت بطبيعتي التي لم تفارقني حتى الأن مستمعاً جيداً وكذا فاني مستمع متفاعل، إضافة إلى كوني ذكي في الدروس المنهجية غير اني لم ألقف ما كان يريده الزميل صاحب مني، فانا لست خبيراً بما يجري حولي وذات يوم طلب مني الشهيد صاحب ان التقي معه بعد الدوام عصراً في الحديقة المقابلة لإعدادية غزة للبنات في باب بغداد وعلى مقربة من مصرف التامين، أكد كثيراً على ان هذا الموعد مهم وضروري، فالأحداث في العراق باتت تسخن شيئاً فشيئاً بسبب إجراءات النظام بمنع بعض الشعائر الحسينية، ومنها المشي سيراً إلى كربلاء مما أدى إلى انتفاضة صفر عام ١٩٧٧م وتدخل طائرات وجيش وشرطة النظام البعثي لقمع الزائرين ومنعهم من الوصول إلى كربلاء بعد ان تجمعوا في خان الربع يبعد حوالي ٢٠ كم عن كربلاء من جهة النجف.

ينتابني الحماس الديني والسخط على البعثيين بعد هذه الجريمة وينتابني أيضاً الشعور بالمسؤولية تجاه تحريك

الشباب والتأثير فيهم كل هذا جعلني مهيأً لأن استقبل دعوة زميلي صاحب بالانضمام إلى منظمة العمل الإسلامي عام ١٩٧٧م في ذلك المساء وأحسست بشيء غريب يدخل في جسدي فأنا اليوم أحمل سراً لو اطلع عليه أحد أفراد النظام يعني إعدامي، ولو اطلع عليه أي فرد من غير إذنٍ من الشهيد صاحب يعني أنني خائن للأمانة، سر كبير بثُّ أحمل بين جوانحي يملأني زهواً حيناً فأنا امتلك شيء لا يملكه أقراني من الطلبة في عمر السادسة عشرة وفي الصف الخامس العلمي في إعدادية القدس ويملأني رهبةً وخشيةً حيناً أخر لكن اندفاع الشباب يقلل من الشعور الثاني فالشباب ضرب من الجنون كما يقولون.

لقد كان التنظيم بالنسبة لي عاملاً مهماً في تجاوز كل آثار مرحلة المراهقة وأعراضها ومجالاً خصباً لتفجير طاقاتي في القراءة والتأثير ومتابعة الشأن السياسي فالشهيد صاحب عبد الحسين، وبعد لقاء المفاتحة مباشرة سلمني منشور التنظيم الذي كان مكتوبا بورق الكاربون ويحمل اسم الأوراق الثائرة وعليه رسم بندقيتين متقاطعتين والمنشور يتحدث عن ظلم النظام وابتعاده عن الدين؛ ويدعو إلى ضرورة التحرك ضد النظام والثورة ضده لقد كان المنشور يصف النظام بالكافر والظالم والديكتاتوري، وأكثر ما كان

يهيجني ويحمسني على المعارضة وصفه بالنظام الكافر الذي يعني لي الشيء الكثير لأنه يتناقض وتديني.

لقد كان الشهيد صاحب عبد الحسين الدهان كثير الحديث عن الصراع الذي لم اكن اعلم عنه شيئاً في بيئتي الأولى (النجف الأشرف/ ناحية القادسية) ذلك الصراع والخلاف بين مرجعية النجف متمثلة بالسيد الخوئي (قد) والسيد الشيرازي (قد) أو بين حزب الدعوة الإسلامية ومنظمة العمل الإسلامي أو بين أهالي النجف وأهالي كربلاء لكن ذروة الخلاف التي كنت أسمع فصولاً عنها هو الخلاف السياسي بين المنظمة والحزب، نحن لدينا قيادة معروفة ونعلم مع من نعمل ولأي فرد نتبع ولدينا مرجع محدد الهوية ومعروف التوجه أما هم فلا يؤمنون الا بالقيادة الجماعية ولا يعلنون هذه القيادة!! هذا ما كان يردده الشهيد صاحب برأسي دوماً وما كان علي الاّ الإيماء برأسي تأييداً ولكن قلبي يتقطع ألماً مما أسمع فأنا لا أفهم لماذا الخلاف والفرقة ولا أرى في هذه الفرقة إلا تشرذماً وضعفاً كما إنني لا أستوعب المبررات التي يطرحها الأخ الشهيد عن الحالة. أنها خلافات فوق طاقتي وتحملي، لا تنسجم مع بيئتي الأولى التي نمّت فيَّ الفطرة والطيبة.

ذلك لم يُثنني عن الحماس والاندفاع في مشروع أرى فيه الحياة بالنسبة لي كانه كل الدنيا فانا اختلف عن غيري أشعر

ان الأخرين لا يملكون ما أملك أنا هادف أنا رسالي أنا ثائر أنا مغير كل ذلك يتفاعل في نفسي ويدفعني بقوة لأن أكسب عنصراً جديداً، الشهيد صاحب لم يكن بعيداً عني فهو يرى مقدار الحماس الذي بداخلي فأشار علي ان أتوجه بخطواتي إلى صفاء محمد جعفر زميلي في الإعدادية، شاب أنيق ووسيم ذو دخلٍ متوسط لكنه يبدو وكأنه من طبقةٍ غنية والده وعمه لديهما محل لتصليح الإطارات المعطوبة (بنجرجية) في باب بغداد قرب عمارة التأميم ابن عمه مكي كان زميلاً لنا أيضاً، مكي هُجّر إلى ايران فيما بعد وهو دكتور في طهران الأن، التقيته أكثر من مرة مع بعض الأصدقاء كان يمازحني في كل لقاء قائلاً لمن معي (كاد حميد ان يورطني بتنظيمه، لقد فلتُّ منه بالقدرة)، صفاء الذي أعدمه النظام فيما بعد اعتقاله من الجامعة التكنلوجية مع أخوة أخرين في عام ١٩٨١م لم يدر بخلده اني اهدف من وراء قربي له ان أفاتحه بالانتماء لمنظمة العمل الإسلامي، لقد كنا نلتقي في كل ليلة جمعة في الحضرة الحسينية المطهرة وبعد الزيارة نتجول في شوارع كربلاء نتداول الشأن العام، لقاءات يمتزج فيها الغيب بالشهادة أحاديث صدق وود وروح، تجري الكلمات وكأنها نبع صافٍ لا تدنسه فذلكات السياسة ولا ألاعيب السلطة اليوم، لقد كان الشهيد صفاء رحمه الله مستمعاً جيداً رغم انه لا يبدو ثورياً ولا حماسياً ولكنه كان مؤدباً ولطيفاً لقد كنت

اخشى ان يفاجئني بالرفض في حال فاتحته لذا كنت متأنياً ومترددا في ذات الوقت. أوشكت سنتنا الدراسية على الانتهاء ولقاءاتنا مستمرة والشهيد صاحب يوصي بالتريث في المفاتحة ريثما يتم التأكد من عدم رفضه.

القرار المستعجل

جاءني الشهيد صاحب في يوم ١٨ صفر كان الجو بارداً وهو يرتدي دشداشةً وسترة ويلف على رقبته لفافاً ليبلغني ان علينا غداً ان نتوجه مشياً على الأقدام من منطقة عون باتجاه مرقد الإمام الحسين (ع) لتكريس روح الثورة لدى الزائرين ولغرض التشجيع على هذه الشعيرة التي باتت مهددة بسبب إجراءات النظام خاصة وقد حصل ما حصل للزائرين في العام الفائت وأبديت استعدادي كان ذلك عصر يوم الثامن عشر من صفر والموافق لأواخر الشهر الأول من عام ١٩٧٨م غير أني فوجئت ليلاً بالشهيد صاحب وقد جاء على دراجة هوائية وهو يطرق الباب ليبلغني ان هذا القرار قد ألغي من القيادة وعندما سألت عن السبب قال لضرورات ولأني احظى لديه باحترام خاص أعلمني بالسبب الحقيقي الذي جعلني ألوم نفسي أيضاً كيف لم انتبه أنا أيضاً له فما بال القيادة لم تلتفت إليه قبل التبليغ!! إذ كيف تدعو منظمة سرية أعضائها وهي معدودة الأفراد في مدينة محدودة مثل كربلاء للمشي

لمسافة محدودة ليتعرف بعضهم على بعض في ظل نظام ديكتاتوري فاشستي يستخدم كل أساليب التعذيب في الاعتقالات ليحصل على الاعترافات. كما أن عدد الماشين في تلك السنين لم يكن كما هو اليوم أعني بعد ٢٠٠٣.

بل إن أحداث انتفاضة صفر في عام ١٩٧٧م قد أثرت على الرأي العام وقللت من زخم الراغبين في أداء الزيارة الأربعينية في العام الذي تلاه.

الانتماء إلى حزب الدعوة الإسلامية

هذه النشاطات كانت تبعث الحماس في تحركي على الشهيد صفاء كما ان حماسي هذا بات يكتشفه معلمي وأستاذي الشهيد حميد مهدي سلمان الذي يزورني بين فترة وأخرى في كربلاء فاستدرجني إلى الاعتراف بانتمائي إلى منظمة العمل الإسلامية الذي لم تمضِ عليه سوى شهور وهنا اضطر إلى اتخاذ قرار كان ينوي اتخاذه عندما اطأ أبواب الجامعة بعد عام وهو مفاتحتي بالانتماء إلى حزب الدعوة الإسلامية ولم أمتلك أي قرار سوى الاستجابة نظراً لما يملكه الشهيد الأستاذ من احترام وهيبة عندي، كنت أظن أن ما دعاني له الشهيد صاحب هو عين ما كان يهيؤني له الشهيد حميد منذ سنوات طوال، غير ان الأمر لم يكن كذلك.

وماذا عن صفاء؟ سألت الشهيد سيد حميد، قال لي لا عليك إنه يبقى متصلاً بك وتريث في مفاتحته كما وجهني بأن لا أكشف هذا الأمر للشهيد صاحب وان احتفظ بعلاقة طيبة معه ولكن (أخفف) معه اللقاءات وأن أحاول ان أظهر له بمظهر المتباطئ حتى لا يكلفني بمهام جديدة، قد يكون هذا أول امتحان سياسي لي، وهو في تقديري لا يتناسب وعمري كما انه لا يتناسب والبيئة التي عشت بها لكن ذلك أيضاً نوع من المغامرة يغريني لأن استمر بهذه اللعبة التي كنت اعتبرها جزءً من الجهاد وضرباً من التدين.

في العام ١٩٧٨م وفي العاشر من محرم كان الشهيد حميد مهدي سلمان مشاركاً فعالاً في ركضة طويريج وكانت ركضة ذلك العام حماسية جداً إذ صادفت مع تظاهرات عارمة في ايران كما ان هناك مضايقات كبيرة مارسها أمن النظام على السيد الشهيد محمد باقر الصدر، الأجواء تنذر بشيء ما قبل الركضة، وفي إثناءها رأيت الشهيد حميد وهو يرتدي دشداشة ويلف على رأسه كوفية بيضاء ويتراجع إلى الخلف ويومي بيديه إلى المشاركين في العزاء مرةً يردد يا حسين وأخرى يهتف (عاش عاش الصدر والدين دوماً منتصر) وعندما وصلنا إلى ساحة الميدان، إذ كان هناك خزاناً كبيراً للماء مدوراً مرفوع إلى مسافة خمسة عشر متر تقريباً افترقت عنه وظللت أردد بالشعار مع جموع كبيرة من المعزين وما ان

وصلت إلى ساحة البلوش حتى أحسست بيدٍ تمسك بثيابي من الخلف وعندما التفت وجدت أحدهم وهو يجرني بشدة ليخرجني من العزاء (الركضة) لم استطع الممانعة بعد أن اشترك أخر معه كما اني لم أحاول الهرب، كانت صدمة كبيرة بالنسبة لي إذ لم أكن أتوقع أن تكون جرأة أزلام النظام إلى هذا الحد، كما إن هذه هي التجربة الأولى بالنسبة لي، الاثنان أصبحا ثلاثة، تم اقتيادي إلى سيارة إسعاف واقفة على مقربة من الصحن الحسيني ومن جهة الحسينية الحيدرية (الطهرانية سابقاً) أدخلت إلى السيارة، انتظرت قليلاً، لم يبق معي إلا السائق ورجل من الأمن، بعدها بقليل جيء بشخصٍ أخر وعُصبت عيوننا ثم تحركت السيارة بسرعة إلى دائرة الأمن التي كانت تقع مقابل مبنى المحافظة الحالي والمشغولة حالياً كأسواق مركزية لم تكن بهذا الحجم.

قلق، تردد، خشية من المجهول، لم أكن أعرف أن رفع شعار ضد الحكومة في الدول الديمقراطية أمر مباح تماماً، كما لم أعرف أن قانون العقوبات العراقي نفسه لا يجرم معارضة السلطة سلمياً، أشعر أنني قد مُسكت متلبساً بالجرم المشهود، وإنني لن أفلت من العقاب الصارم بسبب هذا التحدي، إذ كل ما حولي لم يكن سوى أسوار من الممنوعات، فممنوع التعرض للنظام وممنوع التظاهر ضده وممنوع تأسيس حزب أو حركة أو جمعية أو نشاط سياسي،

هذا ما أعيه من حولي، ولا شيء من جريدة أو إذاعة، أو تلفزيون يلهج بغير النظام وتمجيده، سوى تلك الوريقات التي كنت استلمها من الشهيد صاحب أو من الشهيد حميد فيما بعد.

ذكرى عن الأكراد

تُرى ماذا سيفعلون بي اليوم وكم سأستغرق من السجن وكيف بي اذا سألوني عن مسؤولي؟ هل سأنجح في الاختبار أم اني لا أستطيع التحمل؟ من ذا سيوصل الخبر لوالدي ووالدتي، كيف سيستقبلون الأمر؟ أنها أول تجربة في اعتقالٍ أمني لشاب عمره سبعة عشر عاماً وهنا تواردت الخواطر سريعاً في رأسي، تذكرت يوم كنت في الصف الثاني متوسط وبالتحديد بعد توقيع العراق مع شاه ايران محمد رضا بهلوي اتفاقية الجزائر عام ١٩٧٥م بعدها استسلمت قوات الملا مصطفى البرزاني وقام صدام حسين بتهجير آلاف العوائل الكردية التي عادت من ايران إلى مناطق الفرات الأوسط كان من نصيب ناحيتنا العشرات منهم أتذكر أن البعض منهم كان من منطقة أتروش في دهوك كان في الناحية شرطي كردي وعندما كنا نطلب منه ان يترجم لنا ما يقولون كان يقول انه لا يفهم منهم شيئاً أنا أفهم منهم بالعربي أحسن مما يتكلمون بالكردي هكذا كان يقول وحينها عرفت ان هناك لهجتين

متباينتين لدى الكرد واحدة بايدينية والأخرى بابانية، في تلك الفترة تشاجر أخي نوري وكان يكبرني بسنتين مع أولاد عمومتي وهم أبناء خالتي أيضاً وسبب التشاجر يعود لخلافات عائلية أقيمت الشكوى على اثرها فدخلنا التوقيف أنا ووالدي وأخي نوري، كان معنا في التوقيف أحد الأكراد المهجرين قد اعتقله أفراد الأمن في الناحية وبعد الاستقصاء منه ومماطلة من قبله عرفت ان سبب الاعتقال اتهامه بتشكيل تنظيم للأكراد المهجرين في الناحية لترتيب صفوفهم ولست أدري لتنظيم أعمال مسلحة أو تظاهرات أو مجرد تلبية بعض حاجات المهجرين، كنت صغيراً على ادراك معنى التنظيم المعادي أو الممنوع ولم أدرك فترة التحقيق الأولي معه لقد كانت كل أوراقه كاملة ومرسلة إلى القضاء وربما إلى المحافظة وهو لا يبوح بسره، لكنه كان كثير الشكوى والألم من المعاملة السيئة التي يلقاها الأكراد ولا يتحدث عن تهمته ولا عن التنظيم، ربما كان يحاذر لأنه ليس على علاقة بنا خارج الموقف كما كان بعض الأكراد الذين نحبهم ويحبوننا، كنت أتعاطف معه وأشعر بمظلوميته مرتين فهو ليس من سكنة المحافظة ولا حتى عربي بل كالغريب ومرة لأنه معتقل، سمعت فيما بعد انه رُحل إلى مركز محافظة النجف، لقد تداعت هذه الذكريات وأنا في الطريق إلى مديرية امن كربلاء.

سوء الاستقبال

لـم التقـي بمـتهم واحـد مـن العشـرات بـل المئـات الـذين التقيـتهم فـي فتـرة اعتقـالي وسـجني وقـد دخـل أحـد الـدوائر الأمنيـة واسـتقبل بـاحترام ريثمـا يبـدأ التحقيـق أو توجـه إليـه أسئلة المحقق، ولـم التقي بمتهم واحد دخل أحد مديريات الأمـن في العـراق وهـو مفتـوح العينين، ولـم أكـن استثناءً مـن ذلـك فالسـباب والشـتم والكلمـات النابيـة ديـدن المسـتقبلين ممزوجاً بالضـرب كـل حسـب قـدره، وقـدري كـان يسـيراً فـي أول اعتقال شهدته، أسمع من أحد الضباط يقول اعزلـوا كـلاً حسـب محافظتـه فهنـاك مـن الديوانيـة والحلـة والنجـف، بعـد تحقيق بسيط وتعذيب خفيف دونت الإفادة وبعدها تم تدوين معلومات تفصيلية عن كل واحد من المعتقلين شملت الاسـم الرباعي واللقب وأسماء الأخوة وزوجاتهم وأسماء الأخـوات وأزواجهم والعمات والخالات والأعمام والأخوال حتى ان البعض من المعتقلين لا يستطيع الإجابة على بعض الأسئلة ليس تهرباً بل حقيقةً لا يعرف مثلاً جدّ أمه أو ماذا يعمـل ابن خالتـه أو عمتـه، كـل تلـك المعلومـات يُطلـق عليهـا صـحيفة الأعمال وتلك تعد إجراءً روتينياً على كل معتقل ولـو بقـي ليوم أو أقل من يوم.

لم تكتمل هذه الإجراءات في أول يوم بل كانت في اليوم التالي بعد أن أمضيت ليلةً مملوءة بالأحلام التي تنقلني مما أنا فيه ففي كل غفوةٍ أجد نفسي مع أحد أفراد عائلتي مرة أمي وأخرى أبي وثالثةً أخي وما إن افتح عيني حتى أجد نفسي فيما أنا فيه وما إن أعود لأغفو حتى يتكرر نفس الحلم، وهكذا حتى الصباح، إذ يوقظ المعتقلون بالركل بالأرجل والصياح والألفاظ البذيئة ويوضع طعام الإفطار أمام كل معتقل. ثم يتلقى كل معتقل ركلة بالقدم كدعوةٍ لتناول الإفطار ومعها كلمة بذيئة، بالنسبة لي كمعتقل لأول مرة ورغم كل ما كنت أسمع عن المعتقلات وطرق التعذيب وطريقة التخلص من الانهيار والابتعاد عن الاعتراف وقسوة رجال الأمن في التحقيق كل ذلك لم يشفع لي في أن أكون عادياً تماماً، وهادئاً ومطمئناً، بل نفرت نفسي من الأكل وانغلقت شهيتي من القلق حيناً ومما أرى حيناً أخر مما دعا أحد أفراد الأمن إلى ركلي مرةً أخرى (يله لك اكل لو...) أكلت قليلاً، ثم استدعيت إلى التحقيق بشكلٍ منفرد ولم أكن أتوقع أن الأمور تسير بهذه السهولة فالتحقيق لم يتعدَّ ضرب بسيط في الفلقة وعدد من ضربات الخد (الراجديات) والأسئلة عابرة هل أنت في حزب الدعوة، اعترف وإلا ستبقى هنا وسيضيع مستقبلك، وربما ستموت في التحقيق، لقد كان التعذيب نفسياً أكثر مما هو بدنياً، وجميع الأساليب

واضحة لدي، إذا ما بقي الحال على هذا النحو هكذا حدثتني نفسي، لقد كانت التوجيهات على ما يبدو هي في الاستعجال بإطلاق سراح المعتقلين، فنحن لم نزل في عهدة الرئيس أحمد حسن البكر، ولم تكن إجراءات جلاوزة النظام في ذلك العهد كما هي بعد استلام صدام حسين للحكم الذي ستمر علينا فصوله لاحقاً.

لحظة الفرح الغامر

بعد آذان الظهر بساعة تقريباً نادوا باسمي وتوقعت فصلاً جديداً من التحقيق لكنها كانت المفاجأة، فإطلاق هتاف ضد السلطة، ويلقى القبض عليك متلبساً بتلك الجريمة أمر يقود إلى الإعدام حقاً وفي مخيلتي كذلك، لقد كانت لحظة فرحٍ غامر عندما أبلغت بأني سيطلق سراحي بعد قليل (وإياك أنْ تعود لمثلها لاحقاً، فوالله لا تجد نفسك إلا على حبل المشنقة) هكذا قال لي مدير الأمن في كربلاء، وكتجربةٍ أولى لشابٍ لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره كان هناك خليط في نفسي بين الشعور باني انتصرت، سلمت مبادئي، تحديت السلطة في الهتاف ضدها وسلمت من العقاب، شعور أن بدايتي مع جهاد الظالم كانت موفقة، قلت (كلا) أمام سلطانٍ جائر، وشعور بالقلق من اني بت تحت الضوء، ربما أكون مراقباً بل ربما يكون إطلاق سراحي حيلة سيعودون بعدها

لاعتقالي بعد أخذ المعلومات كاملة عني، لكن الشعورين معاً يختفيان وأنا في حضن أبي وأمي اللذين كادا أن يفقدا صوابهما وهي ليلة واحدة !!! فما بالك بما أضمرته لهما السنين المقبلة؟!

الثورة الإسلامية في إيران ١٩٧٩

بدأت الأحداث تتسارع في إيران ففي أواخر عام ١٩٧٨م كانت المظاهرات الإيرانية تُلقي بظلالها على الشباب في عموم العراق ومنها كربلاء، كان صوت (مونت كارلو) الفرنسية الناطقة بالعربية يهدر في كل بيت، فليس هناك فضائيات ولا أنترنيت ولا واتس اب ولا فيس بوك ولا هواتف خلوية، بل هما قناتان عراقيتان فقط الأولى والثانية على البث الأرضي، كانتا تعتمان على مجريات الثورة تعتيماً كاملاً، وكأن الثورة كانت ضد جناح حزب البعث في إيران!! وليس ضد الشاه الذي أذاق العراق مرارة الهزيمة في حربه مع الأكراد، وأجبره على توقيع معاهدة شط العرب التي فيها من التعسف في هضم الحقوق العراقية ما فيها!! كان حديث الشباب المتدين أينما تذهب هو في يوميات الثورة، كيف رحل الإمام من النجف؟ كان الكثير منا يجهل أن هناك رجلاً مثل السيد الخميني مقيم في النجف وله أنصار وأتباع بهذا الحجم في إيران، لم نكن نتلقى في أدبيات الحزب (حزب

الدعوة) -رغم فترة الانتماء القصيرة - أوليات هذه الثورة وأحداث ١٩٦٣م ونفي السيد الخميني إلى تركيا ومنها إلى العراق. لقد برزت كل تلك الأحداث فجأة إلى الواجهة، وغطت إذاعة مونت كارلو وهيئة الإذاعة البريطانية الكثير من جوانب الثورة بتقارير كنت أصغي لها جيداً وباتت نشرة أخبار الثامنة زاداً لا يمكن الاستغناء عنه بالنسبة لي، لقد كان انعكاس أحداث الثورة على الشباب في المدرسة واضحاً جداً وكان استياء طلاب الاتحاد الوطني من البعثيين واضحاً أيضاً من نظراتهم المريبة وقراءتهم لهوية الثورة وهويات المتأثرين بها. لقد كانت هناك حملة قوية لملاحقة المستقلين في صفوف الإعدادية والسؤال منهم عن الأسباب وراء عدم انتمائهم إلى صفوف البعث صاحب المنجزات كمجانية التعليم، وتأميم النفط، ورفع القدرة الشرائية للمواطنين، وكهربة الريف، وكل تلك الإنجازات حصلت فعلاً وتأثر كثير من الناس بها، وهي إنجازات ظل يلهج بها صدام فيما بعد فكان من عادته أن يذكر العراقيين بما كانوا عليه في الستينيات وما باتوا عليه اليوم.

المهم ان الطلبة يجيبون على أسئلة طلبة الاتحاد كل حسب حذاقته وقدرته على الإقناع، إلا ان طلبة الاتحاد يدركون جيداً أن كل تلك الإجابات وراءها سبب واحد هو عدم قناعتنا أو معارضتنا للنظام، لكنهم ليس لديهم دليل على

تجاوزنا القانون أو أساءتنا (للثورة والحزب) وهذا ما طوق حركة الشباب المتدين، وجعلهم تحت دائرة المراقبة وحدد الكثير من نشاطاتهم، لقد بات الصامدون أمام إلحاح طلبة الاتحاد على الدخول في صفوف حزب البعث قليلين مما سهل عليهم عملية المراقبة وكتابة التقارير اليومية عن نشاطاتنا.

لقد كسبت الثورة الإسلامية في ايران إبان انطلاقتها وبعد نجاحها تعاطفاً كبيراً من الرأي العام العراقي وبالأخص في مناطق الوسط والجنوب، من البعثيين ومن غير البعثيين، وساد بعض القلق في صفوف أفراد الأمن بعد تعرية جهاز السافاك وأفعاله، وتأثرت قطاعات واسعة من الشباب بشعار الثورة (لا شرقية، لا غربية جمهورية إسلامية) إلا أن هذا التأثر لم يرْقَ إلى مستوى الحركة الشعبية، أضف إلى ذلك إن قوة الحزب وتغلغله في صفوف الناس يجعل من الصعب انطلاقة ثورة عارمة، أسلوب التظاهر الذي بهر الشباب المؤمن في العراق بعدما رأوه في ايران لم يكن من السهولة العمل به في العراق، الأنفاس محبوسة والأنظار مشدودة لطهران، وكيف سيكون مصير ثورة الخميني في ايران، هل سيصمد الشاه؟ هل سيواصل الشعب الإيراني التظاهر؟ هل سيتمكن الجيش الخامس في العالم ومعه السافاك (أكبر منظومة أمنية في الشرق الأوسط) من قمع الثورة وإنهائها أم

لا؟ هذه أسئلة المتدينين في العراق وهذا أهم ما نتداوله في الاجتماعات الحزبية وغير الحزبية. أسطورة النظام الشاهنشاهي ماثلة أمام الملوك والرؤساء العرب ومنهم أحمد حسن البكر لذا استجاب لطلب سلطات الشاه بإجبار السيد الخميني (قد) على مغادرة العراق واستجابت الكويت بعدم استقباله في أراضيها، بل واستجاب نظام البعث في العراق لطلب الشاهبانه فرح بهلوي أخت شاه إيران بزيارة العراق ولقاء السيد الخوئي (قد) علها تقنعه بدعوة مقلديه لعدم الاشتراك في التظاهرات أو التأثير على السيد الخميني (قد) بإيقاف إصدار بيانات الثورة والتفاوض مع الشاه من أجل حل ما. هذا ما تناقله المتدينون في حينه وهو كلام متاح في الإذاعات الأجنبية.

تعالت أصوات الاحتجاج في إيران وتصاعدت التظاهرات وفر الشاه من إيران وعاد السيد الخميني من منفاه وانتصرت الثورة في ١٩٧٩/٢/١١. تلك لحظة تاريخية في العراق والشرق الأوسط، انعكست بشكل واضح على كل الإسلاميين في العراق منتمين وغير منتمين، ترى في داخل كل أحدٍ منا كتلةً من ثورة وزهواً ونشوةً، خيلاء الانتصار بادٍ على وجوهنا، عز الإيمان واضح في أحاديثنا في البيت والمدرسة والشارع، لم يترجم ذلك (بالنسبة لي) على شكل تخطيط أو توسع في التنظيم أو مشاركة جماهيرية في برنامج،

ولكنه طاقة كبيرة مضافة إلى طاقتي التي كانت عندي. في المقابل بدا واضحاً انكسار البعثيين ترى في وجوههم ذل الهزيمة وكأنما لسان الحال يقول قريباً سياتي دورنا.

لقد تعززت في تلك الأيام قيادة الشهيد الصدر الأول (قد)، وبانت ملامح قيادته للثورة في داخل العراق وذلك بعدول الكثير من الشباب في تقليدهم وتقليده ناهيك عن تقليد المبتدئين له وتواصل الوفود الشبابية معه. سير الأحداث ينبئ بشيءٍ ما يلوح في الأفق، ترقب وحذر، خوف وقلق، يتبادل ذلك المتدينون والبعثيون حتى جاء شهر تموز من عام ١٩٧٩م، أي بعد نجاح الثورة الإسلامية بخمسة أشهر ليعلن صدام حسين توليه الرئاسة وتخلي أحمد حسن البكر عنها (لأسباب صحية).

في يوم تسنمه الرئاسة أعلن عفواً عاماً عن كل السجناء السياسيين تبين فيما بعد أنه لم يطلق سراح المئات من الدعاة، بل أبقاهم برغم العفو في السجون والمعتقلات وبعد تسلمه الرئاسة بأيام قام بمجزرته الكبيرة في صفوف حزب البعث فأعدم أعضاءً في القيادة القطرية للحزب على رأسهم محمد محجوب. الغريب في هذه الحكاية أن نظام البعث ومنذ تسلمه السلطة في العراق كان يقوم بتصفيات داخل الحزب الا أنها تبقى سرية حتى وان ظهر أمرها للأعلام فانه لا يبث تفاصيلها لجهاز الحزب، ولكن هذه المرة أمر صدام

حسين بأن يصور اجتماع القيادة كله وكيفية مناداته على أسماء (الخائنين) واحداً واحداً وجره من القاعة إلى جهةٍ مجهولة وبالتالي إعدامه ثم أمر بتوزيع هذا الشريط على كافة أعضاء الحزب في المحافظات. لقد سرت هذه الشائعات إلينا نحن المتدينين وأثارت استغرابنا أنها رسالة الإرهاب الأولى إلى أعضاء الحزب، فما بالك في المعارضة.

الصدمة الكبيرة

في هذه الأثناء أكملت الامتحانات العامة للسادس العلمي وسط أجواء من الخوف والقلق والفرح والزهو معاً، وأنا أحوج ما أكون اليوم لمرشدي ومربيّي ومعلمي ومسؤولي السيد حميد مهدي سلمان المحنة فمعدلي جيد قد يؤهلني إلى القبول في كلية الطب ولكن لا أعلم بغداد أو المستنصرية أو الموصل، ومتطلبات الشباب تلاحقني، تلقيت نصيحة منه قبل أن يظهر قبولي في الجامعة (عليك أن لا تفكر في الزواج إلا وأنت في الصف الثاني أو الثالث من الكلية)، وصاياه كنت أتعامل معها أوامر، لا تخف من الجامعة، أنها ميدان عملٍ جديد يزخر بالمواهب والطاقات وتستطيع أن تؤدي فيها رسالةً كبيرة، إخواننا هناك من الدعاة ينتظرونك، ستجد هناك ضالتك من العمل المنظم والتحرك الواعي، اشرفنا على ملامسة الانتصار، الثورة الإسلامية في

ايران ستنتقل حتماً إلى العراق، ربما نكون في العراق أحسن حالاً وأكثر نضجاً وادق وعياً، لقد كانت هذه أخر كلماتٍ تلقيتها منه على ما أذكر ثم أعطاني منشوراً سرياً وكأنه يثبت ما قال لي، المنشور يتحدث عن نصائح تبديها الدعوة الإسلامية لقادة الثورة ومن بين ما اذكره نصائح بشأن تقليل أيام عيد النوروز رأس السنة الإيرانية. بعد أيام سمعت باعتقال السيد حميد كان ذلك في أيلول عام ١٩٧٩م. وهكذا فقدت الاتصال بالسيد حميد وأنا أحوج ما أكون إليه فقد ظهر قبولي في جامعة الموصل كلية الطب.

الشعور بالوحدة

قد لا يكون المسؤول الحزبي في زمن السلطة يعني لك شيئاً إذا ما افتقدته وقد يكون مسؤولك الحزبي كذلك في زمن المعارضة اذا كانت علاقتكما حزبية، طارئة، رسمية أما بالنسبة لي فالأمر مختلف بالنسبة لسيد حميد ولكثير من الدعاة الذين تعرفت عليهم لاحقاً فمن يُكلف بالتحرك على شخص ما يصبح هو القدوة والأب والمربي والقائد والنموذج الأمثل في كل جوانب الحياة وهكذا كان الشهيد السيد حميد بالنسبة لي ففقدانه يشعرني بالغربة والحسرة، هذا إذا ما أضفت له الوضع الأمني الخطير حيث الاعتقالات

والمراقبة والبيئة الغريبة والبعيدة عني، ونشأتي الريفية، كل ذلك جعلني أشعر أني فقدت أباً راعياً.

لم يمنعني ذلك من تفحص الوجوه وقراءة العيون والبحث عن الخفايا، فكليتي ليست في مقر الجامعة في الصوب الأخر من الموصل والتي يطلق عليها المجموعة أنها في الصوب القديم والقسم الداخلي قبالة جامع النبي يونس ومعي في الغرفة الشهيد إسماعيل خليل من كربلاء وهو الذي اخبر أهلي باعتقالي لاحقاً حيث كان معي لاستلام نتيجته في ١٩٨٠/٧/٨ لأراه بعد فترة وجيزة معصوب العينين في أمن كربلاء ثم اختفى ولم يتعرف أهله على مصيره حتى سقوط النظام عام ٢٠٠٣ ليتيقنوا انه أعدم كما الالاف من أمثاله.

تبدو واضحة حركتنا في القسم نحن المتدينين، ربما هناك صعوبة في تحديد من المنتمي ومن هو غير المنتمي منا ولكن معرفة معارضتنا للنظام تبدو واضحة لزملائنا في القسم على الأقل، وإلا ففي الكلية يوجد ٢٥٠ طالباً في الصف الأول ومن جميع المحافظات، وكانت تضمنا قاعة الكلية جميعاً في عدد من الدروس، كان انشغال الأغلب منا هو في مادة الدراسة والمجاملات بين الجنسين، والانبهار بالحياة الجديدة، فالجامعة نقلة كبيرة في حياة الكثير من الطلبة، بيننا من هم عرب فلسطينيون وأردنيون وبحرانيون كان يمنحهم

النظام زمالات دراسية، لست متحمساً من ذلك ولكن يبدو على أغلبهم عدم الالتزام الديني، في القسم الداخلي تعرفت وبسرعة على عدد من طلاب المرحلة الأولى أمثالي من المتدينين أتذكر محمد باقر من الديوانية وعادل صليبي من الكوت العزيزية استشهدا فيما بعد ورضا حسان الجابري اعتقل وسجن فيما بعد وغالب جواد كاظم العبادي من الكرادة بغداد اعتقل وسجن فيما بعد وسهيل حميد سعدي من ديالى اكمل الدراسة وقتل في الحرب العراقية الايرانية وحسين البعاج من الديوانية أكمل دراسته.

لا زلت تحت تأثير صدمة اعتقال السيد حميد لم أتمكن من الاتصال بالحزب من جديد، وعلي التحرك سريعاً في ظل أحداث تتسارع، اعتقالات مستمرة، اعترافات خطيرة تتسرب إلى مسامع المتدينين، صدام مصمم على القضاء على الحركة الإسلامية في العراق، تصلنا أنباء المضايقات على السيد الشهيد الأول محمد باقر الصدر (قد)، حتى وصلت إلى الإقامة الجبرية، نظرات طلبة الاتحاد بالنسبة لنا توحي بغيظهم وسخطهم علينا. كل هذا يشعرني بحاجتي إلى إخواني الذين يقاسمونني نفس الهم، لا انكر أن لهم نفس الشعور فهم يبحثون عنا بلطف وتستر، تعرفت بعد شهر أو أكثر من دخولي الجامعة على كل من محمد خليفة كلية الطب المرحلة الرابعة من النجف الأشرف، ومحمد علي

الآّهو كلية العلوم المرحلة الرابعة من كربلاء وضياء عبد الصاحب المرحلة الثانية من كلية الهندسة من كربلاء وهمام عبد الصاحب كلية الطب المرحلة السادسة، وحسين علي غلوم في المرحلة الرابعة من كلية الطب من أهالي الشطرة، وجميع هؤلاء تم إعدامهم فيما بعد كانوا يعيشون في شقة سكنية خاصة بهم في أحد الشوارع القريبة من الكلية، وهي بمثابة ملتقى يدعون إليهم من يرونه على شاكلتهم في التدين ومعارضة النظام.

العمل النخبوي

لم يكن معرفة ان عمل حزب الدعوة الإسلامية في الوسط الجامعي عمل نخبوي بحت أمراً صعباً، فالعلاقات لم تكن عامة بأوساط الطلبة ومن مختلف الشرائح والفئات، كما أن التوجه العام للطلبة ليس مع المعارضة، لقد كانت بداية حكم صدام حسين مقرونةً بمزايا اقتصادية كبيرة على المستوى المعيشي وهناك توسع كبير في مجال البناء والعمران، رواتب الموظفين قد زيدت، بدأ صرف سلف للطلبة الجامعيين على ان تسترجع لاحقاً، هذا اذا أضفنا الزيارات الميدانية لصدام حسين للمحافظات والاطلاع على واقع الأسر العراقية ولقاء مدراء النواحي والأقضية والمحافظات كل ذلك خلق تعاطفاً معه، ناهيك عن الكادر

الحزبي الذي يعمل ليل نهار والذي كان جل وقته يقضيه بكتابة التقارير والمراقبة من جهة والكسب الحزبي ومفاتحة الطلاب بالانتماء والإيحاء لهم دوماً انهم لم يعودوا سوى أفراداً قليلين لا بد لهم أن ينتموا أو يكشفوا عن انتماءاتهم غير الوطنية من جهة أخرى . لم يكتف صدام بما لديه من تاريخ في القمع الحزبي واشتغاله بحركة حنين البعثية لاغتيال الخصوم بل وطد ذلك بمجزرة الخلد التي اعدم فيها العشرات من رفاقه في تسجيلات فيديوية امر بمشاهدتها من قبل جميع الرفاق، بل انه امر بحضور محاكمتهم الصورية من الكادر المتقدم في الحزب وأدرك الجميع ان سبب إعدام هؤلاء الرفاق لم يكن سوى عدم رضاهم عن تسنم صدام حسين قيادة الحزب والدولة وأقصاء احمد حسن البكر عنها، ذلك ضاعف الرهبة في قلوب كوادر الحزب وبات يتحرك بدافعين اما الترغيب أو الترهيب، كل ذلك جعل من الطلبة غير المنتمين لحزب البعث أقلية قليلة بالفعل لكنها كانت نخبة فعلاً من حيث الأخلاق والوعي والثقافة والتدين تمتلك تعاطفاً ولكنه لا يرقى إلى مستوى الاحتجاج أو الأضراب أو حتى التجمهر اذا ما اعتقل احدهم ليس هناك من ردة فعل سوى ان يخيم الصمت الرهيب على أصدقائه من الطلبة والطالبات، ثم تبدأ إشاعات طلبة الاتحاد من حولهم، خائن، عميل، قاتل، لديه عمل سري، هذه الشائعات بدأت تسري

كالنار في الهشيم إثر الإعلام الموجه ضد المعارضين، اذن نحن حتى لو ظفرنا بقلوب البعض ولكننا لن نظفر بمواقفهم المعلنة.

الشهيد الدكتور عاصم الربيعي

في غمرة الترقب والحذر بين المتدينين وركود التحرك الحزبي واضطراب التنظيم الجامعي على ما يبدو تردد على سمعي وعدد من طلبة الصف الأول اسم الدكتور عاصم جاسم الربيعي تخرج حديثاً من كليتنا (كلية الطب) مقيم في المستشفى العسكري في الموصل شاعر موهوب، سبق له وأن ألقى قصيدة في مهرجان شعري أقيم في الكلية فبدأها بغزل رفيع كانت القصيدة تحت عنوان (شقراء) وكلما نطق بكلمة شقراء نظرن بعض الشقراوات إلى بعضهن حتى إذا بلغ من القصيدة مبلغاً واذا به يتغزل بكليته، لذلك أخذت هذه القصيدة صدىً واسعاً، لقد نقل لنا الحكاية طلبة الثاني والثالث والرابع، الدكتور عاصم حرك حالة الترقب والحذر التي بيننا وأراد أن يكسر بعض الحواجز، أو يوطد العلاقات الأخوية والإيمانية، أو أنها الخطوة الأولى لمفاتحة البعض، أو ربما اجتمعت كل تلك الأهداف مع أهداف أخرى فقرر أن يصطحبنا بسفرة طلابية خاصة بنا إلى مناطق جميلة في شمال العراق، أنا لدي تجربة في السفرات الهادفة ففي عام

١٩٧٩م قمت بسفرة لمجموعة من الأصدقاء في مدينة كربلاء في شهر تموز أعددت للسفرة وكانت إلى مدينة سامراء لزيارة الإمامين العسكريين (ع) انقلبت وبالاً علينا بعد عام ليعتقل اغلب المشتركين، وسآتي على ذكرها لاحقاً.

لم أكن ممن زار المناطق الكردستانية مسبقاً ولم أر أية مناطق جبلية قبل هذا التاريخ. كان الجو بارداً جداً فربما كانت السفرة في أواخر الشهر الأول أو بداية الشهر الثاني من عام ١٩٨٠م. كانت السفرة باتجاه مصايف دهوك فمررنا بسوارة توكة، وسولاف قد يتجاوز عددنا العشرين طالباً من مختلف المراحل ومختلف الكليات والبارز فينا الشهيد الدكتور عاصم يقف في داخل السيارة يوجه أسئلةً حيناً وطرائف حينا، يوزع المشاركات، يجمل السفرة بخفة الدم، كانت النكات في بعضٍ منها سياسية أذكر منها نكتةً طبية، إذ أعلن تلفزيون النظام حينها عن اكتشاف أطباء عراقيين لمضادّيْن حيوين (Anti boitic) أطلق عليهما في حينه بكرين وصدامين، نسبةً إلى أحمد حسن البكر وصدام حسين، النكتة التي حكاها لنا الشهيد عاصم إن أحد المرضى قد جاء إلى احد الصيادلة يسأله: عمو هل لديك كبسول صدامين فأجابه الصيدلي كلا فقال له هل عندك كبسول بكرين فانزعج الصيدلي الذي يعرف ان هذه مجرد دعايات وليس هناك من مضاد حيوي من اختراع عراقي فقال له بل

عندي كبسول طه محي الدين والأخير كان نائب رئيس الجمهورية وهو من الأكراد الموالين للنظام وقد جعله صدام في هذا المنصب ليقول انه يشرك الأكراد في الحكم.

التفت الجنود المرابطين على الجبال وقرب المصايف التي زرناها لأمرين الأول لماذا لم تأتي معكم طالبات في السفرة؟ والوقت شتاءً ليس مناسباً للسفر وتدارك الشهيد عاصم ومعه طالب أو طالبان ليجيبا بسرعة، أما تعلم سيادة الضابط ان البنات (نازوكيات) يعني رقيقات، ولا يتحملن هكذا أجواء ثم أننا من المحافظات وفي الصيف ينطلق كل إلى محافظته والوقت الوحيد الذي يجد فيه الطالب متسعاً هو هذه الأيام، ثم ألا ترى الثلوج ومنظرها الرائع كم هي جميلة هكذا أجابوا عليه فاقتنع الضابط وقال تمتعوا بسفرتكم إذن. ربما لو انتبهوا إلى مطالبتنا بكتاب رسمي لكنا وقعنا في إشكال كبير ففي كل وحدة عسكرية كان هناك وحدة استخبارات يقودها عسكريون بعثيون.

تناولنا الغداء ونحن نستمتع بمناظر الجبال والثلوج والوديان وعدنا عصراً إلى أقسامنا الداخلية.

لم تتطور هذه العلاقات إلى علاقات تنظيمية ولم تتم مفاتحة أي من الطلبة الجدد هذا ما أحسه، ربما كانت الاعتقالات المتوالية هي السبب، فانقطاع الخيوط التنظيمية

أوقع الحزب في حرج شديد، وكلما تم إعادة حلقة انفرط عقد أخرى وتسارعت الأيام وحل الشهر الرابع.

أحداث نيسان عام ١٩٨٠

لم أزل أعيش تلك اللحظات التي أصبنا فيها بالإحباط ونحن نسمع خبر اعتقال السيد محمد باقر الصدر (قد) لقد تواترت الأخبار حول اعتقاله فكانت الإذاعات تضج بالحديث عن موسى الصدر واختطافه في ليبيا وأبو الحسن بني صدر رئيس الجمهورية الإيرانية ثم جاء اعتقال السيد محمد باقر الصدر في العراق سمعت أحد الطلبة من أهالي الموصل وقد التبس عليه الحال وهو يسأل (كلها صدر لا ندري ما القصة) ففسرت له كل خبر على حدة وأدرك حينها البعد في القضايا.

كنت ممن لا يصدق ان النظام سيقدم على إعدام السيد محمد باقر الصدر، لأسباب لعل أولها عندي أنه سبق وان اعتقل السيد في عام ١٩٧٩م ثم أفرج عنه، وكان في اعتقادي ان صدام حسين الذي لم يمضِ على تسلمه الحكم سوى أقل من عام أضعف من أن يقدم على هكذا قرار جائر، والسبب الآخر هو صدى الثورة الإسلامية في إيران كان كبيراً في العراق فإعدام السيد يزيد الأمر تعقيداً، ولا يمكن لسياسي أن يغامر بهذه الطريقة، هكذا كنت أرى على حد علمي ومعرفتي

كانت النقاشات بيننا محتدمة بين من يقول ان صدام سيعدمه وبين من يرى ما أرى.

بدأ الخوف والقلق والتوتر يستشري في صفوف الناس عامة والطلبة خاصة أذكر أن أحد الطلاب معي في القسم الداخلي من أهالي بغداد كان يصلي سابلاً يديه لكنه لا يسجد على تربة عندما سألته لماذا وهو من شيعة بغداد قال يجب ان نقرّب بين المذاهب!! طالب أخر أُعتقل فيما بعد بدأ يترك بعض صلواته، ورغم ان النظام لم يعلن في وسائل إعلامه أنه قام بإعدام السيد الصدر إلا أن التكتم على نبأ إعدامه وإعلان ذلك من وسائل إعلام أخرى جعل الموضوع أكثر رهبةً في صفوف العامة من الناس.

كنت وأخواني من الطلبة يتابعون وبشدة أخبار النجف خاصة، ماذا يمكن أن يحدث، هل هناك تظاهرات، احتجاجات، إضراب؟ كل القادمين من النجف يخبروننا أن هناك توتراً وهدوءً حذراً ليس أكثر، كنا نراهن ان شيئاً ما سيحصل في النجف ويوماً بعد يوم تعود الأمور إلى مجراها وتتعاظم الاعتقالات.

بت أعاني كثيراً من القلق والإحباط، ولكني لازلت آأمل أن أجد لي مكاناً في تنظيمات الحزب في الجامعة فالتنظيم يخفف عليّ الكثير من القضايا التي أواجهها بعد تجربتي قبل الجامعة أدركت أن التنظيم يمدك بالدعم النفسي، ويعطيك

التحليل المناسب والتصور الأقرب إلى الواقع بشأن الأحداث التي تصادفك كما انه يسهل عليك عملك الدعوي ويبرمج نشاطك اليومي رغم الخطورة التي تنطوي عليه جراء الاعترافات بعد الاعتقالات.

بدأت دائرة الاعتقالات تضيق لتقترب من معارفي وبدأ التداول بأسماء المحققين في أمن الموصل وأساليب التعذيب وطرق أخذ الاعترافات والتحذير من التعامل على قدر الثقة وإنما يجب أن يكون على قدر الحاجة، لم تكن درجاتي على ما أطمح ولكنها لم تكن بمستوى الضعف أو الرسوب، عندما تحدثت عن ذلك للطالب محمود خليفة أحد طلبة المرحلة الخامسة كلية الطب قال لي أو يُقتلُ مثل السيد محمد باقر الصدر وأنت تخشى على انخفاض درجاتك؟ فرد عليه زميله همام عبد الصاحب وكان في المرحلة الرابعة في كلية الطب ومن قال لك ان السيد محمد باقر الصدر لا يحب ان نكون متفوقين دوماً رغم كل الظروف القاهرة التي نمر بها؟

تلك المحاورة المتوترة في ظرف متوتر يوحي بأن اعتقالنا على الأبواب، بالنسبة لي ما يجعلني أميل إلى أن دوري قد يتأخر هو عدم ارتباطي التنظيمي بعد اعتقال الشهيد حميد، لكن هذا الأمر هو الآخر لم يعد حائلاً فقد بدأت اعتقالات من نوعٍ جديد بعد أحداث المستنصرية ومحاولة

اغتيال طارق عزيز ومقتل فريال وتصريحات صدام حسين المشهورة (إن دماء فريال لن تذهب سدىً)، وتلك ذريعة اختلقها النظام ليبرر بها قراره بتصفية الحركة الإسلامية في العراق وحزب الدعوة الإسلامية بشكل خاص. ثم أتبع ذلك قرار مجلس قيادة الثورة بإعدام من انتمى إلى حزب الدعوة الإسلامية أو روج لأفكاره أو تستر على المنتمين له بأثر رجعي، وللأثر الرجعي هذا حكاية ستمر علينا في قادم الأيام.

أديت امتحانات نهاية السنة وانا على وجل وقلق بالغين فالاعتقالات بدأت تتوسع شيئاً فشيئاً والأمر لا يخص الجامعة فحسب، بل في عموم العراق.

مع الشهيد الدكتور عاصم الربيعي ثانيةً

قلت فيما مضى أن شخصية عاصم تختلف عن سواها في المرح والالتزام والهدفية، لقد كان رحمه الله شفافاً جذاباً، ويبدو أن القلوب شواهد والأرواح كما قيل جند مجندة ما تشابه منها ائتلف وما تنافر منها اختلف، فقد بات عاصم أقرب إلي من غيري، وهو حريص على متابعتي، وذات يوم وبالتحديد في ١٩٨٠/٤/٣٠ طلب مقابلتي في حديقة من حدائق الموصل، يومها كان الجو بارداً، وطلب مني أن أكون رفيقه في مهمة لم يكن بوسعي ردها ولا رفضها لضرورات

أمنيـة أولاً ولقربـي منـه ثانيـاً، وتقـديراً لثقتـه التـي وضـعها فـيّ ثالثاً، فكان ما كان، وبت تلك الليلة، حيث يقيم الهـدف، ومـا إن أُنجـزت المهمـة حتـى عـدت فـي صـباح ١٩٨٠/٥/١ إلـى بغداد ومنها إلى كربلاء.

الفصل الثاني
الوقوع في المحذور

السفر إلى الموصل لغرض النتيجة

لا حاجة لأن يذكرني الفيس بوك عبر صفحتي بهذا اليوم فالفيس بوك حديث الولادة ولا يؤرخ يومياتي قبل أربعين عاماً. أربعين عاماً كأنها البارحة، لكل منا ذكريات عديدة لكن منها ما لا ينسى، نتذكرها، نتذكر تاريخها في اليوم والشهر والسنة، طقس ذلك اليوم، أصوات الطيور، حركة المرور، الأشجار، الثمار، الوجوه التي أحاطت بنا، ولا يهم إن كانت تلك الذكرى حادث حزن أم فرح، جربوا معي وستتذكرون، يوم زواج، يوم ميلاد لأحد أولادكم، يوم تسريحكم من الجيش، وبالمقابل موت قريب، أو صديق عزيز، شجار، أو خصومة. خسارة فادحة في تجارة....الخ. في ليل الاثنين ١٩٨٠/٧/٧ توجهت إلى كراج العلاوي لأسافر من هناك إلى الموصل، فالسفر ليلاً في تموز أفضل من النهار، والذهاب ليلاً يختصر عليك نفقات المبيت في فنادق تلك المدينة التي لم اعتد بعد على العيش أو المبيت خارج أقسامها الداخلية،

الطريق آمن تماماً فالبلاد لا تعرف التظاهر لسبب أو بدون سبب، ولا تعرف الأحزاب فالحزب واحد والقائد واحد، ولا لافتات لمعارض أو مؤيد يطالب بتعيين، وآخر يطالب بحل البرلمان أو مجلس المحافظة، وليس هناك من وزير ولا نائب ولا مدير عام كلهم في الدولة ويصرحون ضد الدولة ليل نهار، يرضعون من ثديها ويعضونه، ويشربون من بئرها ويبصقون فيه، الطريق آمن والمدينة آمنة لأن حياطين المدن وطرقاتها ومدارسها وجامعاتها رُصت بحرس السلطان، آذان السلطان، عيون السلطان، الطريق آمن، والمدينة آمنة عند المغفلين ولكنها بالنسبة لغيرهم غير آمنة سواءً من عارض النظام أو من أيده، فمحمد عايش وجماعته كانوا من أشد الموالين، وتم إعدامهم باحتفال جمع فيه الرئيس (الضرورة) عددا كبيراً من الرفاق ليروا المجزرة بأم أعينهم لكي يدخل الخوف في قلوبهم، أما المعارضون فأنفاسهم مراقبة وليس ألسنتهم وأيديهم فقط. رأسي يكاد ينفجر من تصارع الأفكار، أحلام صباي، ثمرة دراستي، كليتي الحبيبة والمهنة التي عشقتها وانا طالب في الابتدائية، آمال أمي وأبي الطيبين اللذين يعدان الساعات والأيام ليأكلا من ثمر ابنهما بعد التخرج، وتعشم أخويَّ وأخواتي ومباهاتهم وتفاخرهم. لا بأس بعرض بطاقتي الشخصية في ذلك اليوم، الاسم: حميد مسلم، العمر ١٩ عاماً، الحالة الاجتماعية: أعزب، التحصيل

الدراسي: طالب في المرحلة الأولى في كلية الطب جامعة الموصل، أدى الامتحانات النهائية وهو متوجه في هذا اليوم لاستلام النتيجة. (٤٠٠) كلم بين بغداد والموصل اعتادت سيارات التكسي قطعها بأربعة ساعات، فالسيطرات قليلة جداً، إذ تكفي الواحدة منها أن تعادل ٥٠ من سيطرات اليوم، ليس لحنكة ومهنية وإدارة مشرفين عليها فقط، بل لأن الخوف من معارضة السلطان وقوانينه مزروع في قلوب الناس، فلا يصعب على الشرطي أن يستدل على المريب، لأن المريب يكاد يقول خذوني. فلا يجرؤ أحد على شرطة السلطان إلا حاشيته وذويه، أو بالأحرى لا يجرؤ أحد إلا أولاده وأخوته لأمه، فأولئك بإمكانهم إهانة أي سيطرة ودبغ جلود منتسبيها إذا استوقفتهم حسب الروتين، أو تعذر عليها معرفتهم لسبب من الأسباب. لم تكن سيارة التاكسي التي استقلها مع ثلاثة ركاب آخرين مسرعة إلى هذا الحد الذي ظننت أنها قطعت المسافة بساعة واحدة، ولكن سرعة الخواطر وتتاليها هي من تقصر المسافات وتختصر الزمن، تلهيك عن رؤية العداد، وعلامات الطريق، ورؤية ما حوله من أبنية أو مزارع. صور المغيبين من أصدقائي تتراءى أمامي وأنا أتناول أكلة الفطور المفضلة عند بعض المصلاويين (لحم بعجين)، ابتساماتنا، طرائفنا، صلاتنا سوية في الجامع الكبير أو جامع الفيصلية، أو النبي يونس، جولاتنا اليتيمة في

شارع الدواسة، أو شوارع الجامعة (المجموعة) هكذا كانت تسمى. في الساعة الثامنة صباح يوم ١٩٨٠/٧/٨ توجهت إلى قسم التسجيل في الكلية، كانت المسجلة ترتدي زياً أسوداً، يبدو أنها قد فقدت قريباً للتو، لم تربطني بها معرفة سابقة لاستفسر منها أو أعزيها، ولم تكن تحمل من الود ما يجعلني استفسر منها دون سابق معرفة، وللأمانة فأنا في ذلك الوقت لم امتلك تلك المهارة فأستطيع أن أدخل إلى حياة الناس بهذه السرعة. بادرتها:

- صباح الخير ست. ردت على التحية بهدوء وصوت منخفض.

- أريد نتيجتي.

- ما اسمك ومرحلتك؟

- حميد مسلم، الأولى. بعد تأمل في وجهي وصمت لبرهة، أجابت: انتظرني خارج الغرفة نصف ساعة ريثما أخرج السجلات وأبحث عن النتيجة. خرجت أتجول في حديقة الكلية، أتأمل مدخل صالة التشريح، وكرامات البشر، وكيف غضب أحد أساتذة التشريح الهنود بوجه أحد الطلبة ونهره بشدة لأنه لم يحترم كرامة الجثة التي كان يتدرب عليها في مادة التشريح، حينها قال بعض الطلبة وبعد أن انتهت المحاضرة أن سبب غضب الأستاذ لعلمه أن مصدر هذه الجثث هو الهند، إذ تبيعها الحكومة الهندية إلى الجهات

العراقية المختصة، إما لأنهم مجهولو الهوية فتجمعهم دوائر البلدية ولا يراجع عليهم أحد، أو يتم ذلك بموافقة ذويهم، تبرعاً أو مقابل ثمن. إنهم أبناء وطنه، أخوته في الوطن، هكذا يحب الهنود أبناء جلدتهم وهم على صالات التشريح، هكذا أحدث نفسي. نظرت إلى ساعتي، انتهى الوقت المحدد لمراجعة موظفة التسجيل، وبكل هدوء قالت تفضل هذه النتيجة، ناجح وبدرجة جيد. خرجت منها والبهجة تغمرني، فالسنة الأولى في الطب وفق المنهج الذي تنتهجه جامعتنا أيسر من المرحلة الثانية بكثير، ولكن المرحلة الأولى فيها الكثير من المعاناة، البعد عن الأهل كأول تجربة، حياة الأقسام الداخلية لأول مرة، نمط التعليم، لغة التعليم، اختلاف سلوك الطلبة، أسباب عامة تساهم في انخفاض الاستيعاب ومعدلات السعي. لكن الأسباب الخاصة بالنسبة لي أكثر تعقيداً حتى أن أحد الأصدقاء الذين تعرفت عليهم وهو في المرحلة الرابعة عد تلك السنة بأنها سنة رسوب لجميع الطلبة المتدينين لا محال بسبب القلق والخوف الذي ينتابهم، وبالفعل فقد اعتقل ذلك الطالب الوديع، ذو الابتسامة العذبة إنه همام عبد الصاحب من كربلاء، واعتقل محمود خليفة وهو في المرحلة الخامسة، ومحمد الياهو من كلية العلوم المرحلة الرابعة.

خرجت من التسجيل والتفتُّ على يساري أتأمل تلك الصناديق الحديدية الرصاصية اللون (اللوكرات) وقد ضم أحدها بعض ملازمي الدراسية وصدريتي البيضاء التي يفرض علينا ارتدائها في المختبر وصالات التشريح، رمقتها هل أذهب لأتأكد من سلامة موجوداتي فيها؟ كلا لا داعي فالعودة مبكراً إلى بغداد ومنها إلى كربلاء يتطلب العجلة، أنها صناديق محكمة، ومقفلة ومعي المفاتيح وهي في مكان آمن.

الاعتقال

أدرت رأسي صوب ممر الخروج، حتى إذا وطأت قدماي عتبة الرصيف المجاور لباب الخروج أمسك بي رجلان ضخما الجثة، وجوههم جامدة ليس عليها ملامح من أحاسيس أو مشاعر، فلا كآبة تعلو وجوههم ولا فرح يُستدرُّ منهم، لا ضحك ولا وجوم، كأن وجوههم أقنعة حديدية، أقنعة ولكنها من دم ولحم وشحم، أمسكاني من عضدي اليمين وعضدي الشمال، أنت حميد مسلم، قال أحدهم، قلت لا، مد الآخر يده إلى جيب قميصي الذي لا أرتدي غيره، منسدلاً على بنطلوني، فأخرج هويتي، سقط ما في يدي عن اسمي، فالحجة دامغة والجدال عقيم، ودارت الأرض دورتها في مخي ورأسي ودمي وقلبي وكل شراييني، فما

سمعته عن رجال (الأمن) والتعذيب وأنا ابن التاسعة عشر لا يهدئ من روعي، ولا يبعث فيّ الطمأنينة، تماثلت كل الصور التي سمعتها عن خسة ونذالة قوى (الأمن) أمامي، ولم يكن لي إلا الصمت أرى أنه الجواب الحكيم، كانت سيارتهم قريبة من المكان، فالكليات في ذلك الزمان وكل الأبنية الحكومية ليس كما هي اليوم، تمر السيارات العادية من جوارها، إذ لم تكن هناك مفخخات ومفخخين، وعبوات ومندسين عنيفين بهذه الخسة، لا يفرقون بين مدني وعسكري ولا بين صغير ولا كبير ولا رجل وامرأة، حتى العتبات المقدسة في كربلاء والنجف والكاظمية كانت سيارات الأجرة وسيارات الخصوصي تمر بمحاذاتها؛ وما هي الا خطوات وتكون قد دخلت باب القبلة أو باب الرجاء، لست أدري أضعفٌ في الحكومة، أم لأننا كنا الرعية وكانوا الولاة، واليوم هم (أعني البعثيين) الرعية، ونحن الولاة، أم أنها لعبة المخابرات الدولية وكيف تتحرك حين تتفق على إسقاط نظام سياسي ما؟

أدنوني من تلك السيارة الخصوصي البيضاء بلوحتها المدنية، فسيارات مديرية الأمن والمخابرات والأمن الخاص والاستخبارات معظمها بأرقام مدنية للتمويه ولصيد الفرائس غيلةً وغدراً، ودخلت فيها مكرهاً، لم أقاوم إلا بمقدار ما

يدور في رأسي من أفكار، فأنا أشبه بالتائه الذي ليس له دلالة على طريق، فأُعَت إليها عتاً خفيفاً لا يكاد يبين للناظرين.

تغيّرت المعاملة كثيراً بعد دخولي السيارة في الحوض الخلفي، سبحان الله كم هي قدرة البشر على تغيير سلوكه في أقل من ثلاث دقائق، إذ يتحول من مَلَك إلى شيطان، من مؤدب خلوق إلى عتل زنيم، تسمع منه أنبى الألفاظ وأقذعها، وأفحش العبارات وأقذرها، وأمرت فوراً بطأطأة الرأس، بعد أن وضع أحدهم يده اليسرى والآخر يده اليمنى على قفاي بعنف، وانطلقت العجلة، وعجلة الذكريات في رأسي أسرع من عجلتهم، لا أدري أي طريق سلكوا ولا أي جسر عبروا، ولا يهمني ذلك، فأنا أفكر بما ينتظرني من أساليب التحقيق، ونزع الاعترافات، وكيفية تحمل الألم، ولا أخفي بشريتي، فأنا من عائلة شرقية عجنت وشائجها بلبن حنانها، دموع الأب والأم والأخوة والأخوات يملأ المآقي ويسيل من الحجيرات، ينفجر بأدنى عبارة، وأبسط إحساس، فما بالك بفقد ولدهم وأخوهم الذي طالما انتظروه أن يكون طبيباً يُباهون به الأقارب وأهل الحي والعشيرة.

عشر دقائق فقط من باب كلية الطب جامعة الموصل في الصوب الأيمن، حتى دخول بوابة مديرية أمن الموصل في الصوب الأيسر، هناك شُدت الأعين وقُيّدت الأيدي إلى الخلف، وتراكض المنتسبون، وعلت أصواتهم فهم في

بنايتهم أكثر حرصاً على أن يبدوا كما هم، جناة، قساة، طغاة على الأدنى رتبة وأذلاء خانعين مرتجفين أمام من هو أعلى منهم رتبة فما بين من ينادي سيدي وآخر يصرخ (يويل) يعني يا ولد بلهجة المناطق الغربية من العراق.

لست صيداً ثميناً، ولكنهم هكذا يتظاهرون، حين يُمسكون بكل شخص، سواءً كان معارضاً بالحقيقة والواقع أو مجرد متهم، فالإمساك به إنجاز، ولم لا فربما لما لديهم من معلومات واسعة عن حزب الدعوة الإسلامية وطريقة إعداد أفراده، وتجربتهم مع قياداته منذ اعتقالات ١٩٧٤ وإعدام القادة الخمسة للحزب (قبضة الهدى)، وربما أمر طبيعي عند البشر عامة هو أن تخشى ما تجهله وتنظيم الدعوة سري إذ لا مجال لأي تنظيم علني في عهدهم، وربما لجبنهم وتعلقهم بالحياة الدنيا وزبرجها وزخارفها فهم يخشون من أي عدو، لا أدري.

أجلسوني في زاوية من زوايا تلك البناية التي بدت لي فيما بعد أنها فخمة وكبيرة منتظراً، والأفكار تتسارع في رأسي، بعد ساعة تقريباً نودي على اسمي، مثلت أمام المحقق، من مسؤولك في التنظيم؟

- ليس لدي تنظيم.
- تكلم وإلا......
- أنا برئ مما تقوله سيدي.

- خذوه إلى (الگنارة) ليعلم هناك من هو ربه.

اسرعوا بي إلى حيث أمرهم المحقق؛ علقت من الخلف إلى السقف، أزاحوا عني الكرسي وتدليت في الهواء، ألم لا أستطيع وصفه بدقة، صحيح أن عظامي قوية وصلدة، وجسمي معافىً صحيحاً، لكن طولي ١٨٥ سنتمتراً فلا يقل وزني حينها عن ٨٥ كيلو غراماً، مما يعني ان عضلات الكتف تكاد تحترق من شدة الضغط الذي يقع عليها أو هكذا أحس بها، لم أكن أتوقع أن يستجيبوا بهذه السرعة لصراخي فلم أبقى أكثر من دقائق معدودة، عشرة أو اكثر قليلاً لكن حجم الألم كان هائلاً، اسرعوا نحوي ووضعوا كرسي النجاة تحت قدمي وأنزلوني، افتعلت الضعف والخوار في بدني وسقطت على الأرض، لكن الأمر كان خلاف ما أظن، فهذا التحقيق ليس أكثر من إسقاط واجب، ولا يوجد علي أي شيء في مديرية (أمن) الموصل (عذراً فلا يطاوعني قلمي أن استمر بتسميتها أمن الموصل)، وإنما كنت مطلوباً من قبل مديرية (أمن) كربلاء، وعليهم أن يسفروني إلى هناك بأسرع وقت ممكن، وما هذا التحقيق إلا إجراء (روتيني) يُتخذ بحق كل من يدخل إلى المديرية، سياق عمل، فوجبة التعذيب هذه تقدم إلى الزائر كما تقدم وجبة الطعام، أجروا بعدها إجراءً روتينياً أخر يسمونه صحيفة الأعمال يسألونك فيه عن اسمك وعملك ومواليدك وأسماء إخوانك وزوجاتهم وعملهم

وعمـل زوجـاتهم وأخواتـك وأزواجهـن وعملهـن وعمـل أزواجهـن، وخالاتـك وأزواجهـن وعملهـن وعمـل أزواجهـن وكـذلك العمـات وأزواجهـن وأبنـاء الأخـوة وأبنـاء الأخـوات وأبنـاء الأخـوال وأبنـاء الخـالات وعملهـم جميعـاً، ليتـه كـان قساماً شرعياً فالأبناء والبنات يحجبن ما دونهن أنها صحيفة أعمال لغاية الدرجة الرابعة من الأقارب ليس لتوزيع الميراث بل لتوزيع الملاحقة والمساءلة والمراقبة.

أكملوا هذه الإجراءات ودفعوا بي إلى قاعة أقدر أبعادها بـ(٥ *٨) متر وفيها حوالي عشرون معتقلاً بتهمٍ شتى.

الكلام في الموقف فيه مخاطرة كبيرة، واحتمال ان يكون أحـد الموقـوفين مـن عيـون السـلطة أمـر وارد، لكـن أن يبقـى السجين دون كلام فتلك مشقة وعلامة استفهام كبيرة، وبين هذا وذاك علي أن أتدبر أمري، التحقيق لـم يكتمـل والتفكير فـي المجهـول يسـبب صـداعاً، وعلـي أن اكتسـب مهـارة اللامبـالاة، والإيمـان بالقضـاء والقـدر وأبـدو كمـا لـو كنـت بصـحبة زمـلاء مختلفـي الأشـكال والتوجهـات فـي القسـم الداخلي، أنها رحلة من رحلات هذا العمر الـذي قدره الله ان تكـون بـاكورة شـبابنا فيـه مـع بـاكورة حكـم الطاغيـة صـدام، ولـيكن مـا يكـن فـالله مـدبر الأمـور بيـده الخيـر وهـو علـى كـل شيء قدير. دنـوت مـن أحـد الموقـوفين ويبـدو عليـه انه قضـى مـدةً أطـول، فملابسه نظيفـة وذقنـه مرتـب، وعبـر حـديث عـابر

قال ان تهمته الانتماء إلى حزب التوحيد، أدركت فيما بعد أنه حزب من أحزاب إخواننا السنة.

وفاء المجانين

على مقربةٍ منه كان هناك كهلاً لا يتجاوز عمره الخمسين عاماً، حنطي البشرة، أدرد، تبدو على وجهه خفة الدم، إذ يبتسم بسبب أو بدون سبب، دفعني الفضول أن أعرف قضيته، فلم أستطع، لكن أحد الموقوفين أخبرني وهو على مسمع، هل تعلم أن هذا الرجل مقطوع الباه!!! قلت له كيف وما القصة، فقال: لقد أحب امرأةً وهو في شبابه حباً جماً، ولكنها تزوجت غيره، فأقدم على عضوه الذكري فقطعه، فالتفتُ إليه أحقاً ما يقول؟ فقال نعم وهو يضحك. لم تكن الأمور في هذا الموقف سيئة كما كنت أتصور، فالمكان نظيف ووجبات الأكل منتظمة، ويبدو أنني لم أطلع بعد على خبايا وخفايا الدائرة النحسة، وهذا ما كان بعد أشهر قلائل كما سيأتي.

لم أجد من معارفي في الكلية والجامعة أي أحد، ومعظم القضايا هنا لأفراد تجاوزوا الحدود مع سوريا وعليهم تهم التجسس لصالح سوريا أو مجرد التجاوز، فالنظامان في العراق وفي سوريا لم يلتقيا قط رغم ان حزب البعث العربي الاشتراكي يقود كلا النظامين ولكن البعث في سوريا يكن

العداء للبعث الذي في العراق والعكس صحيح واستمر الحال منذ عام ١٩٦٣ بعد الانقلاب الذي أطاح بعبد الكريم قاسم وحتى سقوط البعث في العراق عام ٢٠٠٣، ولا ندري هل ذلك تنافس على السلطة، أم أنها إرادة المشَغِّل، أم اختلاف البيئة، على أية حال معظم من في الموقف سألني ما تهمتك، فكان جوابي لا أعلم حتى الأن لماذا جاءوا بي إلى هنا. الغالبية هنا تميل إلى هذا الجواب، فحتى من يعلم يجيب لا أعلم.

التسفير الأول

في فجر يوم ١٠/٧/١٩٨٠ جاء حرس القاعة يتلاعب بكومة المفاتيح التي بيده متعمداً إقلاق الموقوفين، ومتلذذا بإيقاظهم من النوم، فالسجانون عادةً ما يصبون جام غضبهم على السجناء وليس على رؤسائهم الذين يوقظونهم فجراً لإنجاز المهمات التي يأمرونهم بها، فهم مقتنعون أنهم لولانا لما كانوا يقظين في هذا الوقت من الفجر، ويتناسون أنهم لولانا لما قبضوا رواتبهم، وربما لم يُعيَّنوا، وهكذا هو دأب معظم موظفي الدولة، صرخ قبل أن يفتح الباب حميد مسلم فرهود، صحت نعم، قال انهض، عُصبت عيناي وقُيّدت بجامعة الستيل البيضاء إلى الخلف، ثم قالوا امشي، وفُتح سيل الخواطر في رأسي، وحين عجزت عن المعرفة اليقينية،

قلت إلى أي مكان عدا التحقيق، وان كان لا بد من ذلك، فالتحقيق الذي كنت اسمع عنه لا محالة قادم، تتصادم الخواطر مع بعضها وتتداخل التحليلات، نفياً وإثباتاً، وهكذا هم البشر حين يكون الأمر متعلقاً بالمجهول، (إذا هبت أمراً فقع فيه، فإن شدة توقيه أعظم مما تخاف منه)؛ هكذا يقول علي عليه السلام، ولكن لو تأجل قليلاً لعلمت من معتقلٍ ما ماذا يريدون ولماذا جيء بي، ان تسأل أحد أفراد (الأمن) ومهما كان السؤال منطقياً ومؤدباً فإنه يعرضك لإهانة لا داعي لها، وأنت بقبضة الجلاد فكّر مع نفسك واستنتج وحلّل ولا تسأل.

ماذا عليكِ أيتها النفس قرّي واستقري وسيأتيك القوس بلا ثمن، أو لا تعلمين أنك بأيدي الجزارين، عليكِ ان تتوقعي الأسوأ، استذكرت بيت الشاعر: وقَوْلي كلما جشِأَت وجاشت ... مكانَكِ تُحمدي أو تستريحي.

إنها الغرائز المودوعة في النفس لا يقدر على كبتها وهدمها الا القليل من المَهَرةِ الشجعان. أسرعتُ الخطى حيث أُقاد، هتف أحدهم: هل أحضرت السيارة؟ ها قد اكتشفت أنني مُسَفّر ولكن إلى أين؟ لا أعلم، سأعلم كما علمت الآن، لا عليك فالتسفير فجراً في تموز أهون بكثير على مثلي مما لو كان ظهراً أو ضحىً، قلت في نفسي.

الجلاد الخلوق؟!

الحراس الذين يرافقونني في التسفير ليسوا أجراء من دائرة ثانية، ولا هم منتسبون جدد، صحيح أني لم امكث مدة طويلة في هذه الدائرة التي سأسفر منها -وسأعود لها لاحقاً- لأعرف الأسماء أو صور الأشخاص أو أصواتهم وأميز بينهم، ولكني أدرك أنها دائرة مغلقة ولا يمكن أن تأتي بسجانين من خارجها، إذن لماذا هذا الاختلاف في التعامل معي ساعة أو ساعات التسفير؟ ظل هذا التساؤل بشغل بالي بعد أن تكرر معي عدة مرات.

- حميد؟
- نعم
- لا تقلق فقضيتك بسيطة وحين تصل سوف لن تبقى أكثر من يوم.
- هل تعلم إلى أي مكان نتجه بك؟
- لا، فعيوني معصبة كما ترون، إلى أين؟
- ليس مهماً، ولكن تيقن أنك سيُطلق سراحُك حالما نصل.
- جوعان؟
- لا.
- عطشان؟
- لا.

ثم بدأوا دردشتهم مع بعضهم، ولكن بتحفظ واضح، لا يذكرون الأسماء، ولا يبالغون في التفاصيل، أنها أنصاف جمل، وأنصاف إجابات، إي، لا، صحيح، إنهم مضطرون فالطريق طويل ولا بد من حديث، وإلا فهم ممنوعون من إشاعة الأسرار، والتحدث عن جهازهم وأسماء مسؤوليهم. النفس البشرية تواقة لأن تكون على سجيتها، تسرح وتمرح وتمزح، لكن قوة السلطة القاهرة تجبر الكثير على السلوك البوليسي، الحذر، المراقبة، المحاسبة، فزلة لسان تؤدي بك إلى الإعدام. فالإعدام في الثمانينات من القرن العشرين في العراق لا يحتاج إلى جرائم وسجلات وشهود ومرافعات، يكفي أن يقول أحد أنك ضد الحزب والثورة.

مرت أربع ساعات بدأت السيارة تدخل منعرجات ومنحنيات، حتى رست في مكان لا أستطيع وصفه ولا تحديده، ولكني أدركت أني في مكان يعج بالذئاب وقد أحاطوا بفريسة لا حول لها ولا قوة تسمع -أعني الفريسة- ولا ترى، وتمشي ولا تهش، وتعقل، ولكن أنى لها بالتدبير وقد جردوها من كل وسائل الدفاع، وبدأت سلسلة الكلمات النابية والفحش المقزز للطباع السليمة، ناهيك عن نهش المخالب والأنياب. لم يكن هذا سوى استقبال من باب السيارة التي أقلتني من مديرية (امن) الموصل إلى داخل هذه البناية.

أين أنا؟

النباتات تعرف مكانها، هل جرب أحدنا أن يقلع نبتةً من مكانها، أنها لا تعود لطبيعتها الا بعد أن تتعود على الأرض الجديدة، أتدرون لماذا يصعب نقل الأشجار الكبيرة من محلها إلى محل آخر؟ لأنها تعودت المكان أكثر من مثيلتها الصغيرة، وغالباً ما تموت بعد نقلها، الحيوانات كذلك، فالطائر يعرف عشه ولو خربته سيبقى ينظر إليه وحاله كمن يشكو ويعاتب، النحلة تطير لخمس كيلومترات وتعود، الحمام الزاجل يعود عبر مئات الكيلومترات، أما الإنسان فإن المكان بالنسبة له سؤاله الأول، أين أنا، يتحسس، يتلمس، فلا شمساً أرى ولا نجوماً، ليس لدي إلا أن استرق السمع وأحلل ما أسمع، لأعرف أين أنا، لا يبالغ الجلادون كثيراً في إخفاء هوية المكان على ضحاياهم، ما داموا يعلمون أنهم يكتشفون ذلك، ولكن الإنسان عجول لمعرفة الإجابة عن المكان الذي هو فيه.

- هل نأخذه إلى الموقف سيدي؟
- لا، دعه هنا، ريثما نكمل كتابه، إنه مطلوب في كربلاء، ومطلوب حضوره بسرعة هناك.
- صار سيدي.

ها قد بانت لي حقيقة أين أنا وإلى أين ذاهب، أنا في مديرية (الأمن) العامة، وسأسفر بعد قليل إلى مديرية (أمن)

كربلاء، ولكن بجلاوزة جدد، ليتهم أباحوا لي عن التهمة الموجهة لي هناك قبل أن أصل.

في الطريق إلى كربلاء

لم تمض إلا سويعات، حتى صدرت الأوامر بتسفيري، وانهالت الكلمات البذيئة على مسامعي، يا إلهي متى تعتاد آذاني على سماع هذه الكلمات، أنها تؤذي روحي وقلبي، فطيلة حياتي وأنا ابن تسعة عشر عاماً -ولله الحمد- لم أتلفظ بفاحشة وليس لدي أحد من عائلتي من يتلفظ بذلك، هيّا هيّا أسرع أسرع يا... هيّا يا... الغريب في الأمر أن الجلاوزة ينسون أو يتناسون أني معصوب العينين، فيريدون مني أن أتوجه صوب الوجهة التي يؤشرون عليها وأنا لا أبصر أين يؤشرون، يريدوني أن أسير بذات السرعة التي يسيرون بها وهم مفتوحو الأعين وأنا لا أرى شيئاً، ما أقبح ابن آدم حين لا يرى غيره كما يرى نفسه، فيزداد حنقهم وغضبهم وسبابهم وشتائمهم، فيعتوني عتاً إلى حيث يريدون، ورغم أن المسافة بين محل جلوسي والسيارة المخصصة لنقلي إلى كربلاء لا تزيد على عشرين متراً، إلا أنني لم أتعود السير معصوب العينين ومكبل اليدين يقودني جلادان، كم هي دقيقة حسابات دماغ الإنسان وإيعازاته إلى أجهزته الحركية، وكم هي مؤلمة أخطاء التقديرات على العمود الفقري والدماغ، فحين يقدر

الـدماغ اسـتواء الأرض عنـد نقـل قـدمي اليسـرى، والأرض منخفضة ولو بضع سنتمرات فإن وقعها على الأرض يهد كل مفاصـلي، وإن كانـت مرتفعـة بسـنتمرات كـدت أهـوى علـى وجهي لولا أنهم عن يميني وعن شمالي، فما بالك أن تفاجأ بنزول رصيف أو صعود رصيف.

دخلـتُ السيارة التي يتعـذر عليَّ حتى اليـوم معرفـة لونهـا وموديلهـا ونوعهـا، تغيـر سـلوك الحـراس نوعـاً مـا؛ هـم الآن أكثر هـدوءً وأحسـنُ تعـاملاً، لا اسـتطيع الجزم بالسبب الـذي يدفعهم لأن يكونوا كذلك، ربما كانوا في مقر (الأمن) العامة يحـذرون رؤسـاءهم ولكـي لا يُتَّهمـوا بـأنهم متواطئـون أو يميلـون بعـواطفهم ضـد أعـداء الحـزب والثـورة، وربمـا هـي حاجة النفس إلى أن تعود إلى بشريتها، فطرتهـا، بعـض مـن طيبتهـا ونقائهـا، فشراسـة الطبـع، والـبغض والحقـد، والعنـف يرهق الإنسـان ويضـغط على أعصـابه، خاصـةً إذا كـان حـديث العهد بهذا النمط من السلوك، فبادر أحدهم بالسؤال:

- ماذا تعمل؟
- طالب في جامعة الموصل.
- في أي كلية وفي أي مرحلة؟
- كلية الطب نجحت إلى المرحلة الثانية.

وهنا اشتركوا مع بعضهم في الحديث وبدا على حديثهم الأسى والعطف والتأسف، فتحدث حارس آخر:

- لماذا ضيعت مستقبلك؟ أو لم يكن خيراً لنفسك ان تبتعد عن السياسة؟ أنت شاب في مقتبل العمر؟ مالك والدخول في هذه المعمعة؟ ماذا تريد أن تكون؟ وزير؟ رئيس جمهورية؟ ألم يكن خيراً لك أن تصادق الجميلات في الكلية وتسرح وتمرح وغداً تصير طبيباً؟ ما بك لا تعرف مصلحتك؟ إذا لم تكن تخشى على نفسك أفلا تخشى على أمك وأبيك؟ هؤلاء الأن ممتلئون ألماً بسببك؟ كل ذلك وأنا معصوب العينين منصت لما يقولون، فسأل ثالثهم بنبرةٍ أكثر حدة:

- ها، ألا تتكلم، لماذا أنت ساكت، لابد إنك تعلم بأنك مذنب؟

- كلا لست مذنباً وأنا طالب ليس أكثر ولا أعلم ما هي تهمتي حتى الأن، أنا برئ، فأجاب الثلاثة بجواب واحد:

- إذا أنت برئ لماذا لم يأتوا بغيرك، عشرات الطلبة معك، هذه الناس في الأسواق، في الجامعات، في الدوائر، لماذا أنت بالخصوص جئنا بك دون غيرك؟

آه كم تردد هذا السؤال النحس على مسامعي طيلة أيام التحقيق، وحين التقيت بالعشرات من الموقوفين والسجناء كانوا يتبرمون من هذا السؤال الذي لا يجدون له جواباً، لماذا أنت دون غيرك؟ عرفت فيما بعد أن هذا السؤال لغو ولا معنى له، فأنا مَنْ يجب أن يسأل لماذا جئتم بي إلى هنا؟

فـأنتم مـن تحـددون المسـموح وغيـر المسـموح وأنـتم مـن تراقبون المواطنين لتقولوا هذا مخالف وهذا موافق لما نريد، فالمقاسـات مقاسـاتكم والمعـايير معـاييركم، وأنـا الطالـب أو المواطن لا أعلم بذلك ولم يستشرني أحد ولـم يسألني أحد عن تلك المقاسات والمعايير؟ ثم حتى لو كنت خالفت تلك المعايير وسرت بما لـم يعجبكم، فهناك العشرات غيري من ليس لهم ناقة ولا جمل بالمعارضة أو التصدي للنظام ما من قريب ولا بعيد وتسألونهم نفس السؤال لماذا جئنا بك دون غيرك؟ بالطبع حتى لو كنت أملك مثل تلك الإجابة في حينها لم استطع أن أخوض هكذا نقاش مع ثلاثة حراس أحسنهم لديه شـهادة المتوسطة ولا يـرى أبعـد مـن أرنبـة أنفـه، ثـم مـا الداعي إلى ذلك كله والأمر ليس بأيديهم، وما سألوه هو ما تلقنـوه مـن رؤسـائهم، ثـم نـادراً مـا اسـتطاع مـتهم أن يغيّـر وجهات نظر جلاده أو سجانه وربما منهم من يصدق عليه قول الشاعر:

هـو طيّـب الأخـلاق مثلـك يـا أبـي
لــم يبــدُ فــي ظمــأٍ إلــى العــدوانِ
لكنّــــه إن نــــام عنــــي ســــاعةً
ذاق العيــــالُ مــــرارة الحرمــــانِ

ومنهم من ران على قلبه ما كسب، فلا يلائم أن تستفزه بالجدل والنقاش، على أية حال فحديثهم كان مهماً لقطع

المسافة بين بغداد وكربلاء وهي ١٠٠ كيلو متر تقريباً، فما بين الموصل وبغداد كان كافياً لصراع الأفكار في رأسي، والحديث مع الغير أثناء قطع الطريق في سفر وفي غير سفر يقلل من المسافات ويُهوِّن من المتاعب.

(أمن) كربلاء والأيام الصعبة

بدأت معالم تغير الأخلاق ولبس الوجوه النحاسية التي نُزعت منها المشاعر والعواطف، شعرت بأننا على وشك الوصول لأمن كربلاء حيث موقعها الذي زرته قبل عام تقريباً يوم اعتقالي في ركضة طويريج، وهي جزء من مبنى المحافظة ومديرية الشرطة، فالمؤسسات القمعية تنمو مع القمع، صحيح أن البعثيين منذ عام ١٩٦٣ معروفون وموسومون بالقمع والإرهاب ولكن يبقى للرئيس الجديد امتياز خاص فقد فاق من سبقه بأضعاف. أنا بالطبع معصوب العينين لا أعلم مداخل المدن ولا مقترباتها، ولا الدوائر ولا مواقعها، وإنما أتوقع ذلك بما أسمع، ربما فاتهم أن يضعوا وقراً في آذان ضحاياهم أثناء التسفير من محافظة إلى أخرى.

لازال الظلام لم يحل بعد، وصلت إلى مدخل مديرية إرهاب كربلاء، إنجاز كبير، بمقاسات دول المنطقة في ثمانينيات القرن العشرين، وحتى بمقاسات اليوم في العراق ٢٠٢٤م، حيث يصل مطلوب عبر التسفير من مديرية (أمن)

الموصل إلى مديرية (الأمن) العامة ثم إلى مديرية (أمن) كربلاء في نفس اليوم، أنها المركزية والديكتاتورية الشاملة التي من حسناتها في بعض الأحيان أنها تعجّل في الإجراءات وتتجاوز الكثير من الروتين وتختصر الزمن في تنفيذ القرارات، وتوفر الكثير من الجهد والمال، هذا طبعاً مفيد جداً في البناء والخدمات ولكنه مخِلٌ ومضرٌّ كثيراً في تصفية المعارضة السياسية، لأنه يضيّع الكثير من الحقوق بل ينتهكها.

أمرت من جديد بخفض الرأس وهبّ عليّ عدد من الحراس بالضرب على قفاي، وعلى جانبيّ مع وابل من الألفاظ البذيئة، واقتادوني إلى ممر ضيق يجلس فيه عدد من المتهمين الذين تتراءى لي أشباحهم وإلى جوار البعض منهم قنينة غاز وآخرين بدون ذلك، وعلى ما أنا عليه حيث العصابة على العينين ومكبل إلى الوراء إلا أنني استشعرت بهمهمتهم، وانشراحهم، فالطائر الجديد في القفص هنا يعني حدث جديد، أخبار جديدة، وفي العقل الباطن هو مواساة، أن أصحاب هذا الطريق ليسوا قليلين، كما أن المصيبة إذا عمّت هانت، هذا الشعور متبادل بيني وبينهم، الفارق هو أنّ من سبقك بيوم قد علم ماذا يريدون منه، وما تهمته بالتحديد، وبأي أسلوب حققوا معه، أما أنا فهذه أسئلة أنتظر جوابها.

في كل محطات التحقيق التي زرتها -وإن كانت قليلة قياساً إلى غيري- كان الليل هو الوقت المفضل للمحققين، بخلاف ما سارت عليه الدوائر الرسمية الأخرى فالدوام يبدأ الساعة الثامنة صباحاً وينتهي الساعة الثانية من بعد الظهر. لا أعلم السبب الحقيقي وراء ذلك لكني أظن أن كثرة الاعتقالات وترتيب الإفادات ومخاطبة المديريات الأخرى والمديرية العامة وتسيير الدعاوى كل ذلك يشغل المحققين في النهار أما الليل فهم متفرغون لممارسة التعذيب وانتزاع الاعترافات، أضف إلى ذلك أن جزءً من الحرب النفسية للمعتقل في تركه ينتظر طيلة النهار حتى الليل وهذا ما يُشعِره بالقلق ويؤثر على قواه النفسية، وهناك فائدة أخرى أن الدوائر (الأمنية)، قد لا تخلو من بعض الكَتَبة وعمال الخدمة، وأقسام الجريمة الاقتصادية، وربما بعض من الكادر متعاطف أو على الأقل لا يستسيغ أصوات المعذبين والطرق البشعة في التعذيب، فهؤلاء تخلو منهم الدائرة ليلاً لكي يخلو الجو للجلاد ينفرد بفريسته يتفنن في تعذيبها وإنهاكها كيف يشاء، لست أجزم بشيء من ذلك وربما كل ما رأيته هو مجرد مصادفة.

لم يمر كثير من الوقت حتى سمعت الحرس ينادي بصوت عال، جماعة حميد تعالوا هنا ياسين جاسم المعمار، وكان طالباً في الجامعة التكنولوجية، وجاراً لنا، عبد الزهرة

كاظم طالب أيضاً وجار لنا، علي الكريطي، محمد كاظم عمران، صبيح كاظم حساني، هؤلاء أصدقائي وجيراني وهم ما بين طالب في الإعدادية أو طالب في الكلية، نلتقي ونتناقش ونتبادل وجهات النظر حول أمور دينية كثيرة، مالذي حدث؟ دعني انتظر ماذا سيحصل.

حان الحين وأدلهمَّ الليل، وبدأت جولتهم الأولى من التعذيب، نصف ساعة من التعليق إلى السقف من الخلف، السؤال الأساسي مَنْ مسؤولك في تنظيم الدعوة؟، تكلم وإلا تموت، تظاهرت باللامبالاة في بداية الأمر، لكني لم أتمكن من الشرود بذهني، أو عدم الاكتراث، لا يستطيع دماغي رفض إشعارات الألم، فجسم طري مثل جسمي، لا يمكنه ذلك، تتزايد الإشعارات ويتغير مذاق الألم في دماغي، فأكتافي تستشعر حريقاً، لا أجد من وسيلة غير الصراخ، صراخي هذا لم يمنع الجلاد من أن يكرر قوله تكلم، فلدينا معلومات كاملة عنك، وتفاصيل تؤكد كل تحركاتك المشبوهة.

جاءت الأوامر عبر الإيماءات بإنزالي من السقف، وكأني ولدت من جديد وعادت لي الحياة، ولكنها حياة يحكم عليها عقلي في حينها بأنها عبثية، حياة لا معنى لها ولا عدل فيها ولا حكمة منها، ألا يرى الله الجلادين، أو ليس بقادر على أن يأخذهم أخذ عزيز مقتدر؟ ماذا ينتظر فيهم؟ أو ليس الله يدافع

عن الذين آمنوا والذين هم مهتدون؟ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين)، صبر ساعة ويفرج الله عني هذا الكرب. أعادوني إلى الممر المقيت، ليس ذلك عطفاً ولا رقةً ولا حتى وسيلةً من وسائل الضغط كما يظن القارئ الكريم، بل لديهم ما هو أهم. نعم بعد دقائق معدودة علا صراخ مؤمنة من المؤمنات أنها إيمان عبّد الجليل شقيقة سالم عبد الجليل، وعلي عبد الجليل الذي اعتقل قبل أيام وتم نقله إلى (الأمن) العامة، اعتقلت مع شخص يُدعى مهدي الخباز تربطه علاقة بشقيقها، لقد كانت إيمان تصرخ بوجه الجلادين، أو ليس عندكم شرف، أنا بنت، عيب عليكم، كُفوا، يبدو أنهم كانوا يعذبونها نفسياً بالألفاظ البذيئة، مع الضرب، وذلك أشد أنواع التعذيب للنساء العفيفات، يريدون منها الاعتراف حول تنظيمات أخوتها التي لا تعلم عنها شيئاً، سالم عبد الجليل وأخوه، مشكلة الأنظمة البوليسية، أنها تغلق عليك كل الأبواب للمعارضة، وتمنع كل الوسائل، فلا تظاهر، ولا حرية تعبير ولا حوار، ولا جريدة ولا مجلة، بل الحديد والنار والاتهام بالعمالة سبيل النظام الوحيد، حينها لم يروا مثل هؤلاء الفتية بدّاً من اللجوء إلى بعض الأعمال العنيفة التي وظفها النظام لصالحه كأعمال مسلحة، فمهدي الخباز مثلاً كان يحمل على دراجة هوائية

قنبلة محلية الصنع لا تقتل عند انفجارها بشراً ربما، والدليل أنها انفجرت وهو يحملها فأمسك به الأمن وجاء به إلى المعتقل، فغدى ذلك وكأنه عمل خطير، يستحق اعتقال النساء والرجال بسببه، والتنكيل بهم وتعذيبهم وتسفيرهم إلى خارج البلاد، ولو أحصيت كل هذه الأعمال من تموز عام١٩٧٩ تاريخ استلام صدام حسين للحكم إلى تموز عام ١٩٨٠ حيث تم اعتقالي فإنها لا تتعدى عمليتين أو ثلاثة فقط، وليتها لم تحدث، فالعمل المسلح إما أن يكون ناجزاً ومؤثراً في شكل الصراع مع الأنظمة الديكتاتورية أو لا يكون، طبعاً هذا حين تمتلك صبرَ نبي، وعقلَ مدبِّر، وتخطيط مفكَّر، وإلا فالجور أكبر من أن يُحتمل، والثأر أعظم من أن يُؤجَّل. مرت ساعات الليل ثقيلة يزيد من ثقلها وهمّها قضاء الحاجة (البول والغائط) تحت السياط فدقيقة واحدة فقط عليك أن تقضيها في الحمام وإلا فُتح عليك الباب وبأي حال كنت عليه، وما تسمعه من قول الفحش والبذاءة مع أي موقوف يطلب حاجة أو يشكو من ألم أو يستفسر عن شيء، فجميع الحراس هنا متحفزون لإهانة الموقوف وضربه وتعذيبه تطوعاً قربةً وطاعةً لرؤسائهم الذين يعدون ذلك من أعمال الطاعة والولاء به يُكافأون وعليه يُحمدون، بل هو من مهارات التدريب التي ينبغي على كل منتسب لهذا الجهاز أن يتمرن عليها، لكي يرتقي درجة ويتلقى مكافأة، ومن شذّ منهم

عن ذلك السلوك فهم النادر الذين يتمنون نقلهم من هذا السلك، أو هم ممن يأمل أن لا يدوم الحال على ما هي عليه.

الانهيار المفاجئ

إحساس بالانتصار، نشوة من الفرح تغطي على ما تبقى من آلام الكتفين، والجروح غير المنظورة في القلب من الكلمات البذيئة، فأنا حتى الأن لم أبح بما يضر أحداً، أو يُفيد الجلاد بشيء، النفسُ تتوق لأن تتشبه بالصامدين عبر التاريخ من أبطال حركات التحرر، والتنظيمات الجهادية-وإن لم أكن أحمل تلك الأسرار العظيمة، أو أشغل ذاك الموقع المتميز، فأنا لازلت غضاً طرياً لم أبلغ العشرين من عمري بعد، ويُعكر هذه النشوة عندي ما اسمعه من صراخ المعذبين وألمسه من قسوة الجلادين إذ لا تجعلني أثق أن هذا هو نهاية المطاف.

في الليلة الثانية، نادى الحرس بأعلى صوته حميد وجماعته، شعور ما اعتراني يجمع بين الفخر والشعور بالمسؤولية، فأنا رئيس المجموعة، إنه الشيطان، ولكن قبالة ذلك يهتف عقلي تهيأ فأنت مسؤول، مسؤول على قدر عمري، شعور خاص لمن لم يتجاوز العشرين من شبابه نعم هذا هو عمري حسب تقرير الطب العدلي -كما سيأتي- وماذا تراه أن يتحمل هذا الجسم الطري، من غير تجربةٍ

سابقة، اقتادوني إلى غرفة التحقيق، استدعوا أمامي أحد أصدقائي ممن أثق بهم من المعتقلين، لقد كان بوضعٍ منهار جداً فقال:

- تكلم يا حميد ألستَ مَن وزعت علينا منشورات فيها تهجم على الحزب والثورة، ألستَ من أخذتنا سفرة إلى سامراء؟

- وهل الدولة تحرم السفرات؟ قلت بصوت منخفض يحمل في نبرته العتاب والاستغراب والإيحاء له بالتوقف عن مثل هذا الكلام.

- لا، لا تّحرم السفرات ولكنك كنت تفتح لنا مسجل السيارة وفيها كاسيت الشيخ أحمد الوائلي وهو يتحدث بأحاديث طائفية، كنت تحدثنا عن الثورة الإسلامية في ايران، كنت تحدثنا عن الاعتقالات في صفوف حزب الدعوة الإسلامية، حميد أنت منظم، اعترف أحسن لك فكلنا سجلنا مثل هذه الإفادة.

- أنا لم ارتكب خطأً ولو كان عندي أي شيء لقلته لكم.

تعرضت لوابل من الصفعات على خدي، وفهمت حينها شيئاً عن قصص والدي وحكاياته، حول بعض مشاهداته لمشاجرات، يصف فيها مثلاً ان فلان تعرض لصفعةٍ على خده حتى قدحت عيناه شرراً، كنت أظن ذلك ملازمات

لفظية لا معنى لها، أو مبالغات لغرض التشويق وشد أسماع المتلقي، ها أنذا أرى شرراً يقدح في عيني من صفعات أحدهم على خدي يشبه شرر الكهرباء حين تماس السالب الكهربائي بالموجب أو الحار بالبارد كما يسميه العراقيون، سنة واحدة في كلية الطب لا تعطيني تفسيراً علمياً لهذه الظاهرة، نعم أعلم أن آلية عمل الأعصاب في جسم الإنسان تتشابه إلى حد كبير مع الأسلاك أو القابلوات الموصلة إلى بناية أو منزل، ولطالما كان أستاذ مادة البايولوجي يردد إن مجموع طول الأعصاب في جسم الإنسان قد يصل إلى ١٠٠٠ كيلومتر، وإن أطول الخلايا هي الخلايا العصبية، وإنها الأطول عمراً، ناهيك عن عددها فهي تعد بالمليارات في الدماغ وحده، ولكن هل الصفعة القوية على الخد تجعل هذه الأعصاب تلتقي مع بعضها، لا أعلم. اقتادوني إلى تلك الزنزانة اللعينة، حاولت أن أصطنع مهارةً تخفف عني ألم التعليق ويداي مكبلتان إلى الخلف بأن أسرح في التفكير خارج ما أنا فيه، أفادتني هذه الطريقة بعض الشيء ولكني عدت حيث أنا، فشدة الألم أكبر من أن يتحملها جسمي، بمرور الوقت لم تفلح طريقتي، بعد مرور ربع ساعة أضرمت ما يشبه النار تحرق أكتافي، لا شك أنهم يراقبون جسدي المتدلي في الهواء، وينتظرون مني كلمة الانهيار وهي أنزلوني سأبوح بكل شيء. عادةً ما يكون المحقق برتبة ضابط

ويساعده اثنان أو ثلاثة من الجلادين منتسبين لجهاز الأمن برتبة شرطي أو شرطي أول أو مفوض، ويندر أن تجد من المنتسبين أو الضباط من هو لا أبالي إلى حد الاستهتار، وترك ضحيته والذهاب، وان فعل ذلك فهو لغرض الحرب النفسية للضحية، وما ذلك لخصالهم الإنسانية أو الرفق بضحاياهم، بل لاستعجالهم بتحصيل الأسرار وكتابة الإفادات، وخشية أن يفلت بعض المنتمين، ولا تخلو طبائع البشر من الاستعجال في قضاء الحاجات، وتلك حاجاتهم ليقدموها إلى كبرائهم أو رؤسائهم، لينالوا الحظوة عندهم، فكما تمر الدقائق على الضحية وكأنها أيام من شدة الألم فإنها عليهم كذلك لشدة الانتظار.

لابد من حركة أخرى تعجل في الاعتراف، صرخ المحقق اسحبوا بنطلونه، اسحبوا معه لباسه الداخلي، هيّا اصعقوه بالكهرباء.

لم أعرف قبل هذه الساعة معنى الألم النفسي، ولا طعم الإذلال، لم أعرف كيف يختلط الصراخ من الألم مع الصراخ من الفضيحة، حين يكون شاب مثلي تعلم الصلاة في الرابع ابتدائي ولم يفارقها حتى هذه الساعة، لم ينطق بفاحشة ولا بقول بذيء، لم تدفعه أصعب أيام مراهقته إلى هفوات الغريزة، أو جماعات الانحلال، أو ملاهي الشباب وعلاقاتهم العاطفية، واذا به يجرد من ملابسه الداخلية وتُكشف عورته

أمـام الغربـاء مـن ذوي الضـمائر الميتـة، ألـم يضـج بكـل جوانحي، يُضاف إلى ألم جوارحي، نار تسعر في كتفي وأزيز الصعقات الكهربائية يهيج ناراً أخرى بأعضائي التناسلية.

صغار نحن على هذا النوع من التعذيب، فلا غرابة أن تكون حِيَلُنا في تفاديها تشبه حِيَل الصغار، فتظاهرت بأني فقدت الوعي، وأدليت برقبتي وتركت الصياح واستسلمت لمخيلتي في الذهاب بعيداً، فأسرعوا إلى فك وثاقي وجاءوا بالماء البارد وسكبوه على وجهي مع ركلات بأحذيتهم على ساقي، استأنست بنجاحي في التمثيل وأحسست بتفوقي عليهم، استصغار عدوك واستخفافك بعقله شعور جميل يعزز الثقة بالذات، وسرعان ما دخل ضابط أخر ومن أول نظرة أدرك اللعبة وصرخ بالموجودين:

- ولكم هذا دعوة معلمينه كيف يسرح وكيف يضحك عليكم، جيبوا (الفلقة).

الفلقة يعرفها العراقيون عبارة عن عصا غليظة مثبت فيها حبل من طرفيها إذ يوضع ساقا الضحية بين الحبل والعصا من قبل اثنين من الجلادين، وتدار العصا حتى يلتصق الساقان بالعصا فينام الضحية على قفاه ويرفع الجلادَيْن ساقا الضحية ويتولى جلاد ثالث الضرب على باطن قدم الضحية بكيبل كهربائي، أو أنبوب ماء بلاستيكي (صوندة) أو عصا غليظة أو سوط خاص، ولكل نموذج مما ذُكر ألم خاص أو

نكهة عذاب مختلفة عن الآخر يشعر بها أو يتذوقها الضحية، ولكل محقق جلاد ما يفضله من هذه الأدوات، وبقدر ما نصرخ من الألم تتصبب جباه الجلادين عرقاً من التعب الممزوج بالاضطراب والقلق وألم الضمير الخفي، حتى ميتو الضمير يتمنون أن يحصلوا على الاعترافات بسهولة، ثم يعذبوا ضحاياهم بهدوء، إن كانوا ساديين أو مجرمين إلى هذا الحد. أكثر ما يؤذي بعض صغار الجلادين هو كتمان قلقهم واضطرابهم قبل وبعد وأثناء تعذيبهم لضحاياهم، خشية أن يتهموا بالتعاطف معهم، ففوق كل ذي ولاء ذو ولاءٍ أكثر منه يراقبه ويعاقبه، وهكذا هو حال الأنظمة القمعية. لا يفوت المحققين أن هذه الطريقة من التعذيب تؤلم أكثر لو كان هناك تأني في ضرب باطن قدمي الضحية، ولكنهم لا يستطيعون ذلك لاستعجالهم، منهم من يستعيض عن التأني بأن يوقف الضرب بعد كل موجة ليجبر الضحية على المشي ثم يعاود الكرة مرةً أخرى، عرفت من بعض الموقوفين أن الدافع وراء ذلك ليس فقط لزيادة الألم بين موجة وموجة وإنما لمنع تورم القدمين إلى حد عدم قدرة الضحية على المشي إطلاقاً إذا استمر الضرب على القدمين.

بعد ثلاث جولات من الفلقة أعادوني إلى الممر منهك القوى مكبل اليدين، معصب العينين وقدماي لا تكادان تحملانني من شدة الألم.

تحسستُ أصحابي لازالوا موجودين في الممر، راودتني فكرة أن الخروج بأقل الخسائر وقول جزءٍ من الحقيقة ثمناً للإفراج عن كل من معي ربما تكون صفقة رابحة، أن أتحمل جولة ثالثة من التعذيب أمر غير مضمون تماماً، ثم قلت في نفسي كلا أنها أفكار شيطانية، عليك بالصبر والتحمل، يا الهي ساعدني، أعِنّي، ارحمني، الصراخ يملأ سمعي، الممر في حركة دائبة، إذ يتسابق الجلادون على الاعتقالات، إنهم في سباق مع الزمن لتصفية كل المنتمين للحركة الإسلامية في العراق من الشباب المتدين، فزلزال انتصار الثورة الإسلامية في إيران كان ارتداده الأول في العراق، إذ تم مجيء صدام حسين بدلاً من احمد حسن البكر الذي كان أكثر رويةً وهدوءً في تعامله مع ملف المعارضة في العراق.
ها قد نادوا على صاحب عبد الحسين الدهان الذي كانت تربطني به علاقة تنظيمية سابقة منع استمرارها السيد حميد مهدي سلمان المحنة الذي اعتقل في عام ١٩٧٩ وانقطعت أخباره عني، بعد ساعة تحسست اعتقال إسماعيل إبراهيم سعيد زميلي في كلية الطب ومن أهالي كربلاء/ حي الحسين، نحن هنا بقدر ما نتألم لاعتقال زميل أو صديق أو جار فإننا نعيش الوجل والترقب خشية أن ينهار أحدهم فيدلي بمعلومات صادقة وكاذبة تطيح بكل محاولاتنا للإفلات من هذه المحنة، فطريقة التعذيب وثقافة المحققين، بل

التوجيهات التي يتلقونها أن يزجوا بأكبر عدد ممكن في السجون أو يسوقوهم إلى الإعدام، وهي طريقة غبية في تصفية الخصوم، إذ يحرص العقلاء من الحكام على أن تكون شعرة معاوية بينهم وبين شعوبهم، بينما يتعمد الطغاة أن تكون وسيلتهم الوحيدة في الحكم هي صناعة الموت والخوف والرهبة من السلطة عبر الإعدامات والسجون، يتناسون أن ذلك سيبني فجوة بين الشعب والحكومة تؤدي عاجلاً أو آجلاً إلى سقوط النظام وتخلي الشعب عنه في ساعة المحنة.

يبالغ الطواغيت دوماً في خطر معارضيهم فيعدمون اكثر مما يجب ويعتقلون ويسجنون أكثر مما يجب، وهنا يكمن الفرق بين الطاغوت العاقل والطاغوت الجاهل الحاقد، فالأول كمعاوية يبقي شعرة الاتصال ولا يقطعها والثاني كيزيد أو الحجاج يقتل بسبب أو بغير سبب، وذلك طبعاً يعود لدوافع ذاتية من حيث النفس والتربية والبيئة وموضوعية تعود للقرناء والمستشارين وبنية النظام. يتفق كثير من المحللين في ذلك الوقت على أن صدام كان من النوع الثاني.

يُمنع منعاً باتاً إغلاق باب المرحاض بعد الدخول، لماذا؟

قلت أن في الممر حركة دؤوبة، وأن الجلادين من الحرس يتابعون بدقة ضحاياهم وهم مكبلون ومعصوبو الأعين، في الوقت المخصص لقضاء الحاجة، دخل أحدهم

إلى المرحاض، بعد اربع دقائق تقريباً قال الحراس لبعضهم أن هذا قد تأخر، صاحوا عليه، طرقوا الباب، فلا إجابة، ومن ثقب صغير في الباب نظر أحد الحراس، ليصرخ، انه طريح على بركة من الدم. فهب الحراس يخبرون رؤسائهم، الباب حديدي، ومقفل من الداخل عبر المزلاج، حتى وجدوا ما يفتحون به الباب، تكون المديرية كلها قد سمعت بالخبر، أفادني السجين زمان صاحب عبود الطائي من كربلاء المقدسة أن هذا الشخص اسمه قيس عبد الرزاق، وقد تم ألقاء القبض عليه بكمين عبر صاحب عبد الحسين، وقد تم الضغط عليه في التعذيب للإدلاء باعترافات معينة، حينها قرر الانتحار عبر قضيب حديدي مهمل وجده داخل المرحاض، فضرب به رأسه، ويضيف لقد كنت على مقربة من غرفة يبدو أنها غرفة المدير أثناء توقيفي، وقد أحضروا طبيباً، فسمعت أحدهم يسأل الطبيب عن الإصابة فأجاب أنها بالغة جداً وسيموت بسببها، ولم يلتق به أحد بعد ذلك الوقت. فجاء القرار بعد هذه الحادثة بمنعنا من إغلاق باب المرحاض بعد دخولنا.

ها قد حانت الجولة الثالثة من التعذيب وقد ذهبت لها وقلقي أكثر مما كان، فطاقة تحملي أعرفها وصرت أعرف ماذا يعني التعليق من الخلف، فكيف لي الخروج من هذا المأزق؟ القرار هو أن أقبل بأقل الخسائر وأبعد عني هاجس

انهياري أو انهيار آخرين تضج بهم المعتقلات. وبدلاً من الصعود إلى غرفة التعذيب، صرخ الجلاد بصاحبه:

- وين لغرفة المدير.

وماذا عساه أن يريد مني المدير؟ تساءلت في نفسي، ليست المسافة بين الممر وغرفته بما يسمح لمزيد من التفكير والتحليل، لكنها بعيدة من حيث مواصفات المكان، ففي الممر حيث نودع بعد نزولنا من التعذيب نفترش الأرض المصبوبة بالكونكريت، خلفنا الحائط يبرز منه خطان حديديان بارزان لأنابيب الماء، يُربط بهما الموقوفون أحياناً وأخرى بقناني الغاز على جوانب المعتقلين، غالباً ما تكون ملابسنا قد مضى عليها أسبوع أو أسبوعان وربما شهر وهي ذاتها دون غسل أو تنظيف، كذاك الحال مع شعورنا، وذقوننا، يتعود بنو البشر عادةً على روائحهم فأعصاب الشم تخبرك أول الأمر عن الرائحة ولكن مع استمرارها ينعدم الشعور بشمها وتلك من نعم الله عليهم يساعدهم على التكيف مع الحال الذي هم عليه، في غرفة المدير استنفرت أعصاب الشم طاقتها وأعصاب الحس إيعازاتها حيث تجابهك عن مدخل الباب نسمة باردة ونحن في عز تموز، وتشمّ رائحة طيبة يعكر طيبتها ما تسمعه أول دخولك الباب حيث تنطلق عبارات السب والشتم والكلام البذيء كوابل من رصاص معنوي يصيب قلبك ويحرق أعصابك، ويمنعك من التلذذ

بالروائح العطرة المنبعثة من المكان، ما هذا؟ تساءلت في نفسي، اعتدنا نحن الطلاب ان يكون كلام مدير المدرسة أكثر هدوءً من كلام المعلم أو المدرس وكذا يكون كلام عميد الجامعة، يختلف عن كلام الأستاذ الجامعي، فالمدير في كل دائرة عليه من الوقار والهدوء والهندام وطيب الكلام وربما الوسامة أيضاً ما يميزه عن مرؤوسيه، يبدو ان الأمر في مديريات (الأمن) يختلف تماماً، وكأن الرجل أحس بتأملاتي فصرخ بي:

- حقير كلب ...... عبالكم الخميني يفيدكم، ولكم عمامته تگرطكم واحد واحد. عبالكم ما ندري بتحركاتكم لو باجتماعاتكم ضد الحزب والثورة، اليوم راح تعرف شنسوي بيك. ولك احنة من البارحة واليوم كنا نرأف بحالك عبالنا هاي أول مرة جاينه، بس هسة عرفنه أنت مشارك بالشغب مال عشرة محرم ضد الدولة والحزب والثورة، أنت خائن مع الأسف جبناك وطلعناك، لا هالمرة ماراح تطلع لو تطلع نخلة براسك، إخذوه يله...

عرفت فيما بعد أن هذا المدير اسمه نوري فهد الحديثي، جاء خلفاً للمدير السابق حُذيفة الغضبان، والأخير من أهالي قضاء الهندية (طويريج)، وقيل ان الضابط الذي كان يقف إلى جانبه اسمه الملازم سرحان، فعصابة العين لا تفارق عيون الموقوفين ما داموا بالتحقيق، فما بالك عند مقابلة المدير. لم

أتجاوز باب غرفة المدير بعد، وانهالت عليَّ الصفعات واللكمات تأتيني من كل حدب وصوب وعتني العتاة إلى حيث أتوقع، وما ذلك إلا لإبداء حسن الأداء الوظيفي لرئيسهم لتبدأ بعدها الجولة الثالثة من التعذيب.

لازالت آثار الليلتين الماضيتين على جسدي ونفسي، ومن يلدغه الثعبان يخشى من الحبل، ذاكرة بني البشر أكثر خزناً للأحداث السيئة عبر السنين والأعوام، فما بالك وأنا على بعد يومين من آلام الضرب والتعليق. جلاوزتهم هذه المرة أكثر قسوة، فتطبيق أوامر المحقق واجب، ولكن تطبيق أوامر المدير أوجب، في نظام هرم السلطة أية سلطة تخضع قوة القرارات لمستويات الهرم، فكلما كان القرار صادراً من مستوى أعلى كانت طاعة قاعدة الهرم أسرع وأشد. أعلل نفسي بقول الشاعر:

وقولي كلما جشأت وجاشت مكانَكِ تُحمدي أو تستريحي

ولكني لست بمواجهة ندٍّ بند أو وجهاً لوجه، فأنا مكبل اليدين ومعصوب العينين، أنا اليوم أسيرهم، واي جسد بايلوجي لديه مقدار من التحمل وطاقة محدودة، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾، فهل أنا في دائرة الوسع، هل هذا الاختبار ضمن الطاقة التي امتلكها والوسع الذي أعده الله في نفسي أم لا؟ لست أدري الأفضل أن أدعو: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا

فَٱنصُرنَا عَلَى ٱلقَومِ ٱلكَٰفِرِينَ). صراع مشحون ومرير ولكنه خفي بين الجسد بقواه الفيزيولوجية البايولوجية، الجسد بدمه ولحمه وشحمه، بشرايينه وأعصابه، بعظامه وفقراته وعضلاته، وبين الروح بقيمها المتشبثة بالغيب، حيث القوة المطلقة والعزم الباهر والخلود الأبدي، ما أسرع أشرطة الأخيلة في عقول البشر، خطوات قليلة تقيم فيها مناظرة كاملة بين الغيب والمادة، وأنى للغيب أن ينتصر على إحساساتنا المادية بدون رياضة خاصة (ولا يُلقّاها إلا ذو حظ عظيم).

- أحضر الفلقة سيدي؟

- لا (للگنارة) وهو مصطلح اعتاد القصابون على إطلاقه على الخشبة العرضية المثبت عليها كلاليب حديدية حادة تعلق فيها الذبائح من الخراف والأبقار، ويعني بذلك تعليقي بالسقف ويداي مكبلتان إلى الخلف.

إذا كانت الدقيقة تعادل ساعةً في الجولة الأولى فأنا أشعر وكأنها يوم هذه المرة، عرفت فيما بعد، لو قدر لي أن أبقى معلقاً أكثر من أربع ساعات فإن ذراعيّ وكتفيّ ستُشلان مؤقتاً أو على الأقل تشعر بتنملهم، بينما التعليق لمدة ساعة أو أقل سيُبقي على إيعاز الأعصاب ومجرى الدم في الشرايين على حاله ولذا يكون مؤلماً، أما لماذا يتغير معدل الألم فذلك

يعتمد على تفاعلك مع الألم فحين تتجه بإحساسك وعقلك نحو الألم يكون وقعه أشد.

قدرت ما مر من الوقت بلا مقارنات نسبية أو معنوية أكثر من ساعة فصرخت أنزلوني، أنزلوني وأيقنت لحظتها أن هذه الكلمة ستكلّفني الكثير لأنني سبق وإن قرأت لنزار قباني (سألوني وأنا في غرفة التحقيق عمن حرضوني، فضحكت وعن المال وعمن مولوني فضحكت، كلفتني ضحكتي عشر سنين) لأنني بعد النزول سَأُسأَل عن كثير، إن نداء الجسد تغلب على نداء الروح وعليّ أن أرتب ما سأقول.

بمقدار حزني على كلمة أنزلوني كان مقدار فرحهم، لم يكونوا زاهدين أو يتظاهرون بالزهد، فاستجابتهم أسرع مما كنت أتوقع، ربما لأنهم ينتظرون المكافأة أو لأن بعضهم قد يتخيل لو أن الضحية كان ولده أو أخاه، أو هو، أو ربما كان الآخر على موعد مهم مع زوجته أو حبيبته ولا يستطيع أن يتقمص شخصية الودود اللطيف وهو قبل دقائق يجلد بأحد أبناء شعبه ممن لا ذنب لهم سوى أنهم معارضون سلميّون للنظام، أو كما أسلفت فمنهم حديثو العهد بهذا الصنف من العمل ويحتاجون إلى مدة كافية لكي تقسو قلوبهم، ويصبحوا كما وصفهم ربنا بقوله: (بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون).

أسرع أحدهم إلى الكرسي استقبلني الآخر من جانبي، فلما رأى خوار قواي صرخ بصاحبه أن يمسكني من الجانب الآخر، صرخوا على الثالث أن يجلب قدح ماء، أسرعوا إلى فك وثاقي من الخلف وحولوه إلى الإمام، ثم مشوا بي إلى غرفة المحقق، هذا المقدار من المعاملة يوفر علي أن أنظم أقوالي لتكون بأقل الخسائر وفق قصة تجمع بين جزء من الحقيقة والإقناع. أن تعترف بسرٍ من أسرارك بالجبر والإكراه إحباط وخيبة، ولكن أن تنهار فهو الهزيمة بعينها، في الأول تدلي بما عندك عن وعي ودراية فتحرص أن يكون المعترف به سراً من بين أسرار كثيرة وقد تختار ما هو أقل خسارة، لكن في الثاني فأنت تذيع كل أسرارك، حتى التي لا يطلبها عدوك لأن الانهيار هو فقدان السيطرة تماماً على ما تملك من خفايا لا يعلمها عدوك. هذا مجمل مادار في رأسي وأنا أتقدم نحو غرفة المحقق.

أول وآخر ما تحدثت عنه مسؤولي الحقيقي الذي اعتقل في أواخر العام ١٩٧٩، وها أنذا في تموز عام ١٩٨٠، وقصصت الحكاية بشكل جعل المحقق يدرك صدقها وأن جميع من جاءوا بهم من الزملاء هم أبرياء لم تتم مفاتحة أحد منهم ولم يتم تناول أي منشورات أو تحريض ضد الدولة، وكل ما في الأمر أننا فعلاً ذهبنا في سفرة يعتادها كل أهالي كربلاء إلى سامراء وكل ما ورد في اعترافات علي

الكريطي لا أساس لها من الصحة، وهؤلاء أعني الزملاء المعتقلين بعضهم ليس له علاقة بالدين لا من قريب ولا بعيد ولكن ما يجمعنا هو السكن في محلة واحدة ولا يكون ذلك سبباً لاعتقالهم.

لا أعلم بالضبط السبب الذي جعلهم يقتنعون بهذا القدر من المعلومات في حين يظل غيري ربما أسابيع كلما يدلي بمعلومات يسجلونها ثم يعاد ثانيةً لطلب المزيد.

بعد سبعة أيام من دخولي مديرية (أمن كربلاء) أطلق سراح من معي وأودعت التوقيف في ١٩٨٠/٧/٢٠.

التوقيف في مديرية (أمن) كربلاء

غرفة مستطيلة الشكل بقياس ٥*٣.٥م، رغم ما على ملابسي وجسمي من عرق الأيام الماضية دون استحمام إلا إنك تواجه عند دخولك إليها ريحةً نتنة لم آلفها من قبل، العدد ليس كبيراً قياساً لما سأصادفه من أعداد في مواقف أخرى في أيامي القابلة، حائط متسخ محفور عليه بعض الذكريات لمن سبقونا، في إحدى زوايا هذه الزنزانة صفيحة معدنية مكتوب عليها دهن الراعي، كانت تحتوي على زيت نباتي يسمى بهذا الاسم، وقد أزيل غطاؤها الأعلى مخصصة للتبول الاضطراري، أرضية الموقف من الكونكريت المشوه لقدم البناء وإهمال الترميم، فالجلادون لديهم مشاغل أهم

من ترميم السجون، لكل موقوف بطانية واحدة، أما الوسادات فكل موقوف وشطارته وموجوداته ليعد وسادته، فمنهم من يجعل نعاله أو حذاءه ويلفه بما تيسر له من خُرَقٍ بالية بقايا من ملابس موقوفين رحلوا من هنا ومنهم من اعتاد ان يجعل ذراعه وسادته، وآخر يطوي أعلى فراشه بما يشبه السهم ثم يطويه طية أو طيتين، كلما زادت عدد الطيات، كلما كان ما يضعه من رجليه على بلاط الموقف من الكونكريت أطول. باب الموقف بارتفاع مترين وعرض متر مشبك بالفولاذ، يرصد الحرس عبره كل حركاتنا وسكناتنا، ونحن أيضاً نرى عبره ضوء النهار ولا شيء غيره يوصلنا إلى ذلك.

يفتح باب الموقف ثلاث مرات يومياً لكي نذهب فرادى لقضاء الحاجة شريطة أن لا يزيد الوقت على دقيقة واحدة لكل موقوف، فلا يخرج أحدنا إلا بعد أن يفتح الحرس عليه الباب ويتولونه ضرباً، ذوي المثانة الخجولة (مرض اطلعت عليه فيما بعد)، يواجهون حرجاً في قضاء حاجاتهم، إذ لا خصوصية لهم في الموقف حيث تقف أمام الجميع على الصفيحة المعدنية للتبول، ولا في الحمام خارج الموقف حيث يفتح الحرس عليهم الباب، لا بد للإنسان أن يتكيف ولا بد للمثانة الخجولة أن لا تخجل.

شدني ذلك الشاب العشريني، ذو الشعر الأسود المتدلي على كتفه، بشرة بيضاء خالية من حب الشباب أو النمش،

ذقن طويل ربما مر على حلاقته أكثر من شهرين ولم يُحلق، يرتدي سروال أبيض عريض، وقميص فضفاض بنفس اللون، يتكلم بصوت منخفض بلهجة لا أدري أهي سورية أم لبنانية، ينام بجواره شاب يكبره قليلاً ذو بشرةٍ حنطية، أصلع ذو عينين سوداويتين، وذقن كث الشعر بملابس داكنة، عراقي اللهجة، تعرفت على اسم الأخير فقال انه فرات كاظم جدي من أهالي النجف الأشرف وهذا صديقه اللبناني من مدينة النبطية جنوب لبنان جاء لغرض الزيارة فألقي القبض عليهما في صحن الحسين عليه السلام بناءً على إخبارية لا يعرفون مصدرها على انهم منتمون إلى حزب الدعوة الإسلامية. لقد كان اللبناني -واسمه حسين- قليل الكلام، وثيق الصلة بالله، مطمئناً ببراءته، متأثراً بمظلوميته، فغربته غربتان، غربة الوطن وغربة السجن، وغربة السجن مضاعفة فهو هنا منذ أكثر من شهرين ولم يسمحوا له بمواجهة أحد ولا إرسال رسالة إلى ذويه، ولا حتى الدفاع عن نفسه عبر محامي مثلاً. حسين إن تسألْهُ يجيب بقدر السؤال، وإن تصمتْ يصمتْ، رغم ذلك كان شاباً مهذباً ومؤدباً، عرفت فيما بعد أنه أُعدِم ولم يُسلم لذويه، إذ أخبرني الشيخ صلاح الخفاجي لذي عاش معه أيضاً في ذات الموقف أن أهله سألوه عنه بعد سقوط النظام. رفيق حسين اللبناني العراقي فرات كاظم كان لديه متلازمة البصاق وحيث لا يوجد مناديل ورقية أو نسيجية أو مغسلة

فيبصق على الحائط الذي يلي فراشه بشكل متكرر، إنه يدرك قباحة هذا الفعل ومقدار تقزيزه لبقية الموقوفين، ولكن ما حيلته فهو مريض.

لم تمضِ ليلتان وفي الساعة التاسعة ليلاً، وقف الحرس على باب الموقف، يتصفح وجوه الموقوفين بنظرات شزرة، تجمع بين القسوة والخباثة، يفعل ذلك عن قصد ودراية، يعرف ما تثيره نظراته هذه وبيده مفاتيح الموقف من أثر في نفوس الموقوفين في هذا الوقت من الليل، فنهارات تموز في عام ١٩٨٠ في العراق وفي محافظات الوسط والجنوب حبلى، تلد في كل حين خبراً سيئاً بإعدام مواطن أو اعتقال أخر معارضاً كان أو صديقاً لمعارض، أو يُشتبه بأنه معارض، وكل معتقل قد يدلي بمعلومات، تكون سبباً في إعادة التحقيق، وعلى الجانب الآخر كانت نهارات مؤيدي النظام حبلى أيضاً إذ تلد في كل يوم حدثاً يزور به صدام مدينة أو قرية، أو بيتاً، ليطلع على ثلاجة أسرة، أو مطبخ أخرى، يسألهم عن وضعهم المادي، وكم عدد أفراد الأسرة وماذا يعملون، كان يريد بذلك أن يحشد الرأي العام لرئاسته ويُنسيهم فتكه العلني برفاقه أعضاء القيادة في قاعة الخلد أو فرض الإقامة الجبرية على رفيقه احمد حسن البكر رئيس الجمهورية، وفتكه بنا نحن أبناء العراق ومحبيه.

مقابلة قاضي التحقيق

أدخل أحد الحراس المفاتيح في قفل الموقف وصاح باسمي، قلت نعم، قال هيا اخرج. ماذا علي أن أتوقع غير أنني أعدت إلى التحقيق ثانيةً. مازالت آلام قدمي، وأكتافي، وآثار صعق الكهرباء، آثار كلماتهم البذيئة، تعريتهم لي، صورة علي الكريطي وهو يطلب مني الاعتراف أمام المحقق، كل هذه الصور والمشاهد والآلام تدفقت جملةً واحدة على جسدي المنهك ورأسي المملوء بالهموم. تجربة لا تتلاءم وعمري ولا طبيعة تنشأتي.

شدَّ عيوني كبلني إلى الخلف اقتادني إلى زنزانة المحقق، ما إن دخلت الزنزانة حتى صرخ المحقق بالحارس:

- ولك كلبج أيديه للأمام قشمر.

- صار سيدي، طبعاً ليس اسمه (قشمر) كما يظن البعض من غير العراقيين، ولكنها كلمة نابية يوصف بها السفيه أو الغافل أو الساذج من البشر، فتح القيد وأدار يدي إلى الإمام ثم أعاد القيد الحديدي.

ما هذا التغير في المعاملة؟ الوقت ليلاً، الساعة التاسعة، وهو وقت إقامة حفلات التعذيب مع التحقيق، هل هناك شئٌ أخر لا أعرفه.

- (ولك وين صاحبك، جيبه وتعال)، صرخ المحقق بالحارس.

- صار سيدي.

تـم اقتيادي بصحبة الثلاثة خارج الموقف، ارفع رجلك، انتبه رصيف، إياك ان تعثر، سوف نصعد درج، تعامل جديد، آه كم هي قدرة البشر على التلون، والظهور بمظاهر مختلفة، من يصدق أن هؤلاء أنفسهم، يسمعونك أنواع الشتائم وطرق السب التي يأنف منها المنحطون، وإذا بهم اليوم يتحننون عليك، وينبهونك كي لا تزل قدمك أو تعثر برصيف.

وقفنا على باب غرفة أتحسسها بأنها عادية، جو من الهدوء يسيطر على المكان، ليس فيه حركة مراجعين أو منتسبين، وفُتحت عيني، وزاغ بصري بشكل لا إرادي لأتفحص المكان من حولي لأرى صالةً كبيرة وممرين على الجانبين، غرف كثيرة أبوابها باتجاه الممرين وغرف على الصالة، أداروا جسمي بهدوء لأكون قبالة باب لم يفتح بعد، لم أعلم أن ثالث المرافقين، ضابط التحقيق قد دخل إلى الغرفة التي أقف قبالتها، وها هو يخرج ليقتادني مكبلاً إلى الغرفة. الغرفة متواضعة من حيث التأثيث، إذ فيها طاولة مكتبية أقدر أبعادها بـ١.٥ متر طولاً و٩٠ سم عرضاً ومن جهة الحائط يجلس في منتصفه رجل متوسط العمر على كرسي ثابت، يرتدي زياً صيفياً قميصا وبنطلونا، ذو وجه جامد، إذ لم يبدُ عليه الاستغراب ولا الرضا، وأمام طاولته يوجد كرسيان، اعتاد الإداريون على تسميتهما بكرسيا المداولة، ذلك طبعاً في الأيام العادية مع المراجعين أو

المنتسبين، ولا مداولة هنا لكن المحقق اختار الجلوس على اليمين فقبل أن يجلس سلَّمَه ملف من عدة أوراق وعليه غلاف من الكارتون. أما أنا فقد بقيت واقفاً أمام الطاولة وصاحبها، قبل أن يفتح صاحب الطاولة الملف، وجه نظره صوب المحقق، وبصوت هادئ وخجول كما لو أنه يستجدي مسؤولاً كبيراً، طلب منه فتح القيد الحديدي عن يدي، فقام المحقق من مكانه إلى خارج الغرفة حيث يقف الحارسان وجلب مفتاح القيد ثم أطلق يدي، واحتفظ بالقيد ومفتاحه عنده، وعيونه تراوح النظر بين صاحب الطاولة وبيني، ليس هناك من فرق في النظرات فهو يساوي بيننا، أنا أنتظر أن يتكلم صاحب الطاولة لأعرف من هو وماذا يريد في هذا الليل.

التفت إلى المحقق بلغة حازمة، ولكنها خالية من الألفاظ البذيئة وقال:

- شوف حميد هذا السيد القاضي راح يقره إفادتك إذا عندك اعتراض گله حتى نعيد كتابتها في ...... وسكت برهة ثم أكمل: وإذا مطابقة حتى توقع عليها ونرجع.

- صار أستاذ.

إنها بناية المحكمة إذن، وهذا القاضي الخفر لتصديق الأقوال قضائياً، طبعاً الاعتقالات التي تلتنا لم يكن فيها مثل هذا الإجراء، فالإفادات تُكتب من قبل المحققين وتؤخذ

للقاضـي لتصـديقها دون حضـور المتهمـين إذ تحـول القضـاء إلى مديريات أمنية مهمتها إعدام المعارضين.

لم تدم قراءة الإفادة أكثر من ثلاث دقائق وأومأت برأسي بالإيجـاب والقبـول وخرجـت مـن القاضـي وببـاب الغرفـة أُعيدت عصابة عيني وقيدت يداي إلى الخلف.

إجراء رغم روتينيته لدى جهاز (الأمن) إلا أنه كجبلٍ أزيح مـن علـى ظهـورهم، كـأنهم حصـلوا علـى الجـائزة، بشـارتهم وفـرحهم ينعكس على أدائهـم مـع المتهم سوءً، لـم يستغرق الوقت بين مجيئي وعـودتي أكثر مـن ربـع سـاعة، لكـن بهـذه الـربع ساعة كـم تغيّر سلوك الحارسين بين ما قدموا بـه ومـا عادوا عليه من سوء الخلق وبذاءة اللسان والضرب من غير مبرر.

اسـتقبلني الموقوفـون بشـوق ولهفـة ممزوجـة بمحبـة وعطف، وكـأنني فارقتهم أياماً وليالي، فما يجمعنا كثير ولـو لـم يكـن إلا شـعورنا بالمظلومية لكفى، فما بالـك ونحـن في قضـية واحـدة اسـمها النشـاط الـديني المعـادي وفـق قـاموس السلطة ونسميها بالوعي الإسلامي الحركي، أضف إلى وحدة القضـية ووحـدة الهـم والمظلوميـة فإنـه الحاجـة إلـى معرفـة المجهول فالسجناء المقطوعون عن العالم الخـارجي عـادةً مـا يتمنون أن تنطق الحشرات التي تـدخل مكـانهم لتحـدثك عمـا هو خارج السجن، ولذا من الطبيعي أن يتحلقوا حـول العائـد

إليهم من مكان خارج موقفهم، شرحت لهم ما جرى، وأدلى كل منهم برأيه، إلا أن الغالبية ومنهم فرات وصاحبه حسين اللبناني قالوا إنك ستُساق إلى مديرية (الأمن) العامة فكل من سبقك وأجري له ما أُجريَ إليك سُفّر إلى العامة.

بإمكان أيٍّ شاء من رجال (الأمن) أن يتصفح وجوهنا وأجسامنا في الموقف، فالباب مشبك كما أسلفنا وبعرض متر، لا وجود لأية خصوصية هنا، فأنت لا تستطيع أن تخلو بربك في صلاة خارج المعتاد، إذ سرعان ما ينظرك الحرس بنظرة شزرة، ولا يستطيع الموقوفون أن يجلسوا أية جلسة جماعية، وحتى وجبات الطعام حين يقدمونها فإنهم يبقون يراقبون الموقوفين إلى حين انتهائهم. الخصوصية حاجة فطرية، وإذا كانت الخصوصية الفردية صعبة المنال في السجون ومواقف التحقيق فلا أقل من الخصوصية الجماعية، فبعد انتهاء التحقيق يجد الموقوف لذةً أن يكون هو ومن هم على شاكلته بعيداً عن المراقبة العيانية بهذه الطريقة.

رغم اختلاف أمزجة البشر وطرق حياتهم اليومية من نوم ومأكل وحديث ومزاج إلا أن ثقل المحنة ووحدة السبب الذي اعتقلوا من أجله ونوع التربية التي تلقوها والتنشئة الدينية التي تربوا عليها، كل ذلك يجعلهم كعائلة واحدة يخدم فيهم القوي الضعيف، ليس بينهم ما يعكر صفو العلاقات وتدخل الحرس كما هي العادة في مواقف

التسفيرات في القضايا الجنائية. جلوسنا لصلاة الفجر كان يزعج الحراس إلا إنهم لا يعترضون على أصل الصلاة ولكنهم يحنقون لأي صوت أو حديث مع بعضنا في هذا الوقت، أخبرني رفيق لي في محنة السجن بابي غريب واسمه جاسم حسن كاظم من ديالى أنهم أثناء توقيفهم هناك في مديرية (أمن) بعقوبة كان السجانون يمنعونهم من النهوض لأداء صلاة الفجر فكانوا يؤدونها وهم رقود، ذات يوم كسر أحدهم هذا القيد وهو الأخ كامل خلف جاسم الكناني وصلى من قيام فأخرج من الموقف وعذب تعذيباً شديداً، فمديريات الأمن قد تتفق في قضية تعذيب المعتقلين بالتحقيق وتسجيل الإفادات وباستخدام كا ما يمكنهم من ذلك ولكنها تختلف في معاملة الموقوفين لحين انتظار الأوامر العليا، فليس كل من يتم التحقيق معه يُحال إلى (محكمة أمن الثورة)، كما سيأتي.

جارٌ وقريب يتنكر

ذات يوم وأنا جالس في الموقف أتأمل بابه الذي يأتي منه ضوء النهار ومنه يأتي الهواء ومنه الفرج أيضاً فمن هذا الموقف يدخل المعتقلون ومنه يخرجون إلى حيث يريد الجلادون، ربما تسفيرهم وربما الإفراج عنهم وربما إعدامهم، لا ندري فهنا -أعني في هذه البقعة حيث مديرية

(الأمن) - تجري الأمور بسرية تامة فلا راديو ولا تلفزيون وليس بمقدور أي أحد من المنتسبين ان يتعامل معك، فالسلطة المستبدة في بداية صعودها وإحكام سيطرتها على البلد بدعم غربي وشرقي حيث يُصَدِّر العراق أربعة ملايين برميل من النفط يومياً، لشعب تعداده في حينه لا يتعدى الـ ١٤ مليون نسمة، وحسب لغة المصالح والمنافع وحسابات الجغرافية والسياسة، وحيث نجحت قبل عام في بلد جار يرتبط معه بتاريخ وثقافة دينية وتداخل اجتماعي بدرجة معينة نجحت هناك ثورة إسلامية ترفع شعار (لا شرقية ولا غربية جمهورية إسلامية)، في مثل هذا الوضع سلطة العراق مرغوبة ومطلوبة منهم من يدعمها لأجل الحصول على المال، ومنهم من يدعمها ويعطيها المال -لو أرادت- لتنفذ لها غرضه الذي يريد، أما ماذا يفعل النظام وكيف يتعامل مع معارضيه وهل هو مستبد وديكتاتوري أم عادل وديمقراطي، فتلك قضايا ثانوية تختفي أمام المصالح الواقعية أو ما يسمونها بالبراغماتية السياسية، وعلى الجانب الآخر، المعارضة فهي في بداية تراجعها وهبوطها كتنظيم نخبوي وليس جماهيري شعبي، فهي في مسيرتها منذ الخمسينات قد انتقت الأخيار الأبرار في هذا الوطن من المثقفين والدارسين، وحسني السيرة والأخلاق، وهؤلاء وان كان عددهم عشرات الألوف وربما المئات، إلا أن استئصالهم بنظام بوليسي حديدي ليس

بالأمر الصعب. أمام هكذا معادلة مع طبقة مستبدة غير أخلاقية يقودها شخص تعود سفك الدم وقتل المقربين والأبعدين على الظن والتهمة يكون انقطاعنا عن العالم الخارجي أمر غير مستغرب. في تلك اللحظات وأنا أتأمل باب الموقف وإذا بي أرى جاراً لنا كنت قد سمعت أنه يعمل مفوض في مديرية (الأمن) في المحافظة، ولكني لم أكن متأكداً في حينها، هذا الجار كان ابن عمته ضمن المجموعة التي وجدتها أمامي والذين أفرج عنهم. وقعت عيني على عينه، نظر إليّ وأمال رقبته إلى جهة اليمين كمن يريد أن ينظر إلى من طرف أصابعي اليسرى إلى أعلى كتفي الأيمن، أنها نظرة أسى وخجل وحذر، فالرجل ليس جار في المنطقة فحسب، بل تربطنا به علاقة قربى من بعيد نسبياً، فسّرت الأسى في حينها أنه يعلم ما سيؤول إليه هذا الاعتقال من مصير، فالمنتسبون في هذا الجهاز أدرى من غيرهم، أما الخجل فهو لا يستطيع أن يقدم لي أي مساعدة، وأما الحذر فهو خشية أن أبادره بسلام أو كلام فذلك مما يسبب له مساءلة من مرؤوسيه. ومن جانبي فلم أفكر لا بالحديث معه ولا بإظهار معرفة به فقد يعلم عني أموراً تسبب لي المتاعب، وكل من يعمل في هذا الجهاز هو ضدك وليس معك، نظرات بلحظات، أطرقت رأسي وأدار وجهه وانصرف.

التسفير إلى (الأمن) العامة

إحساسات البشر في كثير منها إن لم نقل كلها نسبية، ذات يوم قلت لصديق لي إنك قصير، فرد بلغة معجونة بقليل من الغضب، لا يا أخي أنا لست قصيراً أنا طولي ١٧٤سم ولكنك عملاق فطولك يناهز الـ١٩٠سم لذلك أبدو أمامك وكأني قصير، وكم أحس البعض منا بقرب المسافة بين مدرسته الابتدائية وبيته بعد أن تجاوز عمره الخمسين، وما ذلك إلا لأن عينه ذرعت المسافات البعيدة، وقام يتنقل بين المحافظات وربما البلدان فبدت مدرسته اليوم عن بيته وكأنها مجاورة لجداره، كذلك إحساسنا بالحرارة والبرودة والظلمة والنور والطول والقصر كلها نسبية، فلا غرابة أن أقول اليوم أنني لم أقضِ في موقف (أمن) كربلاء إلا شهراً وعشرة أيام وهي مقارنة لمن قضى منا فيما بعد عشراً أو خمسة عشر أو عشرين سنةً مدة قصيرة ولكنها يوم كانت بداية المحنة فهي طويلة جداً، لا تمر منها ليلةً واحدةً إلا وأنت مع أهلك، مع أمك أو أحد أخواتك، أو أمام دارك فتستيقظ لترى نفسك مكبلاً مقيداً، وذلك مما يحول أحلامك إلى كوابيس، وسجنك إلى مرارة، تهوّنها الأحداث والوقائع المتعددة، وتهوّنُ مرارتها أيضاً مواساتنا لبعضنا البعض، والمقدار الذي نحملُهُ من الإيمان، وروح الثورة التي عادةً ما يحملها الشباب متغنين بقول أبي القاسم الشابي:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلابد أن يستجيب القدر

ولابد لليل أن ينجلي ولابد للقيد أن ينكسر

أو قول حافظ إبراهيم:

قف دون رأيكَ في الحياةِ مجاهداً

إن الحياة عقيدةٌ وجهادُ

ولا أنسى أن خروج ودخول الموقوفين وسماع الأخبار من هنا وهناك ممن يدخلون علينا كان يسلينا، لولا كثرة الباكين حولي...لقتلت نفسي هكذا تقول الشاعرة العربية الخنساء.

في ١٩٨٠/٨/٢١ وفي الصباح الباكر نودي على اسمي، وهذه المرة وحدي أيضاً ليس هناك من اختلاف في المعاملة، جلادان وضابط وسائق في سيارة صغيرة أجلس في الوسط وعن يميني وشمالي يجلس الحارسان المسلحان والضابط يجلس مع مسدسه إلى الإمام وأنا معصوب العينين، لم التفت إلى زجاج السيارة هل هو مظلل أم لا ولكني أظنه كذلك، في بداية الدوام الرسمي دخلنا على مايبدو المكان الذي ينوون إرسالي إليه، إذ طُلب مني أن أخفض رأسي، باتت لي تجربة في ذلك، وبذات الطريقة اقتادوني إلى مكان، أسمع فيه دوي العاملين هذا يصرخ وذاك يهزأ وثالث يقول سيدى، لم أعرف بالضبط أين أنا ولكنها بحسابات المسافة

المقطوعة وذكريات يوم ١٩٨٠/٧/١١ يوم ترحيلي إلى كربلاء مع ما لدي من معلومات حول تسفير الموقوفين إلى (الأمن) العامة، فهي هي إذن. بعد استقبالهم المعهود بالكلمات الفاحشة وسوء الألفاظ، سُلّمتُ إلى مسؤول الموقف الذي كان متحفزاً لضربي على خدي بصفعتين قلّ نظيرهما فيما مضى من رحلتي، تبدو يدُ الجلاد مختلفة عما سواها فهي ثقيلة جداً، تشبه إلى حد بعيد كف ذاك اللعين المسمى فلاح عاگولة الذي سنتحدث عنه في الفصول القادمة. بعد صفعه إياي أمر اثنين من الحرس باقتيادي إلى الزنزانة رقم ١٥.

موقف (الأمن) العامة

حمدت الله في نفسي إذ لم أجد ما ينتظرني في (الأمن) العامة فهي مركز تحقيق العراق كله وفيها من التعذيب ما سمعت عنه الكثير الكثير وأنا في كربلاء، بدأت أعدّ الخطى إلى حيث أمر ذو الكف الثقيلة، انتبه أمامك درج، هكذا نبهني الحارسان، مسافة قليلة ثم وقفت معصوب العينين مكبل إلى الخلف رافعاً رأسي هذه المرة أمعن النظر إلى الأمام عَلّي أرى شيئاً من وراء العصابة اللعينة التي رافقتني من كربلاء إلى بغداد، بدأت جلجلة المفاتيح بيد الحارس الأول، في حين أحسست بيدي الحارس الثاني وكأنهما تتشاجران خلف

رأسي، إذ تقترب راحتهما وتتباعد لفتح عقدة تلك العصابة التي هي الأخرى استعصت قليلاً على الفتح، فصرخ الحارس الأول بزميله (يلّه يويل)، صوت صرير المزلاج مزعج جداً حين سحبه الحارس الأول ليفتح الباب لكنه مازال ممسكاً به إلى أن تكتمل مهمة فتح العصابة، ها قد انفتحت، ففتح الباب ودُفعت من الخلف بقوة باتجاه داخل الزنزانة ثم أغلقا الباب وأقفلاه.

رغم شدة دفعي من الخلف إلا أنني لم أسقط على الأرض، ليس لأني ما زلت قوياً ولدي لياقة بدنية عالية، ولكني ارتطمت بكتلة من البشر الواقفين الذين يغص بهم المكان فلا سبيل لسقوطي مهما كانت شدة ضعفي ومهما كانت شدة دفعهم إياي.

مُذ صرّ مزلاجُ الباب وكل من في الزنزانة أخذ وضع الاستعداد لاستقبال الضيف الجديد، فهنا لا يُؤذن للشمس بالدخول ولا للهواء إلا بقدرٍ محدود، وعليه فدخول معتقل جديد بقدر ما هو مشكلة من حيث زيادة العدد وضيق المكان، فهو ضيف عزيز سيروي لهم حكاية جديدة، قصة جديدة، أخبار جديدة، وفوق ذلك كله فهو يحمل نفس همومهم، وعقيدتهم، أضف إلى ذلك فهم متدينون، وأبجديات الإسلام إنما الدين المعاملة، وإنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق، هكذا كان يقول رسولنا جميعاً (صلى الله

عليه وآله)، أما إمامنا علي عليه السلام فقال: الناس صنفان أما أخ لك في الدينَ أو نظير لك في الخلق.

تحولق حولي الجميع مبتسمين فرحين، أسرعوا لي بشربة ماء، وأطال عدد منهم النظر في وجهي، مفضلين لغة العيون على لغة اللسان، يتفحصون ما خلف عيوني، وفيما إذا كنت منهم أم عليهم، فألاعيب الجلادين كثيرة، منها أن يزرعوا أحد منتسبيهم أو المتعاونين معهم داخل الزنزانة، وهذا ما حصل مع داعية من أهالي اليوسفية أو اللطيفية مدرس لغة إنكليزية لم يمض على زواجه إلا أسابيع معدودة، شاب مثقف جداً ووسيم جداً، صمد صموداً بطولياً في تحقيق العامة، ثم أدخل الزنزانات، فبدأ بنشاط دعوي عبر محاضرات يومية، وسرعان ما دخل على الزنزانة معتقل اسمه صباح من أهالي ديالى، عليه أثار تعذيب أيضاً، واقترب من ذاك الداعية ومن محاضراته، فأخبره كيف صمد في التحقيق، وأخفى كل ما لديه عن الجلادين، وصباح يشيد به وبطولته، وذات ليلة، نادى الجلادون على صباح، وبعدها بساعة، نادوا على الداعية المدرس ليتفاجأ أن صباح متعاون مع الجلادين وهو منهار نتيجة التعذيب، فأرسلوه جاسوساً عليه، وها هو أمامه يخبره بكل ما كان يقوله في الزنزانة، فلم ينفع بعد ذلك الصمود، هذا ما ذكره لي الأخ السجين جاسم حسن كاظم من أهالي الجديدة/ ديالى.

الأغلبية هنا مرحبة ومهللة ومستبشرة، وكأنهم في فندق خمسة نجوم، اقترب وقت صلاة الظهر وبدأت مراسم التهيؤ للصلاة، أرشدوني إلى مكان الوضوء، فرحت أتأمل المكان.

قياس الزنزانة لا يتعدى ٢*٣ في زاويتها المقابلة للباب دكة ملتصقة بالحائط المقابل للباب بارتفاع ٢٠سم تقريباً وبقياس ١*١ متر، وقد بُني فوقها مرحاض شرقي، مزود بحنفية ماء، بخط واحد بارد جداً شتاءً ومقبول صيفاً، جُدارَيْ المرحاض لا يلتصقان بالسقف بل تركت مسافة ٣٠سم تقريباً، أما الجدارين الأخرين للمرحاض فهما الحائط المشترك مع الزنزانة الأخرى والثاني حائط الزنزانة المقابل للباب والذي يطل على ساحة لا نرى منها شيئاً، ولا نعلم ما فيها، في أعلى هذا الحائط من جهة المرحاض، توجد مفرغة هواء بقياس ٢٠*١٠ سم أي بقدر طابوقة بناء وضعت المفرغة من جهة الخارج، أما فتحتها من الداخل فهي عبارة عن قطعة معدنية بسمك ٥ملم أو أقل مثبتة بشكل محكم داخل الحائط، ومثقبة بثقوب صغيرة يستطيع العصفور أن يدخل منقاره فيها، ولكنه للأسف لا يأتي، وإن كنا نتمنى لو مجرد متعنا بصوت زقزقته صباحاً، ارتفاع سقف الزنزانة ٢٨٠سم تقريباً، عرض بابها ٩٠سم من الحديد الصلد، مصبوغة باللون الرصاصي، ارتفاع الباب متران ويوجد في أعلى وسط الباب نافذه قياسها ١٥*٢٥سم، باب هذه النافذة

تُفتح إلى الخارج وفيها مزلاج أيضاً، مُعدة لإدخال الطعام مقروناً بالتوجيهات اليومية من كبير الحراس أو الضباط، وهي مخصصة أيضاً للمراقبة المفاجئة من قبل الحرس بسبب أو بدون سبب، ولا أنسى أيضاً أننا حين نضرب على الباب لوفاة أحدنا أو اختناقه فسيفتح الحرس هذه النافذة ليقدر فيما إذا كان يستجيب أم لا، بعد استشارة رؤسائه طبعاً. صافي مساحة الزنزانة هو ٥ متر مربع !!!في حين كنت الموقوف رقم ١٤!!!

جدران الزنزانة إسمنتية غير مصبوغة فهي بلون الإسمنت، ينفعنا ملمسه الخشن أن نمسح أيدينا داخل المرحاض بالجدار لإزالة بعض عوالق المرق أو أي دسومة لعدم وجود الصابون، وفي أعلى سقف الزنزانة مصباح كهربائي. اخترعنا بفعل الحاجة أن نصنع من عظام الذي يأتينا بعض الأحيان أُبراً للخياطة ومن القماش البالي وأحيانا قماش الملابس التي ندخل بها خيوطاً لنخيط سروالاً أو نصف سروال.

أخبرت ذات يوم أن أحد الموقوفين ممن حكم أ بالسجن المؤبد لاحقاً وهو (حسين) من البصرة، كان يخيط بالإبرة (العظم)، فدخل عليهم عراقياً كان مقيماً بالكويت ويرتدي دشداشةً فضفاضة صيفية جديدة، فهو لم يمر بتحقيق طويل يستهلكها أو يوسخها، فتضايق منها الرجل، بسبب حرارة

الجو، فاستشار حسين: هل يمكنك أن تخيط لي منها قميصاً وسروالاً؟ وأشار على دشداشته، فنظر لها حسين بتأمل وقال: نعم أنها فضفاضة ومقاسها كبير. فخلعها الرجل وقال: هيّا توَكّلْ.

بدأ حسين مهمته وهو الخياط المبتدئ بفصال الدشداشة، القماش جديد، وليس هناك من مقص، فاستخدم أسنانه، يميناً وشمالا ليمزقها إرباً إرباً، وصاحبها ينظر، وبعد ساعات مضنية استطاع حسين ان يخيط له نصف سروال، أعطاه للرجل وقال له بود: ما تبقى من الدشداشة لن يذهب هدراً سنستفيد منه في استخراج الخيوط، وضحك الجميع، فأمام خسارة الأرواح لا تمثل هذه أية خسارة.

أكملت الوضوء والتحقت بالجالسين، وبدأنا بقراءة دعاء الفرج في جو روحاني وصوت عذب، من أحد المعتقلين، وبخشوع وخضوع وكأني في حضرة الملكوت، أو أطوف في الجنان، حيث لا نكد ولا عناء، أدعو بقلبي لا بلساني، أدعو الله وكأنني أراه، (يامن تُحَلُّ به عُقَدُ المكارِه، ويامن يُفثأُ به حد الشدائد، ويامن يُلتَمسُ منهُ المخرج إلى روح الفرج، ذلت لقدرتك الصعاب، وتسببت لطفك الأسباب...)، نزلت هذه الكلمات على قلبي نزول الماء البارد لجوف الظمآن، فانهالت دموعي تغسل كل آلام الاعتقال والتعذيب والترهيب

الـذي مـرَ بـي والـذي مـرّ بمـن رأيـتهم طيلـة الأربعـين يومـاً الماضية، نزهة روحية جديدة ولكل جديد أثرٌ كما يقولون.

النظام في الزنزانة

لقد وجدت النظام المتبع قبلي هو أن يقف نصف عدد الموقوفين في الزنزانة وينام النصف الآخر، الواقفون ينبغي أن يقفوا على قدم واحدة متكئين على حائط الزنزانة، ويتبرع إثنان من الواقفين بحمل منشف قديم أو قطعة من الملابس البالية، يمسكانه من طرفيه لكي يحركوا الهواء طلباً لتلطيف جو الزنزانة، معظم الواقفين، عراة الصدور في حين يرتدي النائمون ما خف وشفّ من الملابس عدا ما يستر العورة.

لأنني شغوف بالرياضيات فرحت أتأمل، متوسط عرض الكتف للرجل هو ٥٠ سم ومتوسط طول الرجل هو ١٧٥ سم، وحاصل ضرب الطول في العرض في العدد ٨ وهو عدد النائمين سيكون ٧ متر مربع، فكيف تكفي المساحة؟ رغم إيماني بالغيب وسمو روحي بعد دخولي هذه البقعة إلا إنني لست شديد الإيمان بوقوع الكثير من المعاجز في هذا الزمان، لابد من وجود ثغرة في الحساب، وسرعان ما التفتُّ إلى أن النوم لم يكن على القفا وإنما على الجانب، ثم إنهم استثمروا شيئاً أخر وهو أن يتقابلوا في النوم بحيث تتداخل أرجلهم ورؤوسهم بحيث تكون رجلا الأول بجوار رأس

الثاني ورجلا الثاني بجوار رأس الثالث تماماً كما يَصُفّوا سمك السردين في العلب المعدنية، ذيلاً برأس ورأساً بذيل، وهكذا يتندر الموقوفون، فهناك الوقفة اللقلقية في الزنزانة العفلقية، وهنا النومة السردينية في السجون البعثية.

رغم أني لم اغتسل منذ اعتقالي في ١٩٨٠/٧/٨، ولم أحلق ذقني ولا شعري، ولم استبدل ملابسي فما زلت بقميصي الصيفي وسروالي الرسمي من القماش القطني، والله وحده يعلم كم تعرقت طيلة هذه المدة في هذا الصيف القائظ، إلا أن ذلك كله لم يمنع أنفي من أن يميز رائحة عفن الزنزانة لحظة دفعي إليها. الرطوبة عالية بسبب عدم وجود نوافذ، واستعمال المرحاض لقضاء الحاجة وللغسل معاً، مع تعرق الأجسام، وخزن بعض الأطعمة للصائمين، كل تلك العوامل تساهم في رائحة النَّتَن التي استنشقتها بداية الدخول. ليس هناك من فراش إسفنجي أو قطني لأرض الزنزانة بل هي مغطاة ببطانيتين أو ثلاث سوداوات اللون خشنات الملمس وباليات أيضاً.

الزنزانة مصممة لمعتقَلَيْن اثنين وفي أقسى الحالات لأربعة أما أن يوضع فيها ١٤ معتقلاً فذلك أقرب للخيال، منهُ إلى الواقع، ولكن عليّ أن أصدق ما أرى فهو حقيقة ماثلة، هكذا يفعلُ الطغاة والجلادون، فبنو آدم يتسافلون حتى

يكونوا أضلَّ من الحيوان، ويترفعون حتى يكونوا أفضل من الملائكة.

في هذه البقعة الضيقة التي لا تصلها الشمس، وحيث يقبع خيرة الشباب وأبهاهم وجهاً وأصدقهم حديثاً وأبلغهم منطقاً وأكثرهم إيماناً وتسليماً لله، منتمين لحزب الدعوة الإسلامية ومناصرين ومؤيدين له، في هذه البقعة التي لا تزيد مساحتها عن خمسة أمتار مربعة، يوجد تفاضل في المكان، فكبار السن والمرضى، وممن لديهم مشاكل تنفسية يوضعون في مكان جيد!! ولكن أين هو؟ إنهم يوضعون بجوار باب الزنزانة حيث تمر نسائم هواء باردة وعذبة كما لو أنها نسيم البر أو البحر على ساحل المتوسط، تنبعث من أسفل الباب الحديدي حيث هناك فراغ بقدر سنتمتر أو أقل بين إطار الباب وهيكل الباب، هذا الفراغ يدخل منه الهواء العليل بسبب عمل المفرغة، وحده هذا المقدار من يُبقينا أحياء، فإذا تعطلت المفرغة نتعرض لخطر الموت اختناقاً، هذه ليست فرضية بل حصلت فعلاً في شهر حزيران في عام ١٩٨١، أي بعدنا بعام تقريباً حينما انقطعت الكهرباء، واستشهد على أثرها خمسة عشر موقوفاً. يقول الأخ أحمد علي أبو الوفاء من محلة الحارثية ببغداد: في يوم ١٩٨١/٦/١٤ وكان يوم الأحد كنا في الزنزانة رقم (٣) في الطابق الأرضي، وكان عددنا ٢٩موقوفاً فينا أربعة من محلة الحارثية/ بغداد، وخمسة

من الأكراد وخمسة من منتسبي (الأمن) في تكريت، والباقي من الدجيل، وفي الساعة الواحدة ظهراً، حيث درجة الحرارة بأوجها، انقطع التيار الكهربائي، وكان انقطاع التيار الكهربائي مسألة روتينية، لكن كانت هناك مولدة تعمل اتوماتيكياً بعد أقل من نصف دقيقة يعود التيار مجدداً، لكن هذه المرة تأخرت عودة الكهرباء، بعد ساعة أحسسنا أن العملية مقصودة وهي عملية إعدام مبرمجة لكي نموت ببطء مما زاد في قلقنا وغضبنا فأخذنا نطرق على الباب وسمعنا بقية الزنزانات كذلك، وعلت هتافاتنا ضد النظام مما اضطرّ الحرس أن يفتحوا النوافذ الصغيرة، لكن بعدم اشتغال المفرغات لا يتحرك الهواء داخل الزنزانة حتى لو فتحت هذه النوافذ، وصلتنا رسائل عبر المورس أن نلتزم الهدوء، ولكن أنى لنا بالهدوء ونحن نختنق، التجأنا إلى الماء لكي نبرد أجسامنا مما زاد في رطوبة الزنزانة مع ما نطلقه من ثاني أوكسيد الكاربون نتيجة تنفسنا، تعقدت المشكلة أكثر، نفد ماء الخزانات، طلبنا المساعدة، جاءوا لنا بإناء بلاستيكي فيه عشرة لترات من الماء، حاولنا الاقتصاد، توليت بنفسي حمل إبريق من الماء والتوزيع بقدح لكل موقوف، كان علاء رحمه الله لم يبلغ السابعة عشرة من العمر، وكان مؤدباً وذو فطرةٍ نقية تناول الإبريق ليشرب منه سحبته منه، فروحه تنازع ليس بسبب العطش وإنما بسبب نقص الأوكسجين، خارت قواه،

وضعف صوته وقال لي معاتباً لماذا يا أبو الوفاء تريدني أن أموت أنت ستقتلني، لم أتحمل هذه الكلمات، عدت وسقيته قدحاً آخر، وما إن شربه حتى مات ولكني كنت أظن جميع من ماتوا انهم مغمى عليهم، لم أصدق أنهم ماتوا بجوار علاء كان علي من الدجيل، ثم سقط شخص ثالث كردي، وبجواره كان ماجد الساعاتي في المرحلة الثالثة في الجامعة التكنولوجية من الحارثية سقط هو الآخر، وبجواره ابن قضيته ومن مدينته عمار وكان في الصف الثاني في المعهد سقط هو الآخر، بدأت أشعر بالدوار، ثم رأيت غشاوة على عيني وذلك بعد اربع ساعات من انقطاع الكهرباء، أحسست وأنا بين الحلم واليقظة أني خارج الزنزانة وقد رشوا علي الماء ثم سحلوني في الممر، ما هذا الذي أراه أسأل نفسي فلا أعرف تفسيراً، عاد إلى جزء من الوعي فأصعدوني الدرج بين السحل والدفع، حتى أدخلت في زنزانة ١٤ في الطابق الأول، وجدت قسم من جماعتي هناك، بعد قليل تقيأت فانتبهت لأسأل عن علاء وعلي وماجد وعمار وفلان وفلان وفلان وإذا بهم يقولون لي أن عدد من استشهدوا في هذه المجزرة من زنزانتي فقط ١٢ موقوفاً، ومن الزنزانات الأخرى ثلاثة شهداء، سألته لماذا هذا الفارق؟ فأجاب لأسباب أولها أن ذلك اليوم هو يوم تسفيرات إلى المحاكم إلى سجن رقم واحد بالنسبة إلى العسكريين وكانت كل الزنزانات فيها ما

بين ١٠-١٣ موقوف بينما زنزانتنا الوحيدة فيها ٢٩ موقوفاً، وثانيها أن معظم من في الزنزانة كان من الشباب قليلي التجربة وكنا كلما طلبنا منهم الهدوء وعدم الانفعال وعدم الصياح وترك الكلام ازدادوا أما بقية الزنزانات ففيهم بعض المتمرسين من الصيادلة والأطباء نصحوهم بذلك للاقتصاد في استهلاك الأوكسجين وكان ذلك الأمر مجدياً، وحين سألته هل كان الأمر مقصوداً، أجابني بقوله أنا لا أقطع بكونه عملاً عمدياً ولكنه إهمال جسيم ينم عن وحشية القائمين على امرنا وعدم مبالاتهم بحياتنا وقال، بعد ان التقينا سألت عما لم أدركه بعد فقداني الوعي فقال أحد الموقوفين ممن يكبرنا سناً: أنا لم أفارق فتحة النافذة وغدا تساقط الموقوفين بالجملة وكان أحدهم جنب قدمي فلما جاءت الكهرباء بعد أربع ساعات، وجرى الماء في الصنابير، بدأ الحراس بقفل النوافذ الصغيرة بالزنزانة ثم وصل زنزانتنا فأراد غلقها فدفعتها من الداخل فاستغرب فصرخ بي اسحب يدك فقلت له هذا ميت، ميت؟ قلت نعم، ففتح الباب فلم يطق رائحة الموت والعفن والعرق والرطوبة فوضع كمه على انفه ونادى مسؤول الحرس وجاء الجلادون مسرعين ففتحوا بقية أبواب الزنزانات وطلبوا من الموقوفين إخلاء الجثث وفاقدي الوعي وبدأ الموقوفون يتحسسون الموتى من الأحياء.

الأنسُ هنا أننا مجموعة، فهذا القاطع يضم ٢٤ زنزانة على شكل حرف ألـ (L) باللغة الإنكليزية فعلى العمود تسعة زنازين ثم تميل بزاوية تسعين درجة حيث تصطف ثلاثة زنازين ومثله تماماً في الطابق الأول، ابتكر الضحايا طريقةً في التواصل بين الزنزانات عبر الحائط المتصل بلغة المورس فلكل حرف رقم حسب التسلسل الأبجدي الألف واحد والباء اثنان والجيم ثلاثة وهكذا، الرقم خمسة يمثل بشخطة على الحائط وعشرة بشخطتان، وهكذا، وبذات الطريقة يتواصل الموقوفون بين الطابقين كل في زنزانته عبر أنابيب الماء المعدنية، وقطعة من نقود، أو حصى صغيرة، ليس كل الموقوفين يجيدون هذه اللغة، فهي تحتاج إلى مهارة في عملية الفواصل بين الكلمات وضبط الأرقام، في زنزانتي مثلاً تبرع أحد المبتدئين فتجمعوا حوله وكلما أراد توصيل معلومة عن عددنا، المحافظات التي جئنا منها، عددهم، أخبارهم، تعثر في إيصال الرسالة أو استلام أية معلومة، وفي كل مرة يتخلص من الحرج فنسمع منه١، ٣، ١٢، وهو يطرق الحائط ويشخط عليه ثم يقول أَجّلْ. أي أن واحد، ثلاثة، اثنا عشر، بالمورس تعطي معنى أجل، ومنذ ذلك التاريخ وأنا لا أحفظ من المورس سوى هذه الكلمة، فنقول له لا يا أخي نريد أن نعرف؟ فيقول، أنتم تربكونني، طبعاً ذلك تفادياً لحرجه، بعد مدة أتقن الحرفة، وصار أستاذاً في (المورس).

ثـلاث وجبـات يوميـاً تاتينـاً عبـر النافـذة الموجـودة فـي الباب، الفطور شوربة عدس مع (صمونة) وهي نوع من الخبز شائع عند العراقيين، الغداء ماعون ألمنيوم وفيه تمن وعليه مرق خال من اللحم مع (صمونة)، العشاء بطاطس مقلية، أو باذنجان مقلي مع (صمونة).

رغم كل هذه القيود البوليسية والإجراءات القمعية، إلا أن شخصاً قصير القامة، ألتغ اللسان، حنطي البشرة، يأتي يومياً مرتين أو ثلاثة مرات يطرق باب الزنزانة واحدة تلو الأخرى وينادي (البوش)، وهو يعني الأواني المعدنية الفارغة ثم يعود من بداية الزنزانات ليفتح النوافذ الصغيرة المخصصة لإيصال الأكل والمراقبة والتوجيهات كما أسلفت، بعد أن نكون قد أعددناها له، يأخذها بسرعة، لا يتكلم معنا بشيء، لا يؤذي أحد ولا يبتسم بوجه أحد، إنه شغاتي، يبدو إنه عامل خدمة، كنا لزحمة المكان نضيق حتى بالنعل الزائد أو الحذاء الزائد فنعطيها له كهدية فيأخذها وعلامات الامتنان على وجهه، طرقاته على الباب كانت أنساً لنا ومتعة كلنا يقول شغاتي، شغاتي، فأوقاته معلومة، فهو الطارق الوحيد الذي لا يُرهِب الموقوفين، بقوله أو فعله أو قسمات وجهه، كما يفعل سائر الجلادين.

لا يمر يوم إلا وفينا صائم أو أكثر فنضع له فطوره وغداءه فوق جدار المرحاض، فتلك هي ثلاجتنا المفضلة، وهل

هناك من مكان لنفاضله، كثيراً ما كان يتعفن الأكل، ولكن بدرجة مقبولة عندنا، فقد تكيفنا مع هذا النوع من البكتريا فهي تعيش معنا، ولا أنسى أن أغلبنا شباب بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين فلدينا القدرة والقابلية على مقاومة الأمراض.

الأكل بشكل عام سيء، فلا سكريات كالتمور والفواكه، ولا منبهات كالشاي، ولا خضروات بكل أنواعها، ولا حتى ما يكفي من الخبز، فنحن على مدار الساعة نشعر بالجوع.

نحن ووفق العدد الموجود اليوم هناك قدر من النظافة لا بأس به، فسبعة ينامون وسبعة خافرون وعلى الطريقة التي أشرت إليها، ولكن الرطوبة وعدم دخول الشمس وحرارة المكان، وعدم حلاقة رؤوسنا أو ذقوننا أغرت حشرات القمل بأن تكون معنا وبأعداد كبيرة، مما اضطرنا للشكوى أمام رئيس الحرس المفوض كاظم، كاظم هذا ممشوق القامة، طويل نسبياً، لون بشرته حنطي ميال إلى السمرة، مهذار، كثير الكلام، قيل أنه من أهالي الناصرية، يعبّرُ في كلامه أحياناً عن أهداف مقصودة، ذات يوم أطلَّ على أحد الزنزانات فقام إليه أحد الموقوفين، ودار بينهم هذا الحوار:

- لماذا لا تخرجوننا من هذا المكان؟

- كيف نخرجكم وأنتم دعوة، يعني حزب الدعوة الإسلامية -وهي التهمة التي اعتقل وأوقف واحتجز وأعدم

عليها الغالبية الساحقة ممن التقيت بهم أو شاهدتهم في هذه الرحلة-.

- لا أنا لست في حزب الدعوة.

- كيف أنت لست من حزب الدعوة، أو لم تصلِّ على تربة (وهو يعني السجود أثناء الصلاة على التربة الحسينية)؟

- أنا لا أصلي أصلاً.

- حسناً وماذا عن أمك وأبيك ألا يصليان على تربة؟

- أبداً فلا أبي ولا أمي يصليان.

- وماذا عن جدتك لأبيك أو جدتك لأمك ألا تصليان على تربة؟

- نعم جدتي لأمي تصلي على تربة.

- ها شفت أنت أذن حزب دعوة. (ظلَّ هنا حتى تخيس، وبعد ما أقبل واحد منكم يحجي هذا الحجي)، يريد بذلك أن يقول كل شيعي هو حزب دعوة وان عملية الاعتقالات مصممة طائفياً، ولكنه لا يصرح بذلك، أنها (حسجة الجنوب والحسجة طريقة في الكلام منطوقها شيء والمراد منها شيء آخر.

شكونا إلى المفوض كاظم انتشار القمل بيننا وطول لحانا وشعر رؤوسنا، فجاء لنا بحلاق وليته لم يأتِ، فهي حملة هستيرية لقَصْبِنا وليس لحلاقتنا، إذ يخرج أحدنا فيصرخ عليه الحرس، ثم يباشر الحلاق مهمته، يبدأ بشعر الرأس إذ لديه

ماكنة يدوية، لا يلتفت إلى تنظيفها أو تشحيمها فضلاً عن صلاحية شفراتها، فتارةً تقطع الشعر وأخرى تهلسه هلساً، ولن يشفع لك التأوه ولا (الآخ) فالحلاق لديه مهمة عليه إنجازها بأية حال، وما إن ينتهي من رأسك وعيونك تهمل من الألم، حتى يُخرجَ شفرته لحلاقة الذقن، فلا ماء ولا صابون ولا استبدال للشفرة وإن حلق بها قبلك عشرة أشخاص أو أكثر فتكون الحلاقة أقرب منها للسلخ، ناهيك عن اللامبالاة في طريقة وضع الشفرة، فتُجرح في أماكن شتى من وجهك، وبعد الانتهاء يصرخ أكثر من واحد (گُم....)، لتُدفَع من ظهرك بقوة عائداً إلى الزنزانة.

ما إن نلج الزنزانة حتى نتوجه إلى (المرحاض الحمام) مباشرةً، فلدينا مشكلة فقهية في قضية الدم ونجاسته وتعارض ذلك مع الصلاة، كما إن بقايا الشعر المتناثر على الرقبة والصدر وسط أجواء الحر والتعرق يبدو وكأنه أشواك نباتية أو أبر معدنية في وخزها. وما بين إكمالك الغسل أو على وشك، يكون الزبون الآخر قد ناداك (استعجل خوية بسرعة أرجوك).

في السجون، بل وفي مطلق الشدائد تكتشف أشياء لم تكن قد التفتَّ لها وأنت في الرخاء، لذة ما بعد الحلاقة، ومطلق الغسل وتنظيف البدن واحدة من هذه الأمور، فأنا الأن أشعر وكأني أخف وزناً، ما وزن الشعر الذي تم أزالته؟

ليس أكثر من عشرة غرامات، ولكني أشعر وكأنه ثلاثة كيلو غرامات، كنت أنوء بحملها قد وُضعت عني، لا أدري من أين جاء هذا الثقل المعنوي، فلا مرايا حتى أرى صورتي، فأبدو على غير طبيعتي، أنها آليات معقدة في حسابات ومعادلات الأدمغة البشرية فهي تحسب بدقة فائقة ما اعتادت عليه وما إن يزيد على حدّه حتى تبدأ بالإيعازات الداخلية وإيصال تلك الإيعازات إلى أدمغتنا، فنشعر أن شيئاً ما يثقل كاهلنا يجب ازالته. أو إن هذا الثقل مهما كان صغيراً فإن موقعه على الرأس واستمرار وجوده يُشعرك بهذا الثقل، فمما رواه لنا بعض السجناء أن واحداً من أساليب التعذيب في جهاز المخابرات ببغداد هو أن يجرحوا رأسك أو يحلقوه ثم يدعوا صنبوراً أعلى رأسه يخرج منه الماء قطرةً فقطرة وانت مقيد لا تتحرك فستكون تلك القطرات بعد قليل كأنها أحجار ضخمة تسقط على رأسك وقد يؤدي هذا النوع من التعذيب إلى الجنون، أو أن القضية برمتها قضية معنوية فالطهارة والنظافة سمو والوسخ والقذارة انحطاط ودنو.

مرت خمسة عشر يوماً، تساءلت في نفسي، تُرى كم يدوم هذا الحال؟ لماذا لا أسأل، عليّ أن انتظر خشية أن يُحسب سؤالي جزعاً وهلعا، أننا جميعاً أحوج ما نكون لأن يُبدي أحدُنا للآخر صبرَه وثباته، يقينَه وإيمانَه، صحيح أنني لستُ نبياً مرسلاً ولا ملكاً مقرباً، ولكن مازال الوقت مبكراً على

مثل هذا السؤال، وتذكرتُ تلك القصة التي كان يقصها لنا المعلم ونحن صغار يومَ سأل طفلٌ شيخاً عجوزاً حانيَ الظهر، بكم اشتريت هذا القوس -يعني ظهره المنحني- يا شيخ؟ فأجابه الشيخ سيأتيك القوسُ بلا ثمن، حتى ذهب ذلك مثلاً. في وقفةٍ لقلقية حيث يقف السبعة الخافرون وينام السبعة الآخرون تناولت أنا وشاب بصري طرفي منشف كبير لنؤدي عملنا الروتيني بتحريك الهواء فوق أخوتنا النائمين، أظن أن اسم ذاك الشاب كان عبد الأمير، كان شاحب الوجه، حنطي البشرة، ذو شفاه ذابلات وجسد نحيف، كان خفيف الدم، وكما كنا تبادلنا طرفي المنشف (المروحة)، تبادلنا أطراف الحديث متناسقاً مع حركة يدينا شمالاً وجنوباً، السكن، عدد الأخوة، العمل، تاريخ دخول الزنزانة، وهنا وصلت إلي بيت القصيد، طبعاً دون قصد ولا استدراجٍ، فقال منذ تسعة أشهر!!

لقد أدرك رفيقي مظاهر العجب والاستغراب من طول المدة التي قضاها بادية على وجهي، فأردف قائلاً أنا حالة خاصة وقضيتي معقدة، وقد لا أحال على المحكمة وأبقى هنا محجوزاً، كان بيننا من لم يبقَ في هذا الموقف سوى يوم واحد ويذهب إلى المحكمة ويُعدَم، ومنهم شهر ومنهم شهران، ومنهم من يأخذونهم إلى المحكمة ثم يعودون إلى هنا، لتأجيل الحكم أو تأجيل المحكمة، حيث الزخم الشديد

هذه الأيام، ولكن أكثر من يتم أخذهم من هنا يُحكم عليهم بالإعدام ولا يعودون. وبدأ يسرد عشرات المهازل من المحاكمات الصورية التي ينقلها العائدون من المحكمة ومشاهداتهم، ولا داعي لسردها هنا، فسأشاهدها بعيني وأسمعها بأذني.

في صباح اليوم التالي نُقلت إلى زنزانة أخرى أظنها كانت الزنزانة رقم (١٧)، التنقلات هنا متعددة الأغراض بالنسبة للجلادين، فمرةً لتعديل الأعداد ومساواتها أو مقاربتها، وأخرى خشية أن يتفق الموقوفون على الهروب الجماعي، أو الاحتجاج الجماعي، أو الإضراب، أو الاعتداء على الحرس وذلك مما تعاهد عليه القائمون على السجون ومواقف التسفيرات، وفي كل الأحوال فهو بالنسبة لنا مفيد في أحيان كثيرة، فهو يكسر حالة الرتابة والروتين والملل ويختصر علينا التعرف على قضايا أكثر وتجارب أكثر. لقد أمضيت خمسة عشر يوماً في زنزانتي السابقة.

لا يختلف العدد هنا عن العدد السابق، ولا نظام النوم ودخول الأكل، ما شاهدته هنا وجود ثلاثة أشخاص من كبار السن نسبياً أحدهم صيدلاني من بغداد واسمه محمد صالح، والآخر معلم من كربلاء واسمه هاشم، والثالث سلمان داود أو داود سلمان من البصرة في الصف الرابع كلية الزراعة، ما يتصف به كبار السن عموماً هو كثرة تأملاتهم وخلوهم مع

أنفسهم، وقلة كلامهم، ما يبدونه من الحزن واضح وجلي، ذات يوم جلس محمد صالح، ثم بكى، دُهشنا لبكائه فنحن لسنا في صلاة أو دعاء وكثير منا يبكي في مناجاته وأدعيته أو صلاته، في غير هذه الأوقات كان الوئام والسلام والمزاح شائع بيننا، ورغم كل الأوجاع التي نتلقاها يومياً إلا أننا على الأقل في الظاهر نبدو مسرورين راضين بقضاء الله وقدره، ومؤمنين بالخط الذي نسير عليه وبالنهج الذي سلكناه، مقتدين بأئمتنا عليهم السلام من جانب وبكل ثوار وأحرار العالم من جانب آخر، وللأمانة فلولا ذلك المخزون من الطاقة والعقيدة التي نحمل والإيمان الذي يلامس قلوبنا لمتنا كمداً في أول عشرة أيام. لم ينتظرنا الدكتور الحاج محمد صالح حتى نسأله، بل أفصح هو عما يجيش بخاطره، فقال: خطرت ببالي خاطرة، يوم ابتلى الله أيوب بصحته، فصبر، وبفقد أولاده فصبر، وأمواله فصبر، حتى جاءته زوجته يوماً فالتفت إلى خصلةٍ من شعرها وقد قُصَّت ولما سألها قالت هذا ما طلبه مني صاحب هذا الطعام الذي جئت به إليك كثمن، حينها نادى ربه (إني مغلوب فانتصر)، وأجهش الدكتور بالبكاء ثانيةً، أخشى ان يصيب عيالي ما أصاب عيال أيوب، قالها متهدجاً بصوته.

هزّنا جميعاً هذا الموقف العاطفي، لكننا -وأعني نحن الشباب- ممن لم نرتبط بعائلة ولا زوجات ولا أولاد كنا نعدُّ

ذلك شيئاً من الضعف وقلة الإيمان في مواجهة المحنة، وإن كان ليس كذلك فهناك فارق في التفكير بيننا وبين من يكبروننا سناً ظلّ ملازماً لنا طيلة أيام الاعتقال والسجن.

وجبات المقابر الجماعية

في اليوم التالي، وصلنا خبر (بالمورس)، من الزنازين التي تحتنا، هنالك قوائم بأسماء بعض الموقوفين، يخرجوهم من الزنزانات مساءً، وبدأت التحليلات، هؤلاء أكملوا تحقيقاتهم سواءً في مديرية (الأمن) العامة، أو مديريات (أمن المحافظات، فلماذا يخرجوهم الآن؟ المحاكم ينادونهم في الصباح أو في أوقات الدوام الرسمي، اعترافات جديدة؟ انهم من أماكن شتى، وقضايا مختلفة لا تلتقي مع بعضها إطلاقاً، مقدمات عفو من السلطة؟ العفو يخرج بالإعلام أولاً، ولماذا هؤلاء دون غيرهم ثانياً؟ كلٌّ يُدلي بتحليلاته وعندما لا يجزم بشيء يعود ويقول ولماذا هذا الاستعجال؟ دعونا ننتظر سيعودون بعد قليل ونعرف منهم الموضوع، وقبل أن ينهي كلامه قفز الآخر وقال ربما مواجهة ذويهم؟ ودار النقاش حول الرأي بين داعم ومعارض، حتى نصل إلى نفس النتيجة وهي أن ننتظر، ساعتين تقريباً وبدأت طرقات المورس بين الزنازين، أنها تعهدات مقابل إطلاق السراح وإخلاء السبيل. إنه خبر إجمالي فلا نستطيع معرفة كل شيء عبر (المورس).

بعد يوم أو يومين، يأتون ليلاً لينادوا بأسماء أولئك الذين وقعوا على التعهدات ويأخذونهم لإطلاق سراحهم ادعاءً، ومما زاد الموقوفين تصديقاً أن معتقلاً أتى بعد ثلاثة أيام من منطقة كان فيها أحد الذين تم أخذ تعهد له وأخرج ليلاً فقال نعم إن الرجل قد خرج فعلاً وتبادلت الزنزانات هذه البرقية العاجلة، مرت خمسة أيام فنودي ليلاً على اثنين من زنزانتنا أحدهم كان رحمه الله بعيد ما بين المنكبين، أسمر اللون، كثيف الشعر، هادئ الكلام، فعاد ووجهه مصفراً شاحباً، وهو يقول أنها النهاية، أنها جريمة، فأنصتنا بسمعنا وتحلقنا حوله مصعوقين بالسر الذي حصل عليه، تواقين لسماع ما يدلي به من أخبار فقال:

في الوقت الذي أخرجوني من هنا لتوقيع التعهد كانت قوة أمنية كبيرة من خارج المنتسبين الموجودين هنا، يبدو ذلك في زيِّهم وطريقة تعاملهم، يرتدون الزي العسكري، ومدججين بالسلاح، وأردانهم مشنفة وقد صفوا الوجبة السابقة من الذين أنجزوا التعهدات، قيدوا أياديهم إلى الخلف، عصبوا أعينهم، ثم وضعوا سلسلة طويلة تمر من بين أيديهم وظهورهم، من موقوف إلى آخر، ولم يكتفوا بهذا بل وضعوا ما يشبه اللجام من الحبال في أفواههم وربطوه من خلفهم، واقتادوهم كسلسلة، ثم قال بلغة فيها الكثير من التصميم: كيف نصدق أن هؤلاء سيتم إطلاق سراحهم؟ هل

رأيتم أحداً تم إطلاق سراحه بهذه الطريقة، على من يضحك هؤلاء الجلادون؟ إذن إلى أين؟ فأجاب بحسرةٍ وألم: هؤلاء سيتم إعدامهم. وهل صدام خائف لماذا لا يأخذهم إلى المحاكم كما أخذ من قبلهم الكثير ويحكمهم بالإعدام؟ فأجاب: صدام يريد من وراء هذا عدة أمور:

أولا: يريد إخفاء الجريمة فإذا سأله أحد (دولة أو منظمات دولية) عن معتقل أجاب أننا أطلقنا سراحه وهذا التعهد يشهد بذلك وهو بتوقيعه.

ثانياً: إن سلسلة المحاكم تمر عبر العديد من الموظفين ورجال الأمن، بين الجهة التي يسوق منها والمحكمة، والطب العدلي، والتسليم، ومنهم من يسرب المعلومات وبالتالي فإن عدد المعدومين سينتشر بوسائل الإعلام.

ثالثاً: إن إجراءات الإعدام عبر المحاكم تستغرق وقتاً وصدام يعتبر الظرف الحالي فرصة لتصفية الحركة الإسلامية وحزب الدعوة الإسلامية على وجه الخصوص، وهو مدعوم شرقاً وغرباً ليكون الند المستقبلي للجمهورية الإسلامية الإيرانية.

رابعاً: إن هؤلاء سوف يُخفي قبورهم ولا يسلمهم إلى أهلهم ليبقى الأهل في حالة انتظار ولكي لا يؤجج الرأي العام المحلي ضده، هذا ما أفاد به المرحوم الشهيد -وكان كما قال، فجميع من وقعوا على التعهدات سيقوا كوجبات

إلى مقابر جماعية وتم دفنهم أحياءً، ولم يستثني منهم إلا بقدر أصابع اليد ليستعملهم الجلادون كشهود على صحة ما يدعون- ثم صلّى ودعا الله وطلب إبراء ذمته وأوصانا بالدعاء له، وبعد ساعة تقريباً نادوا على وجبة جديدة كان هو وآخر في زنزانتنا من بينها، كان ذلك في أيلول من عام ١٩٨٠.

نقلاً عن شهود عيان فإن قضية وجبات المقابر الجماعية استمرت لمدة طويلة ففي عام ١٩٨٢كانت مثل هذه الوجبات يتم تسويقها إلى الموت المريع بهذه الطريقة مثلما أفاد أحد الناجين من تلك المقابر، إذ حكى لي السيد فاضل الخرسان يسكن حالياً في لندن قصة حقيقية عن المعتقل السيد عادل هاشم أبو شامة الحسيني، وكان معتقلاً في مديرية (أمن) الديوانية، إذ تم اقتياده وسبعة من المعتقلين الأخرين ليلاً إلى منطقة تبينت فيما بعد أنها في الصحراء المجاورة لناحية الشنافية التابعة لمحافظة الديوانية (١٦٠كم جنوب بغداد) واستطاع من وراء العصابة أن يرى شبح الجلادين وهم يحفرون عدة حفر غير نظامية، ثم وضعوا كل معتقل في حفرة وأطلقوا على كل واحد رصاصتين واحدة في الرأس وأخرى في الصدر ثم هالوا التراب علينا ولكن ليست الحفر عميقة، فهم يقومون بذلك وكأنهم عجِلون يخافون رصدهم من أحد العابرين، وسبحان الله كانت الرصاصتان اللتان أصابتاني ليستا مميتتين، لكني مع ذلك شعرت بألم حاد في

رأسي وفي جهة كتفي الأيسر ناهيك عن الرعب الذي أعيشه، وما إن غادروا المكان حتى عالجت قيدي وتحسست رأسي فوجدته ملطخاً بالدم، فعمدت إلى قميصي ومزقته لألف به رأسي لأقطع النزف وسرت قليلاً حتى وجدت بيتاً من الشعر فاستغثتهم وعرفت أنهم يعلمون بما يجري في هذه المنطقة وأن عدداً من الجثث تتكشف في العواصف فتنهشها عسلان الفلوات، لقد كانت الرصاصة الأولى قد اخترقت عظم الجمجمة شاطحةً باتجاه العظم ولم تذهب باتجاه الدماغ بل بقيت ملاصقة للعظم ولم يتم إخراجها حتى ساعة كتابة هذه السطور، أما الثانية فقد أصابت أسفل الترقوة ولم تصب عظماً ولم تخرج أيضاً إلا بعد مدة إذ خرجت وحدها بعد أن لفظها الجسم نفسه، استطاع السيد عادل هاشم أن ينجو من الموت بأعجوبة ليكون شاهداً على هذه الطريقة من التصفيات، التي جرت في معظم المديريات ومديرية (الأمن) العامة كذلك.

كثيرة هي الروايات عن طرق التعذيب وفنونه فكل من تجلس معه لديه قصة، وكل واحد منهم لديه اسم جلاد خاص بمحافظته، كان اسم الضابط مهدي الدليمي وإبراهيم اللامي في البصرة، كثير التردد على ألسنة كل المعتقلين من أهالي البصرة وهم الأكثرية والمفوض منذر من أهالي الديوانية الجلاد المعروف في مديرية النجف، ومعه الملازم

حيدر، وكان مدير المديرية أبو سعد المصلاوي، والرائد هارون من أهالي العمارة مدير مديرية ديالى ومعه الجلاد النقيب محمود، والنقيب جمال يحيى السعدون والملازم عبد اللطيف الراوي والمفوض عبد الرزاق البصري في مديرية الكوت، والملازم الأول فهمي الدليمي، والملازم عبد الله التكريتي، والملازم الأول قيس العاني في مديرية الناصرية، والنقيب عامر المحقق الجلاد في المديرية العامة حيث يقع الموقف الذي نحن فيه، فعن أحد الموقوفين قال: ذات ليلة جاء النقيب عامر ومعه عدد من الجلاوزة في الممر ومعهم أحد المعتقلين الصامدين في التحقيق، وأمر بفتح عيون جميع من في الممر من المعتقلين، ثم بدأوا بضرب هذا المعتقل بقضبان حديدية وخشبية، وإخوانه من المعتقلين ينظرون، حتى أردوه قتيلاً، ثم سحب معتقلاً ثانيا كان مربوطاً في الممر بأنابيب الماء المعدنية، وفعلوا به مثلما فعلوا بالأول، كل ذلك إرهاباً للباقين ولنيل اعترافاتهم بسرعة، بعد أن منح صدام المحققين نسبة أعلى في الوفيات أثناء التعذيب لنيل الاعترافات، فبدلاً من ٥% رفع النسبة إلى ١٥%، هذا ما كان يتداوله الموقوفون في الزنزانات، وما عبر عنه صدام علناً بعد مجزرة قاعة الخلد برفاقه من البعثيين واضح بهذا الشأن.

بعد وجبتين أو ثلاث وجبات كل واحدة منها تضم خمسين أو أكثر من المعتقلين بدأنا بالتوسل إلى الله أكثر وكنا

كمن ينتظر التنفيذ، ولكننا سلمنا أن هذا الطريق هو الأقصر للقاء الله والالتحاق بإخواننا.

التسفير إلى الموصل ثانيةً

بعد خمسة عشر يوماً قضيتها في هذه الزنزانة، وتحديداً في الصباح الباكر من يوم ١٩٨٠/٩/٢١ وعلى غير عادة شغاتي والوجبات الليلية، جاء اثنين من الجلادين ونادوا عليّ بالاسم، وفتحت الباب وأخرجوني، كُبلت يداي، عُصّبَت عيناي وساقني القوم إلى حيث لا أعلم، كل ظني وتصوري في بداية الأمر، أني سأُضَمُّ إلى آخرين لنكون وجبة جديدة للإعدام، انتظرت فلم يحصل ذلك، بل أسمع حولي أصوات الجلادين ينادي بعضهم الآخر أين وضعت السيارة؟ هل أكملت كتاب التسفير؟ سلموه إلى الضابط سيدي، بذات الألفاظ النابية والصفعات تم اقتيادي إلى السيارة.

العجلة هذه المرة من طراز مختلف، عرفت من سير الحديث أنها من نوع لاندكروزر، يستقلها ضابط في الصدر واثنان من الجلادين أحدهم عن يميني والآخر عن شمالي. وعرفت أيضاً من اللهجة ومن الإفصاح أحياناً بأننا متوجهون إلى الموصل، وليتني لم أعلم فلدي في الموصل أمور كثيرة. كم تمنيت لو أني كنت ضمن وجبات الليل الرهيبة مع أخوتي، وكم تمنيت لو أن روحي قد خرجت في تلك

الزنزانات، فما حفظته في كربلاء قد لا أحفظه في الموصل. كثيرة هي الخواطر التي مرت على مخيلتي وليس فيها ما يشير إلى طالعٍ حسن، فالتحقيق امتحان فيه يكرم المرء ويهان، التحقيق ألم وتعذيب، التحقيق أذىً جسدي لا يستطيع أحد أن يتناساه أو يخفف منه إلا بقوة روحية هائلة لم يمتلكها طيلة الشهرين والنصف التي قضيتها بين كربلاء والعامة في بغداد إلا نفر محدود لا يتعدون أصابع اليد الواحدة، أحدهم في البصرة سمعت باسمه كان يُسمى جليل الزبيدي رحمه الله، كان يتحدى الجلادين أن يُخرجوا منه كلمةً واحدة، وآخر ذلك الذي قتله النقيب عامر وجلاوزته في ممر العامة، فعدم احتمال التعذيب يجري وفق ما جرت عليه السنن الحياتية، فالنار تُحرق، ووخز الإبرة في الجسد يُؤلم، وذلك ما تتحسب له كل الأحزاب والحركات الثورية والسرية في كل العالم. ليس لي إلا الدعاء والانتظار، لعل هؤلاء يبيحون بشيء مما أود سماعه عن السبب الذي جاءوا بي من أجله فدعني أُنصتُ لهم.

كل الطريق بين بغداد والموصل والحديث بينهم يدور حول السيارات وموديلاتها وأيها أفضل وأسعارها، فشركة داتسن أنتجت داتسن صالون (أبو حديبة) موديل ١٩٧٩، سيارة جيدة، ولكنها لا تأتي بمواصفات شركة تويوتا بإنتاجها سيارة (كراون) أبو التاج موديل ١٩٧٩ أيضاً ولكنها أفخم

وأكبر، فيرد عليه صاحبه السيارات الحقيقية هي اللاند كروزر، دفع رباعي، عدد ركاب أكثر، مواصفات صحراوية، فيجيب الآخر أنها للكبار فقط، -ويعني الكبار هنا الأغنياء- لا يستطيع أحد شراءها، أما تراها حكومية فقط؟ البحبوحة الاقتصادية التي يعيشها العراقيون تلك المدة أثرت كثيراً على سلوكياتهم، وطبيعة عيشهم، أثرت على حجم تأييدهم للنظام أيضاً، فصدام نفسه يعاير العراقيين ويضرب لهم مثلاً بالفلاح قبل ١٩٦٨ كيف كانت فطور رجليه وتشققاتها، وكيف حاله اليوم، حتى قال ذات مرة، انه يتمنى لو يُبعث الموتى الذين عاصروا تلك المعاناة، ليشاهدوا إنجازات الحزب والثورة، وليتهم عادوا ليروا زنازين العامة وطرق التحقيق ومهازل محكمة الموت ليبصقوا على وجهه ثم يعودوا أدراجهم، هكذا نتمنى وهكذا يسوق النظام شرعيته ومشروعيته، لم يدر العراقيون ماذا يُخبئُ لهم صدام من قرارات سيُرجعهم بموجبها عقوداً من الزمان إلى الوراء، إذ عادةً ما يكون الرخاء عند القيادات الفارغة أو الطائشة، سبباً للشعور بالغرور ثم التورط في قرارات مُهلكة سواءً بشن الحروب، أو البطش بالمعارضين، أو كلاهما معاً، غالباً ما كنت اسمع من والدي رحمه الله أنه كان يقول (إذا المعيدي صار عنده فلوس لو يشتري بندقية ويكتل واحد، لو يتزوج مره ثانية على مرته)،

هذا (المعيدي) من الأفراد العاديين أما إذا كان من أصحاب القرار ويحتل أعلى الهرم في الدولة فقراره الحرب والبطش.

لا يريد جلاوزة التسفير أن يُشيروا أبداً إلى التهمة الموجهة لي لأقطع مئات الكيلومترات من بغداد إلى الموصل، وتلك حنكة وذكاء، فهم يحافظون على سرية التحقيق أولاً ولكي يمنعوا سجينهم من التفكير بالهرب أو الانتحار أو المشادة معهم، هذه الطريقة متبعة مع الكثير ممن يتم تسفيرهم. في كل الأحوال فإن دردشتهم تختصر عليّ بعض الطريق وإن كنت تواقاً لأن أسمع منهم ولو كلمة عن التهم أو القضايا التي تخصني.

وصلنا مقتربات الدائرة المعنية في الموصل، لم أعرف ذلك عن حدس أو رؤية علانية، ولكن من أوامرهم بأن أطرق برأسي مع انقلاب في لهجة الخطاب، إذ عاد الوحش إلى سجيته. وعن قدرة الجلادين على تمثيل أكثر من دور ينقل أحد السجناء، أن فاضل البراك مدير (الأمن) العام قام بزيارة إلى مديرية (الأمن) العامة ذات يوم، فطلب منه أحد المعتقلين أن يحتفظ ببدلته لأنها بدلة زواجه ويعتز بها، وبدلاً من أن يقول له لا يمكن، قال له نأخذها وسأعطيك بدلتي مكانها!!! طبعاً لم يفعل، والرجل أعدم فيما بعد، ولكن ليبدي للمعتقلين بأنه خلوق ومؤدب، فاضل البراك هذا

أعدمه صدام فيما بعد بذريعة تجسسه لصالح ألمانيا وقد خضع لتعذيب شديد قبل إعدامه.

استقبلني جلادو مديرية الموصل، وأيما استقبال، انه يختلف تماماً عن زيارتي الأولى في ١٩٨٠/٧/٨، وها أنذا أزورهم ثانيةً في ١٩٨٠/٩/٢١، يوم أمر صدام الجيش بالهجوم الواسع على الجمهورية الإسلامية الإيرانية. فاجتمع أكثر من سبب لمزيد من القمع والاضطهاد، تبدو المديرية هذه المرة وكأنها مجزرة، إذ تم تغيير المحقق المسؤول عن الشعبة الخاصة بنشاط الحركة الإسلامية والمنتمين إليها، وأعيد التحقيق مع كل من تم اعتقالهم سابقاً كالسيد عباس العذاري من أهالي النجف الأشرف، وغيرهم مستخدماً أشد أنواع التعذيب وأقساها كقلع الأظافر وتعليق الضحايا من الخلف لمدد تزيد على عشر ساعات، كل ذلك بذريعة الوصول إلى منفذي عملية اغتيال ضابط الأمن المجرم فؤاد هادي الدوش من أهالي النجف ويعمل كمحقق في مديرية (أمن) الموصل، وقد شاع عنه منذ بداية عام ١٩٨٠ وحشيته وتعذيبه المنتمين لحزب الدعوة الإسلامية في جامعة الموصل.

لقد تمت محاولة اغتيال الدوش ليلة ٤/٣٠ على ١٩٨٠/٥/١ وظل منفذو العملية غير معروفين رغم كثرة من اعتقل في هذه المديرية، حتى منتصف الشهر التاسع من نفس

العام وبعد أن تم تعيين المحقق الجديد تم إعادة التحقيق مع طالب في كلية الطب البيطري، فأدلى بمعلومات خطيرة عن عملية اغتيال الدوش أدت فيما أدت إلى اعتقال الدكتور عاصم الربيعي الذي سبق وان تكلمت عنه في فصل سابق، وتتابعت بعدها كافة الخيوط.

لم ينتظروا كثيرا، بل تم التحقيق معي مباشرةً بأسلوب وحشي، أعانني الله في المرحلة الأولى ولاكتمال كل الخيوط لدى المحقق، لم يشأ أن يطيل التحقيق في ظل ظروف الحرب القائمة فقابلني مع من ذكروا اسمي بالتفصيل الممل، فكان ما كان.

لم تختلف أساليب التعذيب بالنسبة لي في الموصل عما وجدته في ٧/٨ وما وجدته اليوم ٩/٢١، فهي التعليق من الخلف، ولكن لمدد أطول مما كانت في الزيارة الأولى.

الجديد هو قيام الحرب وتعميم الحزب، وكل الأجهزة القمعية في البلاد بأن مطلق المعارضة هم عملاء لإيران، الدولة الفتية التي شُنّت عليها الحرب بقسوة، وهي لم تنهِ ملفاتها الداخلية، لقد بدأ الجلادون يتوقون إلى تعذيبنا مرتين، الأولى لأننا نعارض النظام الديكتاتوري، والثانية لأننا سبب هذه الحرب كما غسلت أدمغتهم التوجيهات والتعليمات والتثقيف اليومي المستمر. في موقف ديالى مثلاً وصل الأمر إلى منع الصلاة داخل الموقف، في الموصل، بدأ

الجلادون يعلقون ضحاياهم إلى السقف ويذهبون عنهم، كان هناك مفوض يعلق الضحية، ثم يقول له: سأذهب للصلاة!!! بعض الضحايا ينادون على الجلاد أنزلني، سأدلي لك بما تريد، فيجيبه لا حاجة لنا باعترافك. لقد أصبحت سياسة النظام قائمة على الحقد والانتقام وليس على التحقيق من أجل اكتشاف خيوط التنظيم المناوئة، ظلت هذه السياسة في مديريات (الأمن) كلها، تتأثر بما هو على الجبهة، ففي كل هجوم تحقق فيه الجمهورية الإسلامية تقدماً، ينعكس ذلك سلباً على المعارضة الإسلامية من حيث عدد المعتقلين، وطرق التعذيب، وأعداد الذين يساقون إلى الإعدام عبر المحاكم والمقابر الجماعية، في عام ١٩٨٢ مثلاً كان المحقق علي الخيگاني في مديرية (أمن) الثورة مدينة الصدر اليوم، كان هو من يكتب الإفادات ويوقع عليها المعتقلون الضحايا جبراً ودون أن يقرأوها أو تُقرَأ عليهم ويسوقهم بموجبها إلى الإعدام.

في الأيام الأولى للحرب كنا نسمع المقاومات الأرضية وهي ترمي طيارات الجمهورية الإسلامية الإيرانية، ذات يوم جاء المفوض أحمد الذي أشرت إليه سابقاً وهو يصرخ بأعلى صوته اليوم أسرنا وزير النفط، أسرنا وزير النفط، سندخل طهران قريباً!!!

من الجلادين الذين كانوا شغوفين بتعذيب ضحاياهم المفوض أدوارد، ربما كان شرطياً في حينها، نادوا عليه عندما أرادوا أن يوقفوني في السرداب، وقالوا له أنزلهُ إلى الأسفل، فقادني بعنف، يميناً، شمالاً، استقامةً وهو ممسك بقفاي بقوة، من ياقة القميص وبيده اليمنى، حتى أوصلني إلى سُلّم، فترك ياقتي وقال لي انتبه، انتبه أمامك سُلّم نزول، وسار بمحاذاتي وفي كل درجة من درجات النزول يضرب بقوة على رقبتي من الخلف، بعد سنين، تذكرت ذلك مع صديق وأخ من أخوة المحنة اسمه عباس سعيد خلف من أهالي البصرة/ منطقة العالية، ومن حيث لا أشعر تذكرت تلك الأيام وتمثلت الحدث، وهو جالس بجانبي وأنا أخبره ما حصل، وأقول كان يضربني في كل درجة نزول هكذا، وأضرب صديقي دون قصد على قفاه، كما كان يصنع أدوارد، فالتفتَ إليَّ عباس مازحاً، أبو ماجد (كم باية بالدرج)؟، فانتبهت لما أصنع وأجبته: بصراحة لم استطع في حينها معرفة عدد الدرجات، ولكني أتوقعها لا تقل عن عشرة درجات، وضحكنا من سخرية القدر.

ارتفاع السرداب الذي أنزلت إليه لا يزيد عن٢.٢٥ متر. في السرداب هناك مساحة لوقوف الحرس، وأخرى فارغة وفي نهايته هناك صفين من الزنزانات الانفرادية بينهما ممر عرضه متر ونصف تقريباً، كل صف فيه أربعة زنزانات، لست

متأكداً إن كانت هناك صفوف أخرى أم لا، الزنزانة التي أودعت فيها عرضها متر وبابها ٨٠سم وطولها متران وارتفاعها متران، وتركت مسافة ربع متر أو أكثر من الارتفاع، فصار الحديث بين الزنزانات مسموع، وكالعادة فالخروج لقضاء الحاجة ثلاثة مرات باليوم، لا توجد نافذة في الباب وإنما يفتح الباب لنعطى الأكل بمنةٍ وعصبية، لدي إناء بلاستيكي مدور ذو فتحة كبيرة، وقاعدة صغيرة، يتسع في حجمه إلى لتر ونصف من الماء، لونه أخضر داكن، كما رأيته من بصيص الضوء القادم من الشبابيك الصغيرة على جوانب السرداب، وما يتهرب من الضوء من غرفة الحراس، فالزنزانة ليس فيها إضاءة ولا أي تأسيس كهربائي، ذات جدر إسمنتية داكنة، لا تبدو أن هذه الزنازين ضمن التصميم الأساس للبناية، وذلك بيّن من طريقة البناء والأبواب ونهايات الجدران، فالبناية جديدة كما اسلفنا في وصف زيارتنا الأولى، وما أشاهده لا يتفق وجودة البناء، يبدو أن هذه الزنازين أضيفت لاحقاً، ربما للحاجة المتأخرة إليها، بعد مجيء صدام إلى الحكم في ١٩٧٩/٧/١٧ أو إنهم تعمدوا تأخير بناءها بكادر خاص، تستراً وإخفاءً على عمال البناء والمهندسين والمقاولين، الذين قاموا ببناء المديرية كاملةً، لا يهم ولكن الظلام الدامس هذا وسوء التغذية، والرطوبة، وعدم وجود منظفات فاقم من مشكلة القمل، إلى حد مؤذي

ومزعج جداً، لقد كنت ذا شعر كثيف، رغم أن خالي رحمه الله كان يعاني من الصلع في مقدمة رأسه، ذلك ما أتذكره حين وعيت عليه وهو كبير، ليته أورثني هذه الصفة مبكراً وليس متأخراً كما أنا عليه اليوم، المشكلة ليس في شعر الرأس وحده وإنما في الأُبُط، والمناطق الحساسة وباطن ما ارتدي من ملابس تلامس جلدي، ليس لي من طريقة للتخلص من جزء منه سوى أن أحرك كلا يديّ بقوة على رأسي صعوداً ونزولاً واضع أمامي الإناء البلاستيكي العتيد لأسمع تساقط القمل كتساقط حبات المطر الخفيفة على ذات الإناء، أعد ذلك نجاحاً، لأنني تخلصت من أعداد كبيرة تنهش فروة رأسي، هذا طبعاً قبل خروجنا إلى المراحيض للتخلص من الصيد هناك وغسل الإناء.

بعد بضعة أيام سمعت صوت داعٍ يدعو ويبكي في الدعاء في الزنزانة المقابلة، ثم ناداني من وراء تلك الجدر، معرفاً بنفسه، إنه أبو الهيل من أبناء ناحية الفهود في الناصرية، يعمل معلم، ذات يوم سمعته يبكي خارج أوقات الدعاء، سألته ما بك أستاذ، قال لقد هاج بي الحنين إلى بناتي، وبدأت أتخيل عوزهن وحاجتهن من بعدي وانشد قصيدة بالشعر الشعبي معنى مستهلها هو (عندي ستة بنات وهن صغار في العمر، أوصيكم بهن خيرا)، ما أثار تساؤلي مع نفسي كثيراً هو صمود هذا البطل وما سمعته عنه من قصص

رواها الأخ سامي الساعدي في كتابه (ليالي أبي غريب) تعبر عن شجاعته وبطولته وصموده في تحقيق (الأمن) العامة، وطريقة إعدامه بـ(الدريل) الكهربائي، أتساءل هل كان بكاؤه في زنزانته الانفرادية وذكره لبناته هو نوع من التمويه كونه مطلوب في العامة وليس في الموصل، أم إنه كان يمارس حقه الطبيعي في إبداء عواطفه تجاه عائلته، فالبكاء ليس علامة من علامات الضعف؛ بل هو دليل صفاء النفس ورقة القلب وخلوه من درن الدنيا وقساوة الذنوب.

بعد أيام جاءوا بمعتقل في الساعة التاسعة تقريباً يئن من شدة التعذيب عرفت أنه نائب ضابط، وشيئاً فشيئاً زاد أنينه، ثم بدأ يلهج حرارة، حرارة، أريد ماءً أريد ماءً، واستمر على هذا الحال حتى الساعة الثانية عشر ليلاً تقريباً، ثم انقطع صوته، وفي الصباح عندما جاء الحراس لتوزيع وجبة الفطور، اكتشفوا انه استشهد رحمة الله عليه، فتنادوا بينهم باهتمام واخبروا رؤسائهم، وأحضروا بطانية ووضعوه فيها وأخرجوه.

بعد أيام وفي الساعة الثامنة مساءً بدأت الهمهمات والحسيس في الزنزانات المجاورة والمقابلة، يبدو أن هناك مجموعة على علم ببعضها البعض وقد نزلوا سويةً إلى هذه الصناديق المقفلة، فبدأوا يتذاكرون ويستأنسون ببعضهم البعض، في اليوم التالي، بادر أحدهم وكان ذا صوت جميل

فقرأ قصيدة على الطريقة الحسينية تتحدث عن الموت والقبر والحساب ومنكر ونكير يحفظها الكثير من العراقيين مطلعها (اشلون بية لو ثگل وزن حسابي... ونمله منّ المعاصي كتابي) ومع إيقاعها كان هناك لطم على الصدور، وشجىً في النفوس، ودمع تجود به العيون التي فارقت الكثير ممن تحب، شجىً يجمع بين شفافية الروح، والألم الذي تختزنه أجسادنا من ويل ما لاقينا ونلاقي من تعذيب، إنه الأسى المخزون والهم المكبوت في أعماقنا، وليس هناك أفضل من شعر الرثاء الحسيني من وسيلة لبثه ونفثه في فضاء هذه الزنزانات؛ فسمع ذلك الحرس فجاءوا يزمجرون ويصرخون: الاحتفالات والتصفيق هنا ممنوع ظنا منهم أننا نصفق على الإيقاع، يا لتفاهتهم وسخافتهم.

أول يوم من دخول هذه المجموعة، سمعت بكاء أحدهم، فسأله أخر ما يبكيك يا أخي؟ فقال له: دكتور هاشم؛ أنا منذ تزوجت وأنجبت أولاداً وبنات وأولادي الأن في الجامعة لكن إلى هذا اليوم لم يرني أي من أولادي ولا حتى زوجتي واقفاً في غرفة أو باحة أو في حديقة الدار وأنا ارتدي (الفانيلة والشورت)، واليوم هؤلاء الأوغاد يُعرّوني، ليتني مُتُّ قبل هذا ولا أراه. ويجهش بالبكاء، إنه ألم الروح لا ألم الجسد، إنه الحياء الذي تربى عليه هؤلاء الأخيار، الألم إلى حد البكاء استحياءً عفة ما بعدها عفة. يهوّنُ عليه الدكتور هاشم

ويذكره بسلب رداء الحسين عليه السلام يوم عاشوراء، وأن الجلادين عديمي الحياء وليسوا أسوياء فلا تبتئس واحسب ذلك عند الله.

صار هناك نوع من الثقة، بيننا عبر الجُدر فصاروا يتحدثون عن زملاء لهم أيام الستينات في الكرادة، عرفت أنهم من العقائديين، وتذكروا فيما تذكروا الشيخ سامي البدري، وعرفت أن دكتور هاشم الذي أعدم فيما بعد هو شقيق الدكتور عاصم رشيد جاسم الربيعي، ابن قضيتي، وعرفت أن هناك شخصاً في احدى الزنزانات اسمه علاء سعيد هادي، أو علاء هادي سعيد، من أهالي بغداد، قد أطلق سراحه فيما بعد وبعد ثمان سنين جاءني إلى أبي غريب يسأل عني لأننا لم نر أحدنا الآخر وإنما عبر الصوت فقط، وما ذلك إلا فيض من وفاء اتسم به الرجل. ذات ليلة نادوا على اسمي، اقتادوني إلى غرفة فتحوا عيني واذا أنا أمام مدير (الأمن) وبجواري يقف الدكتور عاصم، وقبالتنا وبزاوية ٤٥ درجة وعلى مقربة من مكتب المدير يقف المحقق، الذي قيل أن اسمه حاكم وهو من أهالي الكوفة، كان المدير ضخم الجثة، بعيد ما بين المنكبين، طويل القامة، يرتدي الزي المعروف آنذاك لرفاق الحزب ورجال الأمن ويُطلق عليه بـ(السفاري)، وهو عبارة عن سروال (بنطلون) وقميص من نفس اللون والقماش ذو ياقة تشبه ياقة الـ(الكوت) السترة

وهو أما بنصف كم أو بكم كامل، كان ما يرتديه بكم كامل، نظر إلينا بنظرة غضب، ثم قال للدكتور عاصم حرك يديك، فلم يستطعْ إلا حركة بسيطة لإصبع البنصر من يده اليسرى، فالتفت إلى المحقق فقال لا أريد هذه الحركة أيضاً، ثم قال للمحقق خذهم، فأسرع الحرس إلينا وجيء بي إلى الزنزانة وأعادوه إلى حيث هو.

اللقاء بالدكتور عاصم

في أواسط شهر تشرين الثاني من عام ١٩٨٠، أي بعد شهرين تقريباً من دخولي مديرية الموصل، أدخلوا عليَّ الدكتور عاصم رشيد، لقد كان مجيئه بقدر ما هو مفاجأة فهو رحمة انتظرتها من الله، فالوحدة لا تتفق وطبيعة خلق الله للبشر، صحيح أننا نأنس بأصوات من في الزنازين الأخرى، لكن ذلك كله مخلوط بالشك والحذر، فلا حديث خاص ولا معرفة بما يدور حولنا، فكل منا يحسب ألف حساب لكل كلمة يقولها أو حديث يتفوه به، خاصةً من عاش تجربة المديرية العامة مثلي، لست تواقاً لمعرفة ما جرى بالتفاصيل من الدكتور عاصم، لأني أعرف طاقات بني البشر وقدراتهم، وظروف كل معتقل، لا أريد أن أتقصى كيف بدأت القصة وكيف كشفت الخيوط، لأني أعرف مقدار الألم والجروح التي أنكاها، ولا داعي لأن يشعر أي مؤمن بالفخر لأنه لم

يتسبب في اعتقال أحد أو إفشاء سر يؤدي إلى ثغرة كبيرة في اعترافات أحد، فنحن هنا في مجزرة قصابة لا تحقيق مهني، نحن هنا تحت وطأة تعذيب فوق ما يتحمله البشر. ثم أن هناك ظروفاً خاصة بكل قضية، وطرق تحقيق مختلفة، فمن يصمد في هذه قد لا يستطيع أن يصمد في تلك، فمما ذكره لي الدكتور عاصم عن صمود السيد عباس العذاري الذي ظل التحقيق معه مستمراً طيلة أشهر أنه كان في كل مرة يحاول فيها حفظ خط من الخطوط التنظيمية وذلك عبر اعتراف معين، يكتشف المحققون أنه أخفى عليهم معلومات مهمة بخط أخر فيعود لنفي الاعترافات السابقة، مما يعرض المعتقلين لتحقيق جديد، لقد استخدموا معه أشد أنواع التعذيب. للدكتور عاصم منزلة خاصة في نفسي، فرحت كثيراً بقدومه، لقد كان يرتدي سروالا وقميصاً بيتياً ذا لون جوزي أعطي له في ١٩٨٠/٩/٢٨ وأنا أُعطِيتُ سروالاً وقميصاً ذي لونٍ أزرق فاتح صيفي في ذات اليوم.

كان عاصم رحمه الله شبه مشلول اليدين، أو هما مشلولتان من حيث الحركة ولكن الأعصاب الحسية فيهما تنقل الإيعاز، فإذا ما وخز أحس وسحب جسمه بعيداً، وعلى وجهه آثار لكمات، تحدث لي بمرارة عن ساعات التعذيب الطويلة، حتى شلت يداه، عن الحقد الذي يكنه له ضابط التحقيق والمدير، كان يعاني من مشكلة النظافة بعد قضاء

حاجته، طلبت من الحرس الخروج معه فسمحوا بذلك فكان ذلك بمثابة إطلاق سراحه، لحل هذه المعضلة، عبر عن عظيم شكره وامتنانه، مرّت عليه أزمة صحية فوق ما هو فيه من حال إذ أُصيب بالإسهال الشديد، ربما كان الدزنتري، في كل ذلك كان يلهج بذكر الله تعالى ويسبحه، كنت أقوم بتيميمه للصلاة، أعلمني أن الدكتور هاشم هو شقيقه وأن لديه أخ أخر اسمه المهندس قاسم كان يظن انه معتقل أيضاً، تبين فيما بعد أنه استطاع الإفلات من قبضة الجلادين. لم يعلم بمصير الكثير من إخواننا رغم علمه باعتقالهم كهمام عبد الصاحب/ كلية الطب المرحلة الرابعة، ومحمود خليفة/ كلية الطب المرحلة الخامسة، وجواد كاظم من الكوفة كلية العلوم على ما أظن، وضياء عبد الصاحب/ كلية الهندسة المرحلة الثانية، ومحمد إلياهو/كلية العلوم المرحلة الرابعة، وغيرهم ممن لا تحضرني أسماؤهم وتبين فيما بعد أن جميع ما ذكرت قد تم إعدامهم إما عبر محكمة الثورة، أو عبر المقابر الجماعية.

التسفير إلى بغداد مجدداً

فجر يوم الاثنين ١/١٢/١٩٨٠ نادى عليّ الحرس، فتحت الزنزانة، لا جديد بعصابة العينين والتكبيل إلى الوراء، أُخرجت من السرداب إلى الطابق الأرضي تلقفني إثنان من

الجلادين، لم أميّز الطريق إلا بعد أن لفحتني نسمة هواء باردة جداً وجافة أدركت أنني خارج بناية الدائرة تنادوا مع بعضهم لإحضار سيارة، بصراحة لم أعد وجلاً من الوجهة هذه المرة، أولاً لاعتياد التنقل بين المديريات وثانياً لأن القضية الأهم قد دُونت، صحيح أنه مازال بصدري أسماء وأحداث كبيرة، ولكن يمكن التحايل أو نفيها نفياً مطلقاً.

جاءت سيارة بيك آب نوع شوفر ليت حديثة، سُقّفَ بدنها الخلفي بقماش مطري موضوع على هيكل حديدي، في المكان المخصص للحمولة تم وضع مصطبتين متقابلتين من الحديد الذي يعلوه طبقة إسفنجية بسيطة مغلفة بغلاف جلدي، جلست على أحدهما في حين جلس الحارسان قبالتي، أما الضابط فقد جلس بجوار السائق وتحركت العجلة، لا أدري إلى أين. كل ذلك والشمس لم تخرج بعد ودرجة الحرارة تقارب الصفر وسرعة السيارة تتجاوز المائة كيلو متر في الساعة، وغطاء السيارة غير محكم، وأنا لا ارتدي سوى ذاك القميص الأخضر وسرواله الصيفيَيْن من غير ملابس داخلية، كلما حاولت أن أحافظ على أسناني من الاصطكاك وجسمي من الرجفان، لم أستطع، ومحاولتي ليس للتحدي، ولا لإبداء البطولة، وإنما دفعاً وتفادياً لكلمات نابية متوقعة من هذين الحارسيْن، فالكلام عادةً ما يأتي بعد حدث، لا أتوقع منهما غير ذلك.

- باردة ها؟ سؤال من يرى الإجابة في عينيه ولكنه مفتاح الحديث.

- باردة، نعم ولكن أتحمل إذا كان المشوار قريب.

- أنت لا تخف نحن سنأخذك إلى المحكمة، ومن هناك سيتم إطلاق سراحك، يا الهي هذه أول مرة يفصح الجلادون عن نيتهم، الطريق إلى المحكمة يعني بضع ساعات، ولكن لماذا يفصحون بهذه الطريقة. ومتى صدق منتسبو هذا الجهاز بشيء حتى يصدقوا اليوم.

كان معتقلو البصرة يحدثوننا عن التسفير من البصرة أيام الصيف إلى مديرية (الأمن) العامة في بغداد، وبالسيارات المغلقة تماماً مكتوب عليها (آيس كريم)، في أحيان كثيرة لا يقفون للاستراحة في الطريق الذي يبعد ٥٠٠ كيلومتر، مما يؤدي إلى فقدان الوعي من البعض، وحتى الوفاة أحياناً، كانوا يقولون لو ان تسفيرنا تم في الشتاء لحمدنا الله وأثنينا عليه، فما بالك أيتها النفس احمدي الله وقري عيناً، أدرك الحارسان أنني أجول بخواطري يميناً وشمالاً، ولا أدري ربما تأثروا بهذا البرد الذي جعلني ارتعش (كرعشةِ عصفور بلّله القطرُ).

- بعد قليل سترتفع الشمس ويصبح الجو ألطف وأدفأ مما هو عليه الآن.

- شكراً، شكراً، أكيد أكيد، الحمد لله، الحمد لله، هكذا قلت لا هي كلمات ولا هي تمتمات، مخلوطة باصطكاك الأسنان، من شدة البرد التي لم يتماسك جسدي إزاءها من جانب، ومن الفرح بهذا التعامل المثالي من جانب آخر.

لو كانت يداي مكبلتين إلى الإمام ربما لحاولت وضعهما بين رجلي، وضم عضديَّ إلى صدري، فيقل ارتعاش جسمي، فجسدي بهذا الحال مفتوح لتيارات الهواء الثلجية، كل ذلك مجرد نظرية ليست يقينية النتائج، لا تستدعي أن أطلب ذلك منهم، فقد يظنوا أني أتحايل عليهم للهروب أو ألقاء نفسي من السيارة في أثناء أي استدارة مناسبة أو تخفيف للسرعة لأي سبب، فذلك ما حدثني به الدكتور عاصم عن زميلنا في جامعة الموصل الأخ جواد من أهالي الكوفة الذي سُفِّر إلى النجف ومنها أعادوه إلى الموصل وما بين النجف وبغداد استطاع الهرب من السيارة، ولكن سرعان ما تم ألقاء القبض عليه وإعادته إلى الموصل، وأكثر من ذلك فإن السؤال ذل ولو أين الطريق كما قيل.

من حيث لا أشعر ورغم هذا البرد سرحت بمخيلتي بعيداً، كم تغنينا بالموت والشهادة في سبيل ما نؤمن به، كم تغنينا بحب الله والعلاقة معه أولستُ من كنت أردد:

فليتك تحلو والحياة مريرةٌ   وليتك ترضى والأنام غضابُ

وليت الذي بيني وبينك عامر   وبيني وبين العالمين خرابُ

وتوالت الخواطر دون استئذان، ولا استدعاء، إلى كربلاء، حيث باب قبلة الحسين عليه السلام، وحيث يمسك بيدي اليمنى المربي الفاضل حميد مهدي سلمان المحنة، ووجهنا نحو الحسين عليه السلام، نسير بخطوات متأنية، خطىً وئيدة، ثابتة، مستقرة، وهو يشرح لي معنى قوله تعالى: (وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ). فنحن نريد أن نحقق أهدافنا بطرق سهلة المنال، خفيفة المؤونة، مريحة ومربحة في آن، نحن نريد بطبعنا وميولنا ذلك، والله يريد غير ذلك، فإحقاق الحق يحتاج إلى مجاهدة وصبر وتحمل، بل يحتاج إلى دماءٍ تُراق، حينها تذكرت أحد موضوعي الإنشاء في السادس العلمي (١٩٧٨-١٩٧٩) لقد كان الموضوع قول الشاعر:

وللحرية الحمراء بابٌ   بكل يدٍ مضرجةٍ يُدَقُّ

أكرم وأنعم بما اخترت، لم أكن مجبراً ولا جاهلاً، إذ رأيت قبلي العديد ممن أعرفهم وقد تم اعتقالهم، فلم أتراجع ولم أتردد، بهذه الخواطر أدفع سيل خواطر أخرى، تُرى هل نستطيع أن نغير النظام بمعارضتنا هذه، هل سيثور الشعب بشكل جماعي، هل الحرب بداية النهاية للنظام، فلن تتوقف

الحرب إلا بسقوط النظام، لا يبدو الأمر بهذه السهولة، فالدولة قوية، وجهاز الأمن متماسك، أتذكر يوم كنت مع المحقق، بلحظات اتصل على مديرية دهوك لإلقاء القبض على أحد المجاهدين المعارضين للنظام، اتصل وأنا أسمع، وبعد أن أنهى مكالمته، قال أين تفرون، نحن بدقائق نمسك بكم من الفاو إلى زاخو، مثل هذا قال المجرم الجلاد النقيب عامر لأحد الدعاة وهو يحاول أن ينال من ثقته ويقينه، بالتنظيم قال له: كل تنظيمكم هذا من الشمال إلى الجنوب أمسكنا بكل خيوطه بثلاثين ضابطاً من جهاز (الأمن) ليس أكثر، أنتم من تريدون تغيير النظام واستلام الحكم، أنتم أم غيركم؟ كل ذلك لم يزعزع يقيني، نعم أنها خواطر لم أدعُها، ولم تستأذنّي، كما أسلفت، لكن الغلبة دوماً لليقين بأن الله معي، ومن كان مع الله كان الله معه، وأقصى ما نصل إليه الشهادة، وتلك أفضل خاتمة للصالحين.

قطع هذه الخواطر وغيرها ارتفاع حدة الجدل بين الحارسين، حول الحرب، والمدن التي احتلها العراق، مهران، وسربيل زهاب، ودهلران، والمحمرة، وأي القواطع أهم، وكم عدد الأسرى من الإيرانيين في كل معركة، وأنّ إيران سوف توافق على وقف إطلاق النار بالشروط العراقية، وزميله يقول، ليس هناك من بوادر لوقف الحرب، فايران تريد خروج قواتنا من أراضيها، وهذا يقول، ليس ذلك بيدهم،

القوي يفرض شروطه على الضعيف، وهكذا هي الحياة، القانون مع القوي، من يضع الشروط القوي، من يكسب الحرب القوي، الدنيا كلها عبارة عن غابة يأكل القوي فيها الضعيف، ونحن الأقوياء، رغم اختلاف وجهتي النظر بين الحارسين، لكن لفت انتباهي أمران، الأول: أنهما يتحدثان بصوت هادئ كما لو أن أحداً يحذران منه وهو يراقبهما.

والثاني: هو أن الطرف الآخر يدفع بالنقاش دوماً نحو المطابقة، وتأييد وجهة النظر الأخرى، فهما ليسا على طرفي خلاف، كما يجري في أي جدال، التفت أحدهم إليّ فشعر بأني بدأت أتعب من طول المسافة وشدة البرد، فقال: تحمَّلْ سوف نصل بعد قليل. ما شاء الله انقلب الجلادون اليوم إلى مِلاك، تلك هي أمزجة البشر، بل تلك هي الأحداث يختلط عسرها بيسرها وكذا قال ربنا: (فإن مع العسر يسراً إنّ مع العسر يسراً)، هكذا قلت في نفسي.

محكمة الثورة

لم يكن يدور في خلدي أن محكمةً يُساق إليها المئات من أخيار العراق وثائريه، بهذه البساطة من حيث حجم البناء، وسعة المكان ونظافته، وطريقة الدخول والإدارة البيروقراطية لهذه المؤسسة التي تضطلع بأقسى دور وأطغى ممارسة عبر إعدام المئات من خيرة شباب العراق ومثقفيه.

كنت أظن أني سأمرّ بممرات ودهاليز، باستعلامات وتدوين أسماء، بأماكن استراحة وأخرى للانتظار، بكادر ضخم ولو من الموظفين الأمنيين حصراً، التي تعج بهم المديريات في كل أنحاء العراق، فذلك ما تستدعيه جسامة وفداحة الأمر الذي تقوم به المحكمة، على الأقل لإعطاء انطباع (للمتهمين) أنهم يُحاكمون من جهة قضائية مستقلة لها باع في القوانين، ومكانة كبيرة ضمن مؤسسات الدولة، فأُبهة المكان تحكي في أحيان كثيرة عن أبهة المكين، أو شأنه.

قرابة الساعة العاشرة صباح يوم الاثنين ١٩٨٠/١٢/١ دخلنا صالة انتظار لا تتعدى أبعادها ألـ ٨*١٢ متر، بلاطها من الموزائيك الأبيض، قياس ٣٠*٣٠سم مطعم بالحصى الأسود الناعم، لها باب جانبي دخلنا منه وباب أخر يؤدي إلى غرفة لا أعلم ماذا بداخلها حتى الأن تبين فيما بعد أنها القاعة التي يُحاكم بها المتهمون، يوجد في القاعة مصاطب خشبية متعددة، ويوجد داخل القاعة مرحاض شرقي، في الجهة المقابلة لجهة باب غرفة المحاكمة، كان طلبي الأول من الحرس المرافق هو الدخول إلى المرحاض، إذ لم يأمر الضابط المكلف بتسفيري من الموصل إلى هذا المكان بالوقوف في الطريق الذي يبلغ ٤٠٠كم!!! وبهذا الطقس البارد، كنتُ أشعر بألم شديد في مثانتي.

ما تميزت به المحكمة هو رفع عصابة العين أثناء الدخول إلى قاعة الانتظار، وحولوا القيد من الخلف إلى الإمام، لم أجد أعداداً كبيرة في ذلك اليوم في القاعة، ربما لا يزيد عددهم على خمسة عشر معتقلاً.

بعد ساعة من دخولنا القاعة نودي على اسمي فأنا الوحيد في هذه القضية، دخلت إلى غرفة المحاكمة متهيِّئاً للدفاع عن نفسي بقدر ما أستطيع، دخلت كث الشعر فمنذ شهرين تقريباً وأنا لم أحلق لحيتي ولا رأسي، ولم أغتسل كذلك، لم يتسنَّ لي رؤية منظري في مرآة، ولكني أكاد أتخيله، فشحوب وجهي قد يُثير الشفقة لمن كان في قلبه الشفقة، ولكن مظهري بشكل عام، ليس محلاً للتعاطف أو الجذب. أول سؤال وُجّهَ إليّ بالمحكمة هو: هل لديك محامي؟

رغم إني لست ضليعاً بالمحاكم ولم أدخلها في حياتي إلا مرة واحدة قبل هذه المرة في قضية مشاجرة اتهمت فيها كيداً، لكن هذا السؤال يوحي بأن هناك بروتوكولاً محترماً، بصراحة تفاءلت فيما سيقوله المحامي، مهما كان النظام فاسداً وطاغياً وشمولياً فقد يبدو في إحدى زواياه بصيص ضوء أو على الأقل مسرحية متكاملة الأدوار.

أجبتُ لا، حينها نادى منادٍ بأعلى صوته في هذه القاعة المُحكَمة الإغلاق: المحامي محمد حسن حديد، فدخل من

باب على جهتي اليسرى حيث أقف أنا في قفص الاتهام الخشبي، تفصل بيني وبين الطاولة التي يتوسطها رئيس المحكمة بالزي المدني، رجل تجاوز الخمسين من العمر، ذو رأسٍ كبير، ووجه أبيض محمر، يميل شعره إلى الشقرة، قيل لي فيما بعد إنه محمد الشماع، وعلى يمينه وشماله، عسكريين اثنين، أتذكر رتبة أحدهما مقدم، وعلى يمين طاولتهم حيث يقابلوننا بوجوههم يقف المدعي العام.

لا أتذكر هل أومأ رئيس المحكمة أو تلفظ بشيء ما ليبدأ المدعي العام بقراءة التهمة وطلب حكمي بالإعدام جراء انتمائي لحزب الدعوة الإسلامية وتحريضي ضد النظام كل ذلك بدقيقة أو دقيقتين.

ثم أشار رئيس المحكمة على المحامي، فكانت الطامة الكبرى، وذلك ما سمعته من جميع من سيقوا إلى هذه المحكمة الذين قابلتهم في السجن وكأنها جملة روتينية واحدة: لو بحثت في جميع شرائع الأرض والسماء على أن أجد ما أدافع به عن هذا المتهم لم أجد، وعليه فأنا أطالب المحكمة الموقرة بإنزال أقسى العقوبات بحقه.

همس العسكري الذي في اليمين بأذن رئيس المحكمة بشيء لم اسمعهُ ثم همس رئيس المحكمة بأذن العسكري الذي في شماله ولم أسمع همسه كذلك، ثم وقف الجميع لتلاوة الحكم، وهو المؤبد، فاطمأن قلبي وحمدت الله في

نفسي وتصورت أن هذا هو نهاية المشوار وبعده ليس من هم وغم سوى الانتظار.

الفصل الثالث

السفر إلى ما وراء الشمس

مراسيم الاستقبال

ما شاهدته في غرفة المحاكمة ثلاثة أبواب، باب دخلت منه أنا حيث يؤدي إلى القاعة، وباب دخل منه المحامي، وباب يقع خلفي حيث أنا في قفص الاتهام قبالة هيئة المحكمة، تبين لي فيما بعد أن مخصص لمن يُحكَم بالإعدام.

عدت إلى القاعة فأسرع إليّ الحرس كما لو أنهم غير أولئك الذين اصطحبوني من الموصل إلى المحكمة، هم بأجسادهم هم، ولكنهم بسلوكهم مختلفون تماماً، أسرعوا إلى تكبيلي من الخلف وعصابة عيني، وبدأوا بالكلمات النابية، والإمساك بي بقوة، عن اليمين وعن الشمال، وكأنهم أناسٌ آخرون، وبسرعة اقتادوني إلى ذات السيارة، وهم لا يغفلون عني لحظة، محكمتي لم تطُلْ أكثر من خمس دقائق ولكن إجراءات استلام كتاب حكمي الذي تستوجبه إجراءات الإيداع في سجن أبو غريب انتظرناه نصف ساعة، ثم انطلقوا

بي مسرعين، كمن يريد أن ينتهي من واجب ثقيل، وهم معذورون في ذلك، فهكذا واجبات ثقيلة من حيث المسؤولية وثقيلة من حيث الهموم، فهم شاءوا أو أبوا يتعاملون مع بشر، مهما قسوا عليه أو اختلفوا معه، فهو في وضع وحال المظلوم ذلك ما يدعو إلى الأسى.

يقيناً أن لهؤلاء عوائل، أمهات، أو زوجات، أو أخوات، أو آباء، أو أولاد، وسيعودون إليهم، تُرى بماذا يحدثونهم، هل يشرحون لهم واجباتهم، وكيف سيكون رد فعل عوائلهم معهم؟ لا أشك أنهم سيتهربون من الإجابة عن السؤال: أين قضيتم وقتكم اليوم؟ استبعد أن تخلو عائلة كاملة من أحدهم أو أحدهن مرهف الحس، نقي الضمير، يحمل من صفات الإنسان أكثر مما يحمل من صفات الكواسر المتوحشة. لذا تراهم يستعجلون في أداء المهمة فهي ضاغطة على نفوسهم.

هذا هو التسفير الأول الذي أحسست فيه بكثرة تعرجات الطريق، والوقوف عدة مرات، لكي نصل إلى مبتغانا، وُضعت في مكان ما بعيداً عن إجراءات إدارية قام بها المكلفون الذين جاءوا بي إلى المكان، وبعد إتمامها فتحوا قيدي ولم يفتحوا عصابة عيني، وقالوا لجلادين جدد، هذا الرجل مؤدب جداً نرجو منكم مداراته واحترامه، وانصرفوا. وتبين فيما بعد أن هذه شفرة تعني العكس تماماً وهي أشبه بالروتين اليومي. مشكلة ذوي الفطرة السليمة والتربية الصالحة أنهم يُصَدّقون

ما يسمعون، وهل أنا إلا إنسان مؤدب ومحترم، ثم لماذا يقولون هذا، هل يخافون مني وانا الأسير بينهم حيث لا ناصر ولا معين، فما هي دواعي أن يستخدم هؤلاء أضداد المعاني لإيصال مثل هذه الرسالة، اترك ذلك لعلماء الاجتماع النفسي لتحليله.

استلمني جلادان، فتحا عصابة عيني، واقتادوني إلى ممر عريض لم آلفه في المديريات التي زرتها، قد يصل عرضه إلى أربعة أمتار وطويل جداً، ربما بطول مائة متر يدخل إليه الضوء بغزارة في بعض الأماكن، ولكثرة ما عُصبت عيناي بدأتا تهملان، إذ لم تتعودا هذه المساحة من الرؤية ولا هذا القدر من الضوء، ثم أداراني الجلاديْن لأكون قبالة الجدار، وبدءا مشوارهما معي بالضرب المبرح أحدهما بسوط في يده والثاني بيده فقط وكيفما اتفق، أنها مراسيم الاستقبال لكل المحكومين، وجرعة إيذاء نفسي وبدني تتطلبها المرحلة الجديدة، والتزام بوصية الجلاد الأكبر صدام حسين الذي خرج ذات مرة وفي العلن ليوصي باستخدام القاصر ضد بعض معادي الحزب والثورة ويعني بالقاصر هذا النوع من التعذيب على ما يبدو.

بعد أن تعب الجلادان من مهمتهما أمراني بالتحرك في وسط الممر هرولةً حتى أوقفاني أمام باب حديدية عرضها متر ونصف تقريباً، وارتفاعها متران، وضعت لوحة صغيرة في

أعلى الباب مكتوب عليها (بطانيات)، ثم جلجلة مفاتيح لا تبدو أنها مفاتيح عادية من حيث الشكل والثقل والصوت الذي ينبعث منها، وفتحت الباب، واذا بي أمام منظر مهيب، إذ ارتفاع البناء هنا لا يتناسب وارتفاع الممر الذي كنت أسير فيه فبينما كان ذاك لا يتعدى الـ ٢.٥ متر واذا بي أجد الارتفاع هنا قرابة ٦ أمتار، بناء من طابقين، طابق أرضي، ويليه طابق، وبطول حوالي ٥٠ متراً، وعرض حوالي ١٥ متراً وأرضية إسمنتية صقيلة تميل إلى السواد، حيث ينتصب في نهايتة المقابلة للباب الرئيس منضدة وعليها تلفزيون قياس ١٢بوصة ملون، وفي نهاية الممر أيضاً وعلى الجهة اليمنى، يوجد باب حديدي بعرض متر تقريباً يؤدي إلى فناء ساحة مجاورة للقسم امتلأت جهتها الملاصقة للقسم بأكوام النفايات التي يرميها السجناء من النوافذ الكونكريتية. في الطابق الأول ممر عرضه متر مسيج بسياج حديدي ارتفاعه متر تقريباً، في هذه المساحة المهيبة توجد خمسة زنزانات كبيرة على اليمين أبعاد الواحدة ٥*٦ اقتطع منها متر مربع لإقامة مرحاض شرقي على طريقة مرحاض العامة الذي سبق وصفه، الفارق الوحيد هو أنه في هذا السجن لا ترتفع أرضيته عن مستوى الزنزانة، وخمسة أخرى مشابهة لها تماماً على اليسار يفصل بينهما ممر واسع وفي الطابق الذي يليه نفس الشيء، ليكون مجموع الزنازين عشرين زنزانة، وعلى شمالك حيث تدخل

المكان في الطابق الأرضي زنزانة خاصة ومغاسل وفي أعلاه محاجر انفرادية عدد/٢ بقياسات ٢*١.٥ متر وارتفاع ٢.٥ متر. عرض الزنزانة خمسة أمتار اقتطع منها ٣.٥ متر تقريباً لتكون باباً حديدياً مشبكاً بقضبان فولاذية صلدة جداً وسميكة وبنفس التصميم يكون الباب وهو بعرض ٨٠سم وارتفاع ٢متر. وعلى الجهة الأخرى من الزنزانة توجد كتل كونكريتية كجزء من البناء بقياس ٥٠*١٠٠سم مخرمة بواقع فتحتين مستطيلتين أبعاد الفتحة الواحدة ١٠*٣٠ سم لتكون بمثابة شباك الزنزانة، ها هنا وضمن حيّز زنزانة واحدة في هذا العالم الصغير جداً في مساحته الكبير جداً في معناه، هاهنا حيث الثقافات المتعددة والأمزجة البشرية المختلفة، هاهنا حيث تمر سنن الحياة شدةً ورخاءً، عسراً ويسراً، فقراً وغنىً، ها هنا حيث لا يُسمح للشمس بالدخول إلا بعد استئذان الحرس، هاهنا سأقضي أحد عشر عاماً.

الزنزانة رقم ٢٠

من حيث التسمية المهنية فنحن أمام زنزانة، ولكن لم أدر ما السبب الذي جعلنا نتفق على أن نطلق على هذه الزنازين طيلة أحد عشر عاماً تسمية غرف، من غرفة ١ وحتى غرفة ٢٠، في تقديري هناك احتمالات لهذا منها أن معظم القادمين إلى هذا المكان قد مروا بزنزانات (الأمن) العامة والفرق

واضح من حيث الحجم والمساحة وشكل الأبواب، لذا مِلنا من حيث لا نشعر على أن نطلق على تلك زنزانة وعلى هذه غرفة، أو إن المكوث هنا محتوم المدة والغالبية الساحقة التي دخلت هذا المكان محكومون بالسجن المؤبد وهو عشرين عاماً، غير مشمولين بالإفراج الشرطي لأن النظام اصدر قراراً باعتبار قضايانا السياسية جرائم ماسة بالشرف لا تُشمل بالإفراج الشرطي، لذا فمن باب الترويح عن النفس علينا أن نطلق عليها غرف، وكأننا في فندق!! أو مدرسة وعلى طريقة قول الشاعر:

السجن لي مرتبة والقيد لي خلخال

والمشنقة يا أبي مرجوحة الأبطال

وربما يكون لا هذا ولا ذاك فالكثير من الأسماء اتفاق عرضي غير هادف يسري في العقل الجمعي دون تأمل أو اعتراض فأطلق أحدهم عليها غرفاً فباتت كذلك أحدنا ينقلها للآخر.

الزنزانة٢٠ هي الزنزانة الأخيرة في الطابق الأول (ما بعد الأرضي)، يليها المحجران العتيدان، دخلت وأن ارتدي السروال والقميص الصيفيان اللذين منحتهما لي السلطات الرؤوفة في مديرية الموصل، فلم أجد سوى ثلاثة سجناء، رحبوا بي، وتحدثوا معي بكل ود وبما يرفع عني أي شك

وشبهة في كونهم سجناء مثلي، لم تصدق عيوني ما أرى، أربعة سجناء فقط في زنزانة، أربعة فقط في زنزانة مساحتها ٣٠متر مربع، إنه اليوم الأول بعد خمسة أشهر تقريباً الذي بإمكاني أن انقلب فيه أثناء النوم، عندي أكثر من خيار في اختيار المكان، يا الهي لك الحمد ولك الشكر، لم تستوعب عيني هذه المساحات بعد. تقدم أحدهم وبكل أدب وكان من أهالي بلد فقال: عفواً إذا تسمح نحن نقدر أنك جئت من مكان مظلم ورطب، وهكذا أجواء لا تخلو من بعض الحشرات، نحن بلا زحمة نقترح عليك أن نحلق شعرك بماكينة يدوية موجودة عندنا، ثم تستحم يومياً للقضاء على بقايا هذه الحشرات بعدها تستبدل ملابسك بملابس (الكانة)، أعجبني أدبه الجم وكيف يستأذن لأجلي، وسبحان الله فإني مذ وعيت على الدنيا لم اختر يوماً أن حلقت شعري بماكنة حلاقة نمرة صفر، سواءً ذات شفرة أو ذات مشط حديدي، وبقدر إعجابي بهذا الخُلُق الرفيع، استغربت من كلمة (كانة)، فقاطعته وما هي الـ(كانة)؟، فضحك وقال هذه وأشار إلى ملابسه؟ أنها عبارة عن سراويل وقمصان بلون جوزي داكن، أو لون تبني. على الرحب والسعة، هذه هي الحقيقة، فالقمل يسفي في رأسي، ولا داعي للحرج، يا أخي، هكذا أجبتهُ. لقد كان همهم الأول أن لا ينتشر القمل داخل الزنزانة، فليس هناك من مبيدات ولا علاجات عدا النظافة، فأول خطوة بعد

السلام والاستراحة هي إحضار ماكنة الحلاقة وبعناية كبيرة لف قطعة كبيرة من قماش الـ(كانة) على رقبتي لتتدلى من على كتفيّ وأمامي وخلفي، تم إزالة شعري فبدت بيوض القمل (الصواب) على ما تبقى منه بشكل واضح فلونها أبيض ولون شعري أسود ولك أن تتخيل الوضوح، وبالغسل لمدة ثلاثة أيام تخلصنا من طفيلي عنيد اعتاد على العيش من دمائنا.

المحن والبلاءات نسبية، فبعد الذي ذقته من عناء ونصب، من حيث النظافة والمكان، والتعذيب اليومي، والقلق، والتنقلات، اليوم أجد نفسي وكأني مطلق السراح، لم أفكر بأهلٍ لا يعلمون مصيري منذ خمسة أشهر، ولا دراسة جامعية في كلية عشقتها مذ كنت صغيرا في الابتدائية، وهاهم أقراني في المرحلة الثانية، يُكملون سنواتهم الجامعية، ليتخرجوا بعد ذلك أطباء، ولا أفكر بأني طاقة معطلة عن الجهاد تقبع بين الجدران، لم التفت إلى ذلك كله فأنا بين الأمس واليوم أشعر بالامتنان لربي، وبالرضا والسعادة لما أنا فيه. هذا الشعور، شعور الامتنان يملأ رئتي بالهواء النقي، ويُبعد عن مخي الهموم الثقال، ويشحن شرايين صدري بالدم الأحمر القاني، وكل ذلك هون عليّ السنين العجاف، طبعاً لم أكن أفعل ذلك عن قصد، وإنما هي مهارة ذاتية، علمت فيما بعد أن تلك المهارة (الشعور بالامتنان) يعلمها أساتذة

التنمية البشرية لطلابهم لكي يكونوا أكثر سعادة. تحدثت مع السيد مصطفى الهاشمي، من أهالي النجف الأشرف.

- متى تم اعتقالك؟

- في عام ١٩٧٩، قبل مجيء صدام للحكم، أي في رئاسة احمد حسن البكر.

- ولكن بعد مجيء صدام في ١٩٧٩/٧/١٧ أصدر عفواً عن كل السجناء والمعتقلين والموقوفين؟

- نعم هناك من خرج في هذا العفو وهناك من لم يخرج، وانا حينها كنتُ معتقلاً ولم يشملوني بالعفو، القضية كيفية، تبعاً لما يرونه من خطورة في كل معتقل.

- عددكم قليل قياساً لما نراه في العامة والمديريات؟

- انظر إلى تلك البناية، وهي إلى الجنوب من القسم الذي نحن فيه، أنها بناية طبق الأصل لهذه البناية، هذه تسمى ق١ وتلك ق٢، وهناك بنايات أخرى لا يمكن رؤيتها من هنا، لقد كانت أعداد كبيرة هنا، ولكنهم قبل نشوب الحرب، جاءت قوات من خارج منتسبي السجن وقالوا إنهم يريدون تخفيف الأعداد فبدأوا يقرأون قوائم أسماء معدة سلفاً ويسفرونهم ليلاً بحجة نقلهم إلى سجون أخرى ولم نعلم إلى أي جهةٍ اقتادوهم، تذاكرت معه حول التاريخ بنفس تواريخ الوجبات التي كانوا يأخذونها من المديرية العامة، بين شهري اب وأيلول من عام ١٩٨٠، وبعد نشوب الحرب

جمعوا من تبقى من السجناء وطلبوا منهم كتابة تعهدات بالتطوع إلى الجبهات، ثم قاموا بعد ذلك بإذاعة تلك الأسماء على شكل وجبات واقتيادها كما يدعون إلى ساحات القتال ولم يبق إلا هذا العدد الذي تراه أمامك، حيث جمعونا كلنا في هذا القسم، قال ذلك وبدأ يتأوه حرقةً وألماً، أنظرُ إليه وكأنه يسرد حكاية الموت الذي أكل كل رفاقه، وهو بالانتظار، ذكرني هذا المشهد بمشهد الزنزانة ١٧ في المديرية العامة، يوم استنتج أحد الموقوفين الموقعين على التعهد الخاص بإطلاق سراحه، انهم سيساقون للموت وليس إلى أهليهم، كما يدعي الجلادون.

لقد كانت خطوات السيد مصطفى الهاشمي من النجف والأخ باسل من أهالي بلدٍ في الزنزانة، ذهاباً ومجيئاً، وهم يوزعون نظراتهم على ما تبقى من ملابس إخوانهم، أمكنتهم، يتذكرون حكاياتهم، صلاتهم أدعيتهم، تُشعرك أنهم لاحقون بهم، وبالفعل فبعد حوالي الشهر، دخل النقيب غالب الدوري ومعه عدد من الجلاوزة ليذيعوا أسماءهم ومجموعة من الغرف الأخرى منهم الأستاذ كاظم من النجف وهو خريج كلية الفقه في ذلك الوقت، وصادق أبو تماضر وهو نائب ضابط من قاعدة الإمام علي الجوية في الناصرية، وهم في غرفة ١٨/ق١ حسب ما أفادني به الأخ عبد الرحمن مرزوق الحلفي من أهالي البصرة، وغيرهم من بقية الغرف ليقتادوهم

إلى المصير الذي لا نعلمه، وتيقنا فيما بعد أنه هو، المقابر الجماعية.

أن تسوق معتقلاً موقوفً على ذمة التحقيق إلى الموت تحت ذريعة قراءة نص قرار الحكم عند القبر، كون المحاكم عسكرية، قد يكون وارداً في الأنظمة الديكتاتورية العسكرية، ولكن أن تسوق محكومين بالسجن أو بالحبس وقد اكتسبت قراراتهم الدرجة القطعية وقضوا مدةً من محكومياتهم، تسوقهم إلى الموت مباشرةً ودون محاكمة ولو صورية، فذلك ما ترفضه كل القوانين، ولم تألفه كل الأنظمة، ولم نتوقعه نحن كذلك، إذ لا رجعية للقوانين إلا ما استثني بنص وفي كل الأحوال يجب ان يكون هذا الاستثناء لصالح المتهم. عبر مصطفى وباسل أدركت ثقافة ووعي وإيمان هذه النخبة التي اقتيدت من هذا المكان، أنها تمثل الكادر الوسطي لحزب الدعوة الإسلامية، وعماد نشاطه وامتداداته في المجتمع، وقد جرت اعتقالات الغالبية الساحقة منهم ما بين شهر آب ١٩٧٩ وشهر نيسان ١٩٨٠، ولم أتمكن وللأسف من معرفة العدد الكلي لهم لكني أظن أن عددهم لا يقل عن ٨٠٠ سجين، إذ جاء النقيب غالب بعد مدة فقرأ لنا قوائم أسماء جمعت بين المرحلين والموجودين، ليؤشر الباقين في سجلاتهم، وكان من بين مَن قرأ أسماءهم السيد

حميد مهدي سلمان المحنة، وهو معلمي وأستاذي ومسؤولي في تنظيم الدعوة الإسلامية.

الوجبة الأخيرة

باتت أعداد السجناء في زيادة مطردة، إذ بلغ عدد السجناء في كل زنزانة حوالي الـ ١٥ سجيناً، هناك آذان للصلاة جماعي في القسم، هدوء نسبي، انعدام وجود مخبرين بيننا، أو لم نكتشف أحدهم بعد، بحبوحة في التغذية، بحبوحة بقدر، فلا فواكه على الإطلاق ولا خضروات ولا تمور، وقليل جداً من اللحوم، منا من يستحله وهم القليل ومنا من يستحرمه، ولكن مجيء ما يكفي من الخبز يعتبر تغذية جيدة قياساً إلى ما كنا نواجهه في التوقيف.

الأخبار هنا كلها مفاجئة، إذ أننا في زنازين مؤصدة تماماً، والأقسام التي أودعنا فيها يُطلق عليها الأقسام المغلقة، المنتسبون يتعاملون بحذر شديد، ولا يُبدون أي مرونة بشأن المعلومات، فأي معلومة عن ذوينا أو تعاون معنا يعني تعرضهم لحكم الإعدام، وهذا ما حدث بالفعل بعد ثلاثة أعوام.

في شهر آذار من عام ١٩٨١ دخل علينا النقيب غالب الدوري فتلى بصوت جهوري أسماء ٣٧ سجيناً، كلهم من الأسماء التي لبثت مدةً أطول هنا، منهم الشيخ حكيم من

أهالي العمارة، والسجين سلمان من أهالي البصرة، وغيرهم وهم أخر ما تبقى ممن عاصروا الوجبات التي اقتيدت سابقاً، وإن كان من بينهم من لم ينظم استمارة استعداد للذهاب إلى جبهات القتال المحتدم مع الجمهورية الإسلامية في ايران، قرأ الأسماء ثم خرج، تيقن هؤلاء أن ذلك يعني أنهم سيلحقون بإخوانهم، وبعد ساعات قام أحد السجناء بتأليف قصيدة شعبية وكأنه ينعاهم بها، وقام بقراءتها بصوت شجي، انه السجين السيد جمال من أهالي البصرة، لازلت أتذكر مطلعها:

يلرايح تروح عني بهلَيام .... لو غابت الروح مر لي بلَاحلام،

أيها الذاهب عني في هذه الأيام إذا ما غبت عني بجسدك فأرجو أن تمر علي بالأحلام.

في اليوم التالي جاء عدد من الجلاوزة ومعهم النقيب غالب الدوري واقتادوا أولئك الـ ٣٧، لكن المفاجأة أننا بعد مرور شهر أو أكثر رأينا بعضهم على شاشة التلفزيون اليتيم الموجود داخل القسم وهم يعرفون عن أنفسهم وقد وردتنا معلومات فيما بعد ممن اعتقلوا وحوكموا وادخلوا السجن أن معظمهم سُلّم إلى أهله على أساس أنه قتيل في المعارك التي كانت تدور رحاها مع إيران.

واختلفت الروايات حول طريقة تصفيتهم، فمنهم من قال إن فرق الاستخبارات العسكرية فتحت بهم أحد حقول الألغام ليستشهد معظمهم، وآخرين قالوا إن فرق الإعدام دفعت بهم في مقدمة أحد المعارك وتم رميهم من الخلف، في حين أكد آخرون انهم تم إعدامهم وهم مكبلون وسط احتدام المعارك ليصورهم الإعلام العسكري ويدعي انهم أسرى من الجيش العراقي تم إعدامهم من قبل الحرس الثوري الإسلامي في إيران، ولا استبعد شخصياً أن تكون هذه الوجبة قد قسمت على أقسام وكل ما ورد كان صحيحاً.

مع كل وجبة يقتادها الجلادون تحصل تنقلات بين الزنازين، إجراءات يفرضها الجلادون لأسباب تتعلق بهم، ونحن وان كانت نفوسنا لا ترغب بها فإن عقولنا تقول ان في الحركة بركة فهي تخلصنا من الرتابة والملل وتعرفنا بأشخاص آخرين. انتقلت إلى زنزانة ٦ في ق١.

من السجن إلى مكان مجهول

يوماً بعد أخر تتكيف حياتنا داخل هذه الصناديق المقفلة، فلا أهل ولا أقارب، ولا أخبار ولا معلومات عدا ما نسمعه من التلفزيون الرسمي في نشرة أخبار الساعة الثامنة التي أصبحت فيما بعد جزءً من الحرب النفسية والتعذيب اليومي إذ نُجبر على متابعتها من البداية حتى الساعة الحادية عشرة،

يوم كان رأس النظام يكرم يوميا عشرات الضباط والمراتب بنوط الشجاعة ويمنع فيها الكلام منعاً باتاً، وعلينا الإصغاء إلى كامل حديث الديكتاتور، ومن يتحرك منا أي حركة يُعتبر مخالفاً ويتعرض إلى أشد أنواع التنكيل والتعذيب. وسط أجواء الهدوء النسبي والتكيف مع حالة السجن اليومية والتفكير بما يمكن أن يقوّم نفوسنا وأفكارنا وصبيحة يوم١/٤/١٩٨٠ دخل مفوض (الأمن) فلاح عاكولة إلى القسم لينادي بصوت مرتفع وجهوري باسمي.

لم نألف أن ينادوا على أحد السجناء إلا لسوء، وما اعتدنا عليه في الأشهر الأربعة التي أمضيتها هنا أن ينادوا على السجين لمخالفة ما، أو استفسار ما، وعدا وجبتي السجناء اللتين تحدثت عنهما لم يخرج أحد خارج السجن. بعد الإجراءات المعتادة من تقييد اليدين إلى الخلف، وعصابة العينين أُركبت مع ثلاثة من الحرس وانطلقت بنا العجلة مسرعة، إلى أين لا أدري، وأكثر ظني أنها متجهة إلى مديرية كربلاء أو الموصل. لم تطل الرحلة طويلاً وإذا بي أمام قاعة محكمة الثورة وقبالتي يجلس الدكتور عاصم رشيد الربيعي على احدى المناضد الخشبية، فصعقنا نحن الاثنين لهذه المفاجأة، لقد كنت أحسب أن الرجل قد سيق إلى المحكمة وانتهى به الأمر إلى الإعدام قبل هذا الوقت بكثير أو سيق مع الوجبات التي تقاد إلى أماكن مجهولة، وهو يظن على ما أرى

في عينيه أني كذلك، لم تُلهني هذه المفاجأة عن أن أدقق النظر في يديه بعد أربعة أشهر من فراقه، وها هما لا زالتا متهدلتين من الكتفين، فهما إذن لا زالتا مشلولتين، أو على أحسن حال فهما معوقتان عن الحركة، يبدو على وجهه التعب والإرهاق ولا أدري ذلك من السفر المرهق فهو قادم من الموصل التي تبعد٤٠٠ كيلو متر، أو من طول انتظار أو استمرار التحقيق معه بعد تركي إياه، تبادلنا التحية عن بعد بإيماءات خفيفة، فعيون الحرس لا تنفك عن مراقبتها إيانا.

دخلنا معاً إلى قاعة المحكمة، ذات الديكور وذات الأشخاص، الجديد أنهم هذه المرة قلبوا أوراق الدعوة، ونظر رئيس المحكمة بعناية إلى وجوهنا، وطلب منا الاسم والمهنة وتاريخ التولد، فالمعتقلون عموماً من قبل السلطة لا يربطون معهم مستمساكتهم الثبوتية ويحتفظون بما يجدون عندهم من هويات، فإن لم يجدوا فلا يكلفون انفسهم في جلبها من منازلهم، إنهم يريدون أن يخلوا بضحاياهم، ليفعلوا بهم ما شاءوا، فلا خبر للأهل ولا للدائرة، أنا شخصياً تم فصلي من الكلية بناءً على تجاوز غياباتي الحد المقرر، وأرسلوا على الكفيل الضامن ليسدد الكفالة المالية وقدرها ٦٠٠ دينار!!! والذي بدوره عاد بها على الأهل ليأخذها منهم.

التفت رئيس المحكمة على الحرس (هذا أخذوه، باجر محاكمته) وأشار عليَّ، فأخرجوني، وريثما يتهيأ حرس السجن لإحضار العجلة وإكمال الإجراءات الإدارية، تمنيت لو يخرج إلى القاعة الدكتور عاصم، ولكن يبدو أنه اقتيد إلى الباب الذي يخرج منه المحكومون بالإعدام، وهكذا تم افتراقنا مجدداً، ولكنه اللقاء الأخير، دون وصية أو ميعاد، أو حتى كلمة (في أمان الله)، اقتيد إلى حيث يعلم، وها هو اليوم يتيقن المصير، أما أنا فأعادوني إلى زنزانة ٦ ق١.

حفلُ الزفاف إلى الموت

مذ فارقت قاعة المحكمة على إيعاز (غداً محكمتك)، بدأت وساوس النفس وخواطرها، مَوَران، خواطر، تقلب، ظنون، شكوك، هكذا هي نفوس البشر، وليست نفسي بدعاً من ذلك، عليَّ أن أعالج ذلك وحدي، أفكار تترنح وأخرى تثور، ريح تعصف وأخرى نسيم عليل، مجهول يلفه مجهول كالليل الدامس، ومصير معلوم كالصبح السافر، كيف ستنتهي هذه الساعات، حينها عرفت معنى القلق.

نصف ساعة تقريباً الطريق بين المحكمة والوصول إلى غرفتي العتيدة، حيث يستقبلني بلهفة رفاقي وأخوتي ليتحولقوا حولي يتساءلون عن الوجهة التي توجهت إليها ليتم إبرامها إلى القسم كله، فالأخبار هي الفاكهة المفضلة لكل

السجناء في العالم، لتعمل بعدها ماكنة التحليل، بعضهم يحلل على ضوء القرائن التي صادفته، وآخر على ضوء ما يحفظ من القوانين، وثالث على الحدس والظن، وأجمع رفاقي على أن يقيموا لي حفلة توديع خاصة، أنها حفلة التوديع النهائي فمعظم المطلعين يرون في محاكمتي غداً نتيجةً واحدة وهي الحكم بالإعدام، وفي ليلة ١٩٨١/٤/٢ قرروا أن تكون هناك جلسة يقرأ فيها الأخ عبد الرحمن مرزوق من البصرة قصيدة (أبتاه ماذا قد يخط بناني) أو ما يطلق عليها (رسالة في ليلة التنفيذ)، وهي قصيدة غاية في دقة الوصف لما يحيط بسجين محكوم عليه بالإعدام قبل ليلة من تنفيذ هذا الحكم، كتبها الشاعر المصري هاشم الرفاعي أيام حكم جمال عبد الناصر في عام ١٩٥٩، كان معي في الزنزانة كل من الأخوة عباس سعيد خلف وجبار مرزوق عبد الزهرة، وصباح شريف ابن أخت الأخوين جبار وعبد الرحمن، وعلي حسين مرهون (أبو قنوت) نائب ضابط من القوة البحرية، وزهير (أبو نبيل) نائب ضابط في القوة البحرية، وعبد الأمير المنصوري، هؤلاء جميعاً من أهالي البصرة، وكريم خطار من النجف/ الكوفة، وجمعة حسين من العمارة، وسيد سلمان من بلد، وكريم من المسيب، وفاضل علي حسين من كربلاء. أُعجبت بالقصيدة لدقة الوصف والواقعية

التي اكتنفتها والقيم النبيلة التي تحدثت حولها، وآليت على نفسي أن أحفظها إن أمدّ الله في عمري لأن القصيدة طويلة.

في لحظات الأسى والعواطف لشاب لم يتجاوز العشرين بعد، يميل الإنسان إلى أسرته التي احتضنته، فهي البيئة الأولى، والمنبع العذب الذي يتلقاه المرء في طفولته، تلك هي الطبيعة، وإن أراد البعض التمظهر بغيرها، تمر الخواطر سريعة على شريط الأيام الخوالي، لينتفض العقل على النفس مذكراً إياها بمسار الكبار وأن الموت طريق الأحرار، وهنا تكون قصيدة أبتاه قد وصلت إلى ما أنا فيه إذ أخاطب أبي وأمي ومع ترنيمة الأخ عبد الرحمن يتفاعل عقلي ونفسي في آن:

أنــا لا أريــدك أن تعــيش محطمــاً

فـــي زحمـــة الآلام والأشـــجانِ

إن ابنــك المصــفود فـــي أغلالـــهِ

قــد ســيق نحــو المـوت غيـر مـدانِ

فــاذكر حكايــات بأيــام الصــبا

قــد قلتهــا لــي عــن هــوى الأوطــانِ

وإذا سـمعتَ نشـيج أمـي في الـدجى

تبكــى شــبابا ضــاع فـــي الريعــانِ

وتكـــتم الحســـرات فـــي أعماقهـــا

ألمــــاً تواريـــــه عــــن الجيــــرانِ

فاطلــبْ إليهــا الصــفح عنــي فــإنني

لا ابتغـــى منهـــا ســـوى الغفـــرانِ

مــا زال فــي ســمعي رنــينُ حــديثها

ومقالهــــا فــــي رحمــــة وحنــــانِ

ولــدي حبيبــي قــد غــدوتُ عليلــةً

لــم يبــقَ لــي جلــدٌ علــى الأحــزانِ

فــأذق فــؤادي فرحــة بالبحــث عــن

بنــت الحــلال ودعــك مــن عصــيانِ

كانـــــت لهـــــا أمنيـــــةٌ ريانـــــةٌ

يـــا حســـنَ أمـــالٍ لهـــا وأمـــانِ

هكـذا انتهـت حفلـة التوديـع ولكـن ذلـك لا يعنـي اليقـين فرفـاق المحنـة بـين متيقن بـالفراق الطويـل ومتفائـل بـالعودة إليهم غداً، ف(ما بين طرفة عينٍ والتفاتتها... يغيرّ الله من حالٍ إلى حالِ)، هكذا يردد معظمهم، بعد الانتهاء أختلى بي فاضل علي حسين ليهمس في أذني أن هناك محاولة مفيدة لك إذا حُكمت بالإعدام، ستسير بك السيارة وهناك جسر بإمكانك

إذا وصلت إليه وأنت جالس خلف السائق أن تقفز على مقود السيارة وهي تسير بسرعة فتقلبها فتتخلص بذلك من واحد أو أكثر من الجلادين، مجرد وصية لم أعر لها الكثير من الاهتمام لمعرفتي بطريقة تسفير الموقوفين ولكني شكرته عليها، وجاء الصباح ليعود الجلادون ويأخذوا ضحيتهم إلى حيث يريدون.

لحظات لا زلت أتذوقها

كم سمعنا من قصص وحكايات عن زنازين الإعدام وكيف يقضي المحكومون يومهم هناك، وكيف يتلقون النداء بأسمائهم مهللين مستبشرين، لا شك أني سألتقي هناك بالكثير ممن صادفته في المديرية العامة أو كربلاء أو الموصل فالتنفيذ لا يتم بذات اليوم فربما بقي المحكوم شهراً أو أكثر، فالأعداد كبيرة والمحكومون بالإعدام أكثر من المحكومين بالسجن المؤبد، ومن يدري لعلي أعود إلى السجن مرةً أخرى ليستقبلني هذه المرة زملائي بالتهليل والتكبير بدل احتفالية التوديع، وتلك الأيام دول، بينما أنا بمثل هذه الخواطر سمعت أحد الحراس يقول لصاحبه: انتبه طريق الطب العدلي من هناك.

هل للخواطر ذائقة؟ نعم لها طعم وذائقة. هل للمشاعر والأحاسيس ذائقة؟ نعم كذلك. لازلت أتذوق طعم الطمأنينة

التي نزلت عليّ في تلك اللحظات، الاطمئنان إلى المصير الواضح المحتوم مع الرضا له طعم لا يعادله طعم في هذه الحياة، الاطمئنان بعد القلق، واليقين بعد الشك، والرضا بعد التردد، كل ذلك يفتك بالشيطان وينزل السكينة ويغذي الروح بأجمل وأشهى أنواع الغذاء. الأن تجلت لي رحمة ربي، وزهدت في هذه الحياة، وتعلقت بالآخرة، فنحن في الأشهر التي قضيناها في السجن تعلمنا أن السبب وراء حكم معظمنا بالمؤبد هو أعمارنا التي لم تبلغ العشرين، إذ توجد مادة في قانون العقوبات العراقي تخفض حكم الإعدام إلى المؤبد في حال كان المحكوم دون العشرين وفوق الثامنة عشرة، وها هي العقبة الأخيرة في طريقها للحل، فإلى الطب العدلي حيث يُجبَر الموظفون هناك على تغيير الأعمار بما يتناسب ورغبة الجلادين، وقد سمعت عن مثل هذه القصص كثير.

مَلَكيّون أكثر من المَلِك

في دائرة مدنية يراجعها الكثير من المراجعين، لاشك أن رؤية سجين مكبل بالقيود ومعصوب العينين تلفت الانتباه، ولاشك أن الناس تتعاطف مع مثل هكذا منظر مهما كانت الأسباب والتفاصيل، والجلادون يدركون ذلك، فهم حريصون على أن يركزوا اهتمامهم على مهمتهم في حفظ أسيرهم أولاً وإنجاز المهمة والعودة إلى الجهة التي يجب ان يتوجهوا إليها، وبالمقابل فإن الأراذل من البشر ممن لا عزة لهم ولا كرامة، من عباد السلطان والمتملقين المنافقين، يتحينون الفرص لنفث رذائلهم، ويغذوا عقد النقص في ذواتهم، وبما يخالف المعروف لكي يتميزوا، وما يبعث على الغرابة أن الطغاة والجلادين عموماً يحتقرون من يتملق إليهم أو يهتف بحياتهم وهم موقنون بقرارة أنفسهم أنهم ظَلَمَة، ويقدرون ويحترمون من يعارضهم. دنا أحد هؤلاء الأراذل ليسأل أحد الحراس عن جنايتي، فهمس في أذنه شيئاً ما وإذا بهذا الرجل يتهددني بالضرب ويتوسل بالحرس أن يسمح له بالاعتداء عليّ بأعلى صوته والحرس يعذلونه عن فعل ذلك، فيتظاهرون بأنهم الودودون الملتزمون بالقانون. كم تعرضت إلى التعذيب من الجلادين ورؤسائهم في المديريات، ولكن هذا البائس آلمني أكثر. رحتُ أفكر في نفسي كم من مثل هؤلاء موجودون الأن في بلدي؟ كم منهم من يصفقُ للجلاد؟

وما عسى أن تنفع قلوب البعض إذا كانت معنا وجوارحهم علينا؟ لم يستطِع النظام أن يُقنع الكثير بأن معارضتنا عمالة للأجنبي وخيانةً للوطن، لكنّه أجبرهم على التظاهر بأننا كذلك، أنها مجرد أفكار وخواطر لا تُخفف من الألم، ولكنها غير إرادية تغزو العقل الذي تُعشعشُ فيه العلامة الأكبر في هذا الكون وهي لماذا؟ استذكرُ الله فاستغفرُه أني بهذه الخواطر أضيع أجمل ما أحسست به طوال عمري من سكينة وطمأنينة، فقد قدّر الله وما شاء فعل، والحمد لله رب العالمين.

العودة إلى المحكمة

أكمل الحراس مهمتهم الإدارية بسرعة، فهم خارج الطابور، وبمجرد التعريف بهويتهم يصطف الموظفون بحالة استعداد وخضوع لتلبية الأوامر، ثم عادوا بي إلى قاعة المحكمة، لم ألبث إلا قليلاً، حتى نادوا عليّ، وأنا مستسلم لقضاء الله وقدره، متسامياً هذه المرة وقوياً وعزيزاً أكثر بكثير عما كنت عليه في ١٩٨٠/١٢/١، لأسباب كثيرة، لعلّ أبرزها اليقين بالمصير والرضا به.

لست بعيد عهد عن القاضي ومساعديه من العسكريين، وهم فضلاً عن كونهم لا أباليين في أحكامهم، فتلك الأحكام تلقاها المحققون الجلادون من رؤسائهم الذين يتلقونها

مباشرة من حاشية صدام مباشرةً، أقول فضلاً عن ذلك فإن ذاكرتهم طبقاً لوظيفتهم لا تهمل ملفاً اطلعت عليه قبل يوم واحد.

وبينا أنا مطبق على سمعي بحكم الإعدام لأرحل عن دنيا رحلَ عنها الكثير من أقراني وأصدقائي وإذا بالحكم السجن المؤبد مع إضافات لم أعرف معانيها في حينها من قبيل يقضيها بالتعاقب. لستُ قادراً إلى اليوم على وصف مشاعري، أعماق نفسي، ردة فعلي، ببيان واضح وجلي، لست قادراً حتى اليوم أن اختار كلمات تصف تلك المشاعر، مشاعر هجينة، خليطة، بين الحزن على زوال تلك السكينة والطمأنينة التي عشتها في تلك السويعات التي سبقت النطق بالحكم، والابتهاج بالعمر الجديد والولادة الجديدة، تصادم الحزن والفرح بقوة يولد شعوراً ربما تكون كلمة (الروح المسحونة) ملائمة، أو هي قريبة من شعور طفلٍ تخاصم أبواه وهما يتجاذبانه من يديه اليمنى واليسرى كلٌ يريده إلى جانبه، الموت والحياة هنا ليس ما اعتاد عليه الناس فلا الموت موت ولا الحياة حياة، فحين تتصادم تجليات الطبيعة البشرية مع الطبيعة الملكوتية يكون محل تصادمها على الروح فتبث مثل هذا الشعور، لعلّ الأولى في مثل هذه الحالة أن تتلاقح الطبيعتان فيعود المرء إلى الوضع المقبول.

أُعِدتُ إلى القاعة ومنها إلى السجن لأجد الجلاد فلاح عاكولة وقد استعد لاستقبالي على طريقته الخاصة، فلاح هذا كان يُخَيّر السجين الذي يريد تعذيبه بين أن يضربه على خده ضربة واحدة أو أن يضربه على باطن قدميه حتى يتورما، أي بين (الراشدي والفلقة) على لهجة العراقيين، فلا يدري أحدنا أيهما يختار، لأن يد الجلاد من الثقل والحجم ما يمكن ان تصيب طبلة الأذن بالضرر المستديم، وهذا ما حصل مع السيد سعيد جبر الصافي الذي لازال يعاني من سمعه بعد أربعين عاماً.

دخلتُ إلى وكري وعشي بعد حفلة الاستقبال الخاصة بفلاح عاكولة ليستقبلني رفاق محنتي بالأحضان مهللين ومستبشرين، لا يكادون يصدقون ما ترى أعينهم، كيف لفريسةٍ ليس لها من حول ولا قوة أن تفلت من مخالب وحوش متعطشة لسفك الدماء. العيش وسط الجماعة يغيّر الكثير من طباع الفرد يعطيه ويأخذ منه، يعطيه الأنس وقضاء حوائجه فـ (الناسُ للناسِ من بدوٍ ومن حضَرٍ ... بعضْ لبعضٍ وإن لم يشعروا خدمُ)، وذاك العيش يأخذ منه خلوته مع ربه وخلوة عقله مع ذاته.

انعكاسات الحرب على السجن

يوماً بعد يوم تزداد الحرب ضراوة، وتذهب نشوة النصر التي تفاخر بها النظام في الأسابيع الأولى للحرب، لقد أحتل صدام مساحات واسعة من الأراضي الإيرانية وسقطت مدن وقصبات، وذلك في بدايات هجومه الواسع في ٢٠٢٢/٩/٢١ وبات النظام يفرض شروطاً لإيقاف الحرب من قبيل إلغاء اتفاقية الجزائر التي وقعها صدام حسين نفسه في عام ١٩٧٥ مع شاه ايران وقبل انتصار الثورة الإسلامية في ايران، وإعادة الجزر العربية الثلاث طنب الكبرى وطنب الصغرى وأبو موسى وهي الجزر التي تنازلت عنها الإمارات العربية المتحدة سراً إلى شاه ايران عام ١٩٧١، وكان يظن أن إيران تحت ضغط جيشه ومساندة الغرب ودول الخليج له سوف تستجيب لمطالبه، وكلما مر شهر على الحرب كلما أدرك صدام فداحة الخسائر التي يقدمها والمأزق الذي تورط فيه، فإذا أضفنا ذلك إلى الطبيعة الإجرامية والطاغوتية التي يتصرف بها النظام قبل الحرب فستكون هناك صورة واضحة لحجم الاضطهاد والتعذيب والظلم الذي تعرضت له المعارضة في ذلك الوقت، فالأجهزة القمعية جميعاً وأخصها جهاز (الأمن) الذي يتولى عمليات الاعتقال والتعذيب والإشراف على السجون المغلقة كانوا يتصرفون معنا بوحشية فلا زيارة لطبيب ولا اعتناء بالصحة ولا بالغذاء ولا توفير

مكـان ملائـم لأعـدادنا الآخـذة بالتزايـد، وأي مطالبـة تواجـه بالرفض القاطع، ذات يوم شكا سجين من أهل البصرة أظن ان اسمه طالب من ألم في أسنانه لمدة ثلاثة أيام وكلما طلب إخراجه لغرض العيادة يقابل بالرفض، حتى قرر الدكتور السجين سعد محمد صالح أن يقلع سنه بآلة حديدية كبيرة تستعمل في صيانة أنابيب الماء ووافق المريض لشدة الألم وما إن حاول الدكتور سعد قلع السن حتى سقط المريض مغشياً عليه فترك الأمر. لقد ازداد عدد المعتقلين بعموم العراق بشكل جنوني وتضاعفت الأعداد التي يتم إعدامها وأصبح تعذيب السجناء روتيناً يومياً.

الدرسُ البليغ

لكل مرفق من مرافق الدولة إدارة خاصة تتناسب وأهميته وحساسيته والمهام التي يقوم بها هذا المرفق، والسجون عالم خاص، تحتاج إدارتها إلى رجال لديهم تجربة في هذا المضمار، ومشكلة الأنظمة البوليسية أنها لا تقتنع بطرق أنجع من الإرهاب في تذليل الصعاب التي تواجهها.

في نهايات العام ١٩٨١ تولى ثلاثة من الجلادين الصغار، حديثي السن، قليلي التجربة، يحملون الكثير من الرعونة، والحقد الدفين، ليس لديهم من مهمة سوى تعذيب السجناء ثلاثة مرات في اليوم، فمع جلب وجبة الإفطار أو الغداء أو

العشاء يطلبون من القائمين على مراقبتنا قائمة بأسماء المخالفين، ليخرجوهم من الغرف إلى داخل القسم ويبدأون بضربهم، بأنابيب الماء البلاستيكية (الصوندات) أو بعصي خشبية (التواثي) أو بآلة تقليب الرز المصنوعة من الألمنيوم (المس أو الچفچير)، وهم كل من خليل ورائد وحاتم، والأخير كان يتصرف وكأنه برتبة لواء وهو ليس أكثر من شرطي برتبة جلاد.

كانت المخالفات مجرد سلام سجين على سجين في زنزانة مقابلة بإيماءة أو ابتسامة، أو تكلم سجين بصوت مسموع مع سجين أخر في نفس الزنزانة، أو الوقوف على الشباك والنظر إلى القسم الذي يلينا، أو عدم الجلوس والاستماع إلى نشرة الأخبار التي يظهر فيها الديكتاتور يومياً، أو المناداة أكثر من مرة على الحرس لإسعاف مريض أو إرساله إلى المستشفى، وغير ذلك من سفاسف الأمور.

لم يكتفِ الجلاد حاتم بهذه المخالفات التي تسبب ضرب وتعذيب المخالفين بها يومياً ثلاث مرات فاخترع مخالفة جديدة وهي عدم حلق اللحية يومياً، وكأننا في ثكنة عسكرية، ثم تجرأ أكثر فبدأ يقوم بفتح الزنازين والدخول إليها ومعاينة السجناء فرداً فرداً، فاذا ما رأي أو شك في أن سجين لم يحلق لحيته اعتدى عليه بالضرب داخل الزنزانة،

وهو يختار يومياً عدد من الزنازين وليس كل ما موجود في القسم.

بعد أيام من جولاته هذه، وفي ١٩٨٢/١/٢٥ حيث كان البرد على أوجهِ، وبعد أن دخل إلى الزنزانة ١١ ثم ١٢ ثم ١٣ حيث كُنت أنا ومعي عباس سعيد ورحمن عبد الزهرة ومنذر من أهالي البصرة والأخير وهو أصغرنا سناً إذ كان حدثاً، والسيد باقر القبنجي والسيد علي الخرسان والسيد هاشم العذاري من النجف الأشرف، وآخرين، فتح الباب دخل كعادته يتفحص الوجوه، اقترب من السيد هاشم العذاري، ركّز على وجهه فأراد أن يضربه على خده فرد عليه السيد بضربة قوية فاجأته إلى الحد الذي لم يستطع الدفاع عن نفسه، ثم ضربه السيد باقر القبنجي بلكمة على وجهه أدت إلى رعاف أنفه، ثم توالت عليه الضربات، من معظم من كان في الزنزانة، وعلت هتافات الله أكبر وانتقلت إلى القسم كله، فارتعد جلاد أخر كان معه فأقفل باب الزنزانة، وترك حاتم داخل الزنزانة، فأخذ يبكي بصوت عال ويتوسل بأن لا يضربه أحد، وما بين حالة الانكسار التي بدت عليه وبين الخشية بأن يموت تحت أيدينا وعواقب ذلك، أي بين العقل والعاطفة، خفت عليه الوطأة، حتى وصل الخبر النقيب غالب وزبانيته خارج القسم، فجاءوا إليه مسرعين وكان أول الداخلين المفوض الجلاد حسين ومعه اثنين من الحرس

وبيده مسدس فأخرجوه من الزنزانة، ثم عاد المفوض إلى باب الزنزانة، فأخذ يتفحصنا فرداً فرداً وهو غاضب فرأى قطرات من الدم على قميصي، فقال بغضب: ما هذا الدم الذي على قميصك؟ فقلت له لا أعلم إنني تفاجأت به. فقال مستهزئاً: تفاجأت فنادى على الحرس وقال لهم: اخرجوا هذا الـ ....وضعوه في المحجر فله حساب خاص.

المحجر في الجهة المقابلة للزنزانة التي حصل فيها الانتقام، ولكن انتقام الجلادين يقيناً أكبر وأكثر فتكاً، حتى الأن لم يأتِ المسؤول الأمني النقيب غالب الدوري، ليقرر ماذا يفعل بنزلاء هذه الزنزانة، وربما بكل القسم، فهو الحدث الأول الذي يحصل منذ دخولي قبل سنة تقريباً. هنا في هذا المحجر الصغير يدرك المرء معنى الجماعة، قوة الجماعة ومعنوياتها، فالمرء قوي بأخيه، فقلق الجماعة يتوزع فيخف، واضطراب الجماعة يتوزع فيخف، وبالمقابل فإن معنويات الجماعة تتوزع على الفرد بما يعادل مجموع معنوياتهم وكذا صبرهم وحماسهم، أما الوحيد فهو فريسة لشعور الخذلان، إلا ما رحم الله، فقد يكون إلى الله أقرب، وبنفسه أبصر وأعرف. نصف ساعة أو أكثر قليلاً دخل النقيب غالب ومعه عدد من الجلادين وهم يحملون ثلاثة أصناف من الهراوات، الأول يحملُ هراوات خشبية مربعة الشكل ذات حواف حادة يبدو أنها من خشب الجاو الثقيل والصلد ربما كانت بقايا

مناضد أو مصاطب جلوس، والثاني يحملون قضباناً حديدية ذات اشكل اسطواني ربما كانت بقايا أنابيب ماء بقياس ٣/٤ انج، أما الثالث فيحملون كيبلات كهربائية تبدو وكأنها أنابيب ماء ذات قياس ١/٢انج ولكنها تتلوى بحيث لا يفوتها انحناءً ولا قعراً في ابن آدم إلا وتلوّت عليه، أصدر النقيب غالب توجيهاته إلى زبانيته بصوت جهوري وواضح وهو يريد بذلك أن يُسمِعَ الجميع وهم في زنازينهم، لا أريد أحداً منهم يغادر هذا المكان إلا مفجوج الرأس أو مكسور اليدين، ثم باشروا بإخراجهم إلى نهاية القسم في الطابق الثاني وعلى مقربة من المحجر الذي أنا فيه، واستغرق ذلك وقتاً أصيبوا بعده بالتعب والإعياء وانا اسمع وانتظر الدور، حتى كاد الجلادون أو بعض منهم أن يغادر المكان فتذكر المفوض حسين فقال أخرجوه أخرجوه فتكفل بي أحدهم غيره، وهو يلهث ويتصبب عرقاً وهو يضرب على ظهري فكنت أسرع منه في الوصول إلى المسلخ حيث أخواني على بعضهم البعض يلعقون جراحهم ويئنون من آلامهم، قد اصطبغ المكان بلون الدم وما إن هويت عليهم حتى صرتُ كأحدهم، وعلاوة على ذلك تعمدت أن أمسح وجهي بفيض دمائهم علني أسلم من شج الرأس أو كسر اليدين، وكان ذلك، وابتعد الجلادون ليتأملوا ضحاياهم، لقد كان للجلادين ما أرادوا فجميع من في الزنزانة ما بين مكسور أو مفجوج، إلا

أنا وهم لا يعلمون!!! إذ أراد الجلاد حسين ان تكون عقوبتي الأقسى لأنه وجد الدم على ملابسي وأراد الله غير ذلك، فما كل ما يخطط له المرء يدركه وإن كانت كل وسائل التنفيذ متاحة وكما جاء في الأثر عن علي عليه السلام (عرفت الله بفسخ العزائم وحل العقود)، فكنت من أقدم لهم الطعام وأقوم بخدمتهم لتجاوز هذه المحنة.

قساوة العام ١٩٨٢

لقد وبخ النقيب غالب الشرطي حاتم توبيخاً قاسياً وبمسمع من النزلاء وعدَّ الدخول إلى الزنزانة رعونة وحماقة ما كان عليه ان يقوم بها، ولكنه لم ينقله من القسم أو يمنعه من الدخول. أمر الجلاد غالب بأن يُؤخذ الجميع إلى المستشفى الخاص بقسم الأحكام الخاصة وهو مستشفى متواضع فيه ردهة تتسع لستة أسرة ويتم طلب الطبيب من قسم الأحكام الثقيلة الخاصة بالجرائم الجنائية، فأولئك يحظَوْن بالرعاية والاهتمام، أما نحن فلا، وتلك من مفارقات القدر، ولا يسمحون بتطوع الأطباء المحكومين منا للعمل في هذه المستشفى، نعم يتواجد فيها طبيب سجين من البصرة اسمه الدكتور منصور محكوم في الأقسام المفتوحة وهو مصطلح تعارف السجناء على إطلاقه على أولئك المحكومين بمدد أقل منا ولكنها تتعلق أيضاً بالعمل الجهادي الديني ضد

النظام إذ سمحت لهم السلطات الأمنية بموجبها مواجهة ذويهم وهم نزلاء في ذات القاطع (قسم الأحكام الخاصة) إلا أننا لا نراهم ولا يرونا وممنوع منعاً باتاً التواصل بيننا وبينهم، ويجبروننا نحن في الأقسام المغلقة والغالبية الساحقة منا محكومون بالسجن المؤبد، أن نبقى نيام يوم مواجهتهم لذويهم، لكي لا يسمع الأهالي يوم المواجهة صوتاً ما ينبعث من (المخازن) المعدة للبطانيات التي نقبع فيها نحن، كم كان النظام بوليسياً وفتاكاً بالأرواح بحيث أبقى علينا ونحن قرابة ٢٠٠٠ سجين مدة ثمان سنوات في هذا المكان دون أن يتسرب لأهالينا خبر وجودنا إلا بعدد الأصابع ممن نالهم الحظ مصادفةً أو عن طريق خاص أن يعلموا ذلك. لقد ظلت هذه التسمية حتى بعد خروجنا من السجن وسقوط النظام في ٢٠٠٣ (المفتوح والمغلق) محل اعتبار وفق العرف ووفق القانون، وكثيرا ما كانت محل تندر من الطرفين كل يشيد بقسمه، أما القانون فقد أوجد عبارة أن يكون التعويض بما يتناسب والضرر ويقيناً أن الضرر الذي أصاب سجناء الأقسام المغلقة أكثر. لقد قدّم الدكتور منصور خدمات جليلة لسجناء الأقسام المغلقة يعجز البيان عن وصفها وأجرى عمليات غاية في الخطورة، لإنقاذ المصابين بالتدرن الرئوي وبإمكانات بسيطة جداً كان يستخرج منهم لترات من السوائل الجاثمة على رئاتهم بسبب حدة الإصابة بهذا المرض اللعين.

يوماً بعد أخر تسوء أحوال النظام على الجبهات فيخسر الأرض التي احتلها ويقع آلاف الجنود من جيشه بين أسير وقتيل، حرب لم نكن نحن المنتمين إلى الحركة الإسلامية سبباً فيها ولا نؤيدها فهي خسارة فادحة للشعبين الجارين، لكن النظام يعبئ جلاوزته على أننا سبب هذه الحرب، رغم أن حزب الدعوة الإسلامية تأسس قبل انتصار الثورة الإسلامية في إيران باثنين وعشرين عاماً، نعم نحن معارضون للطريقة التي تُحكَم بها البلاد فلا انتخابات ولا تمثيل ولا مشاركة للشعب في الحكم، بل ولا عدالة اجتماعية في توزيع الثروة والمناصب في الدولة، ناهيك عن تصريحات صدام المتكررة بأنه ينظر إلى الدين كتراث، وأنه لا يسمح لأي نشاط سياسي سلمي في البلاد (فكل العراقيين الشرفاء بعثيون وإن لم ينتموا)، هكذا يريد حزب واحد، قائد واحد، وما نحن إلا ضحية هذه الديكتاتورية الشاملة التي لم يسلم منها حتى البعثيين أنفسهم فقد صفّى جسدياً منهم ما صفى.

وسط هذا الشحن اليومي والتوجيه المركزي ضدنا لم ينسَ الجلاد الصغير الشرطي حاتم وجهه وهو يقف أمام المرآة وعليه آثار اللكمات القوية التي وجهها له السيد هاشم العذاري والسيد باقر القبنجي وآخرون في الزنزانة ١٣ فيعود علينا وهو يغلي، وقد قال ذلك صراحة للسيد باقر، لكنه هذه المرة استوعب الدرس فيأمر يقظان أن يُطلعه على المخالفات

ويعطي مفاتيح الزنزانات إليه ومجموعة ليُخرِجوا المخالفين، ثم يتولاهم بالضرب المبرح في أرضية القسم ليعيدوهم بعد ذلك إلى زنازينهم، ولكن من هو يقظان؟

في أوج اعتقالات عام ١٩٨٢ وجه النظام بشن حملة واسعة من الاعتقالات كان الغرض منها تكميم الأصوات المناهضة للحرب من جانب وإلقاء اللوم في هذه الحرب على المعارضة، فكان أحد المحققين الجلادين في الحلة لا يُنزِل ضحاياه من صنارة السقف إلا أن يذكر له اسمين لشخصين الأول مسؤوله في التنظيم والثاني شخصاً هو مسؤول عنه، فما كان من أحد المؤمنين إلا أن تخلص من هذا العبء بأن ذكر اثنين من الخمارين المتسكعين سيئي الأخلاق والسلوك ظناً منه أن ذلك سيُقنع الجلاد بعدم وجود أي تنظيم لديه؛ وتفادياً للآلام التي يتعرض لها، لكن الجلاد لم يبال بذلك وحقق معهما على نفس الطريقة حتى اعتقل منهم جماعة كبيرة من مرتادي النوادي الليلية الذين لا يمتون إلى الحركة الإسلامية بأية صلة، وقد حُكم على بعض منهم بالسجن المؤبد وكانوا معنا في نفس القسم، استثمر الجلادون في الأمن هذه القضية، وأخرجوا منهم ثلاثة ليكونوا وكلاءهم وأمناءهم في تقديم الخدمات اليومية من توزيع الأكل وتشخيص المخالفين، وكان على رأسهم المدعو يقظان. لقد منعت الصلاة جماعة بعد أن كانت مباحة

في ١٩٨١، ومنعت قراءة الأدعية، وتم حجب المصاحف وكتب الأدعية، لكن بعض الزنزانات قد احتفظت بنسخة واحدة منها زنزانة رقم ١٢ إذ وضعوها في إحدى الوسادات، ولكي تتم الاستفادة منه -أي من المصحف- يقوم أحد السجناء ممن لديه ذاكرة جيدة في الحفظ ويأخذ القرآن إلى داخل الحمام ليحفظ ما تيسر له ثم يعود ليحفظه إلى آخرين.

واحدة من المخالفات المهمة في نظر يقظان مثلاً أن هذه الزنزانة قد صدر منها صوت سمعه يقظان، فيبلغ رجال (الأمن)، فيطلبون من نزلاء الزنزانة ان يعطوهم اسم من تكلم بصوت عال ليعاقبوه، فيجيبون بأنهم لم يسمعوا أبداً صوتاً مرتفعاً بينهم، فيأمر حاتم بأن يُغلَق باب الزنزانة ببطانيات سوداء وتُطفَأ عنهم المروحة السقفية وهم في شهر تموز، وعليك أن تتخيل ٢٥ متر مربع فيها ٤٠ سجيناً في زنزانة مبنية من الإسمنت ليس لها منفذ للهواء وليس فيها أي أداة تبريد، ولم يكتفِ بهذا بل يأمر بأن يُقطع عنهم نصف حصتهم من الطعام. وعن درجة الحرارة ومعاناتها أتذكر ذات يوم كنت في زنزانة ١٦ وهي أكثر الزنزانات تعرضاً للشمس كونها تقع في الركن الغربي للقسم مما يعرضها للشمس من الساعة العاشرة صباحاً وحتى الغروب، في آب حيث العشرة الأوائل منه وهي التي يُشاع عنها في العراق أنها تذيب المسامير في الأبواب، وحيث كان عددنا ٤٥ سجيناً، وقف

الحاج نادر عبد الله مسيّر من أهالي العمارة وكان عمره يومها قد تجاوز الخمسين، تحت سموم مروحتنا السقفية التي تنوء بزعانفها كما ينوء الكهل بحمل ثقيل على ظهره، وقف وهو يبكي، تفاجأنا مما نرى؛ أو مثل الحاج نادر الهش البش، الذي يروي لنا الحكايات الطريفة عن أيام شبابه ونوادر عمله في مطعمه في العمارة، أمثله يبكي؟ فيجيب بصوت متهدج، إنه الحَر، إني اشعر وكأن روحي (مسحونة) أي أصابها الهذيان من هذه السموم، أقول هكذا كان الحر يفعل فعلته فينا، فكيف لو أغلق باب الزنزانة وقطعت الكهرباء عن المروحة اليتيمة في الزنزانة؟

وحين يحل الشتاء فهناك معاناة أخرى لمن يأتي دوره في الاستحمام ففي كانون الأول أو كانون الثاني أو شباط تقترب درجات الحرارة من الصفر وعلينا أن نستحم بماء بارد، ماء الإسالة في الصيف يأتي بارداً نوعاً ما، وفي الشتاء دافئاً نوعاً قياساً بالماء الذي نخزنه بأواني، ولكن أنى لنا بماء الإسالة وقد منع الجلادون وصوله؟ فما لنا إلا استخدام الماء الذي نجمعه في الأواني، يقول محمد عبد الحسن عبود الكندي من أهالي النجف/ المشخاب، يقول: ذات يوم كان الجود بارداً جداً في الشهر الأول من عام ١٩٨٣ جاءني الدور لأستحم وكانت حصةً وفيرة من الماء وعليَّ أن استثمر الفرصة لأزيح كل ما لحق بي من دهون جسمي، دخلت

الحمام وبمجرد خلع ملابسي بدأت ارتجف تناولت قدحاً من الماء صببته على قدمي، اقشعر بدني، ثم على قدمي الآخر، أنها حيلة نفسية، فليس بإمكاني أن أضع الماء على رأسي ابتداءً، أخرجت كيساً فارغاً مشبكاً من النايلون لأستخدمَهُ كليفة للجسم، بدأت بحك ساقي فيه بقوة مع صب الماء البارد لكي أخدره كي لا يحس بالبرودة وهكذا شيئاً فشيئاً حتى رقبتي ثم أغمضت عيني وصببت الماء على رأسي، الحمد لله انتهت المهمة ولكني حين خرجت وجدت جسمي وقد أُدميَ من شدة الدلك وخشونة الليفة.

ويقول جاسم حسن كاظم من أهالي ديالى/ جديدة الشط: كنت مشرفاً على الماء في كانون الثاني من عام ١٩٨٢ ورأيت وفرةً لا بأس بها في الماء وكان ذلك اليوم بارداً جداً، فقلت لمن يريد أن يسبح أعطِه ثلاثة أباريق وكانت حصةً كبيرة قياساً للمتعارف، فقال هادي من أهالي بغداد، أنا أريد، فدخل الحمام وبعد خمس دقائق فقط خرج مسرعاً وهو يرتدي ملابسه الداخلية فقط ورمى بنفسه وسط الزنزانة وجسمه كالخشبة اليابسة فتجمعنا عليه ودفأناه بما لدينا من الأغطية حتى عادت الروح إليه.

استشهاد السجين الحاج رزاق

مرّ يقظان وكعادته يراقب الزنازين أثناء نشرة الأخبار والتي كانت أبان سنوات الحرب الأولى تمتد من الساعة الثامنة حتى الساعة الحادية عشرة ليلاً خطابات الديكتاتور ولقاءاته وتكريمه لأمراء الجيش وضباطه ومراتبه وكان علينا ان نلوذ بالصمت كل هذه المدة، مرّ بالزنزانة ١٦ فوجد الحاج رزاق من أهالي الرميثة محافظة السماوة يطالع الجريدة اليتيمة التي كانوا يوزعونها على الزنازين، وهي المطبوع الوحيد الذي يقع بين أيدينا، فطلب يقظان من الحاج رزاق ان يدعها وينصت للأخبار فرفض الحاج رزاق بتحدي وقال له: هذه جريدة الحزب والثورة -ساخراً في قلبه وجاداً في ظاهره- وانا اقرأ فيها الأخبار فلماذا ادعها؟ فانزعج يقظان من رده وتوعده قائلاً: بسيطة إلا أخليهم يطلعونك ببطانية، يعني أنه يموت ويخرجونه من الزنزانة ببطانية. في اليوم الثاني أخرجوا الحاج رزاق وبعد الضرب والتعذيب وضعوه على منضدة على بطنه وتركوا رأسه خارج المنضدة ثم جاءوا بقنينة غاز حديدية (تزن حوالي ثلاثين كيلو غرام) وربطوها بعنقه وهو في الهواء وربطوا أخرى برجليه وهم يتقافزون حوله كالقرود، وما هي الا ساعة حتى أعادوه إلى الزنزانة وقد تضررت فقراته العنقية وحبله الشوكي، فبدأ بالهزال والضعف وفقدان الشهية وبعد أشهر معدودة فارق الحياة.

وبمثل هذه الطريقة استشهد عبد الحسين ثامر (أبو فرقان) من أهالي البصرة.

محنة الماء في أبي غريب

الماء أرخص موجود وأغلى مفقود، احتلّ ثلاثة أرباع الكرة الأرضية، لكي يكون أخر المفقودات إذ لا حياة بدون الماء، لا تُبنى بناية أو مرفق عام إلا وتكون وفرة الماء شرطها الأول، ومتى نمت ونشأت حضارة بدون الماء؟ التفت الجلادون بعد ضرب الجلاد في زنزانة ١٣ وما يتعرضون له في الجبهات من هزائم وخسائر إلى تشديد الضغط علينا مادياً ومعنوياً، مادياً بتقليل كمية الماء ومعنوياً بسحب كل كتب المصاحف والأدعية ومنع كل وسائل الكتابة منعاً باتاً. لكن البشر عامة والسجناء خاصة هم أعظم مخلوقات الله قدرةً على التكيف مع الظروف، فلكل زنزانة مسؤول خاص على الماء يوزعه علينا بعدل وترشيد. يقبل الجميع بما يقترحه مسؤول الماء لأنهم يدركون جميعاً أن مصلحتهم في القبول، فهم على اطلاع بالكمية وعلى اطلاع بالحاجة، يعرفون الموارد ويعرفون النفقات، فإذا أضفنا لذلك ما يحملونه من الأخلاق وخاصةً الإيثار سنتخيل مقدار الرضا والقناعة بسلطة مسؤول الماء. توجيهات المسؤول المائي كالتالي:

الاستحمام كل عشرة أيام ولكل سجين ثلاثة أباريق من الماء بما يعادل ثلاثة لترات في الاستحمام، قدح ماء ما يعادل ٢٠٠ ملليتر للتغوط، ربع قدح ٥٠ ملليتر للتبول، إبريق للاغتسال إذا تعرض أحدنا للاحتلام (غسل الجنابة)، أما للشرب فكل ساعة قدح واحد لغاية الساعة ١٢ ليلاً، ولا أنسى غسل ثلاثة قطع اثنان منها داخلية كل عشرة أيام كذلك عبر متطوعين لغسل كافة ملابس السجناء في الزنزانة اقتصاداً في الماء.

في شهر رمضان لهذا العام حيث صادف حلوله بين حزيران وتموز كنا نُمسك ونحن عطاشى إذ لا يكفي قدح واحد ونحن على مقربة من الإمساك أن يروي ظمأنا، تحايلنا على أنفسنا أنا وعباس سعيد من البصرة بأن نبقى ساعتين لا نأخذ حصتنا، وقبل حلول الإمساك حيث لنا حصة قدح أيضاً فنطلب من الأخ جاسم حسن كاظم من أهالي ديالى وهو المسؤول عن الماء ان يعطينا في الساعة ١٢ ليلاً ثلاثة أكواب دفعةً واحدة، وننام، وحين نستيقظ عطاشى فليس لنا من حصة ولا يوجد ماء كافي للوضوء لكي نتمضمض به فنمسك ونصلي وننام عطاشى.

ما يؤلم في قصة وغصة الماء أن القسم، بل مجمل السجن لا يعاني من شحة في تجهيز الماء، فعلى مرأى ومنظر منا يتدفق الماء من الأنابيب المعطوبة لتنمو نباتات

البردي والقصب بجوار القسم الذي نحن فيه حيث نغلي عطشا، كالعير في البيداء يقتلها الظمأ... والماء فوق ظهورها محمولُ.

كان معنا كهلاً تجاوز الستين من عمره من أهالي كركوك اسمه الحاج خليل من أهالي محلة تسعين، محافظة كركوك، بدين، مُشعِر، أبيض البشرة، معادٍ للتدخين بشدة، وكان مؤمناً بمذهب أهل البيت ومولعاً بحبهم، فمن مظاهر حبه أنه كان يطالب بفتوى شرعية تُلزمُ كل من ينتمي إلى العلويين من نسل فاطمة وعلي عليهما السلام أن يضع شارةً معينةً على صدره أو في يده أو على منكبيه لكي يتميز عن غيره فهؤلاء يجب أن يكون لهم تعامل خاص، ومما حكاه لنا أنه يوم كان في الابتدائية زارهم الملك فيصل الأول فكان نشيدهم في استقباله (أهلاً بمولانا الملك... ملك وادي الرافدين) وما ذلك إلا لأن الملك يدعي أنه هاشمي. الحاج حسين تكلم مع مسؤول الماء ذات نهار صيفي قائظ أن يزيد له من حصته في الاستحمام لكثرة ما عليه من شعر أولاً وبدانة جسمه ثانيا وكبر سنه ثالثاً، فاستجاب له مسؤول الماء بأن صرف له ضعف الكمية أي ستة أباريق وتنازل هو أي مسؤول الماء عن الاستحمام، فخرج من الحمام وهو يقول لجاسم (إذا طلعنا من السجن إلا أعزمك بكركوك وأذبحلك طلي)، لقد كان لكبار السن أضعافاً مضاعفة من المعاناة، ولكنهم كانوا أشداء

صبورين، لم ندرك بعض معاناتهم حتى وصلنا اليوم إلى مثل أعمارهم، فكثيراً ما كنا نمزح في زنزانة ١٦ مع الأستاذ المربي الحاج حسين من أهالي الشطرة وهو بدين أيضاً وكان عمره بين الخمسين والستين وهو يضع لباسه الداخلي فوق جدار المرحاض قبل قضاء حاجته، نمازحه (ها رفعت العلم، أدري أنت تريد تسبح، بعد شيطلعك والناس لازمه سره)، فيتقبل ذلك منا ولا يجيب بشيء غير ابتسامة تدل على نقاء القلب وقوة التحمل. كان معنا الحاج أبو ناهض من الإسكندرية/ محافظة بابل وكان عمره تجاوز الستين، ذا جثة ضخمة وذراع مفتول وقبضة خشنة، يعمل في المنشأة العامة للصناعات الميكانيكية، ذات يوم وقد بالغوا في سوء تغذيتنا وقت الصيف فبين يوم ويوم يأتوا لنا بمرق يسمونه مرق السلق وهو نبات يستخدمه العراقيون لصنع أكلة (الدولمة) تشبه أوراقه أوراق العنب في حجمها، كنا نطلق على هذه (المرقة) بـ(المرقة النظيفة) لأننا حين نضعها على الرز المطبوخ كأننا نضع الماء فلا تترك من أثر على الرز الأبيض، إذ ليس عليها من معجون الطماطم إلا رمز، وليس فيها من لحوم أو حتى بصل؛ نظر إليها أبو ناهض بغضب وأخذ الإناء من بيننا وتوجه صوب نافذة الزنزانة وأخرجه وقال بصوت خجول يسمعه جلنا (إلهي هذا هو طعامنا أفيرضيك هذا، أخرجت الإناء لكي تراه)؟ لحظات أحس بعدها بالندم وعاد

بالأناء إلى مكانه فالله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ولكنها شقشقة هدرت ثم استقرت.

ضيق المكان

ارتفعت الأعداد في عام ١٩٨٢ كما أسلفت، وضاقت الزنزانات بأعدادنا ورغم كل هذه البلاءات من التعذيب وقلة الأكل والماء إلا أن نفوسنا لازالت بقوتها وإيمانها تذلل كل هذه الصعاب، فجلنا شباب في العشرين، وطموحاتنا وآمالنا وإيماننا كلها تعزز فينا القوة والثبات والصبر واليقين، لازلنا نعد السجن فرصة للبناء، ومكان تحدٍّ للجلادين، واختاره الله لنا بعنايته، وأرادته، ليصنع منا قادة الغد وأبطال المستقبل، مثل هذه المعنويات موجودة في الأعم الأغلب من السجناء، فهم من بيئة واحدة ان لم يكونوا منتمين لحزب الدعوة الإسلامية فهم من أنصاره لأنهم متدينون أو من عوائل متدينة، والجميع يلهج بقول الإمام الشهيد السجين موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام (اللهم إني طالما كنت أسألك أن تفرغني لعبادتك وقد اسجبت فلك الحمد مني على ذلك)، ومعظمهم هنا بأعمار متقاربة فحبل المشنقة ما كان ليفارق رقابهم لولا كون أعمارهم لم تبلغ العشرين، وهم من وسط ثقافي متقارب أيضاً فهم أما طلبة إعدادية أو في المراحل الأولى في الجامعات.

الأعـداد تتزايـد والمكـان يضـيق لكـن زنزانـات (الأمـن) العامة قد علمتنا طريقة (علـب السـردين) فـي النـوم وهـي أن نتخالف في رؤوسنا وأرجلنا، ورغم ذلك تواجهنا مشكلة من يقوم إلى قضاء حاجته في المرحاض ليعود فلا يجد مكانه إذ تلتحم الأجساد مجدداً، ومشكلة أخرى هـو كيفية الوصـول إلى المرحاض إذا كان صاحب الحاجة في الطرف البعيد منها فكيف وأين يضع قدمه ليصل؟ ومشكلة ثالثة في بعض من يـرون كـوابيس أثنـاء المنـام فيتحركـون بحركـات عنيفـة، ففـي زنزانـة ١٢ مـثلاً كـان السـجين نغـيمش عبـود وهـو مـن قضـية حسين زغير وكلاهما من محافظة الناصرية، والأخير لـم يكـن على ما يرام من حيث الوثاقة والتدين والتخابر مع (الأمن)في حينهـا، نغـيمش اسـتيقظ مرعوبـاً ذات ليلـة وهـو يصـرخ (والله متعمد، والله متعمد)، فاستيقظنا جميعاً ونحن نـرى دمـاً يخـرج من أسنانه، ما بك فقال هذا وأشـار إلـى السـجين سـعيد مسـلم جبـر الحمـداني مـن أهـالي النجـف وكـان شـاباً ورعـاً، وقـال: (هذا دفرني بسنوني) أي هذا ركلني برجله على أسناني، فقـال له أكثر من واحد، إنه يحلم، إنه كابوس، ونغيمش مصـر علـى أنه متعمد، حتى أقسم له السجين سعيد بأغلظ الأيمان.

وفـي زنزانـة أخـرى أظنهـا كانـت ١٦ كـان السـجين عبـد الأميـر الظـالمي مـن أهـالي النجـف وكـان بـديناً نسـبياً، ولكنـه شاب مرح، كـان مكـان نومـه قـرب بـاب الزنزانـة وهـو الطـرف

البعيد عن المرحاض، وفي الساعة الثانية ليلاً شعر عبد الأمير باحتباس مثانته، فاستيقظ وكل همه قضاء الحاجة الملحة، ظلَّ يقلب نظره يميناً وشمالاً، ثم أسدل كرشه على النائمين وصار يدفع بدنه بيمينه وشماله كمن يسبح في نهر فاستيقظ الجميع، فضجر البعض منهم سائلين: معقولة أنت تفعل هكذا؟ فأجابهم ضاحكاً أنا شخصياً يوم دخلت سجن (أبو غريب) وضعت العقل في استعلامات السجن ودخلت وأخبرت الحرس أن يسلموني إياه عند إطلاق سراحي، فضحك الجميع من جوابه.

وفي زنزانة أخرى كان السجين مهدي من منطقة الدولعي في بغداد ينام بجواره السجين سلام الشديدي بالتخالف أي أن رجلا السيد سلام بجوار رأس الأخ مهدي وفي منتصف الليل فزّ السيد سلام وهو يصرخ مرعوباً إذ وجد أصابع إحدى رجليه بين أسنان مهدي يقضمها بقوة، وعندما أيقظوه ضحك مهدي وقال: والله يا أخواني رأيت في المنام وكأني أأكل تفاحة فقضمتها بقوة واذا هي رجل هذا السيد المسكين، وتحول الهلع والفزع إلى ضحك وتندر.

حكاية (أبو هيفاء)

تفاقمت في هذا العام الأمراض الجلدية والتدرن (السل الرئوي)، فالأماكن المظلمة والرطوبة، وسوء التغذية عوامل تؤدي إلى انتشار مثل هكذا أمراض كان عباس رعد من أهالي كربلاء وكان في زنزانة ١ وكان له صديق في زنزانة ١٨ على ما أتذكر فسأله صديقه ذات يوم عن صحته فقال: الحمد لله وهو ينهش بأفخاذه من الحكة صعوداً ونزولاً، ثم قال له هل لديك (فلوس) يعني مال؟ فقال له: الحمد لله ولا فلس، يقولها بصدق وطيب خاطر، الرضا بقضاء الله وقدره تجلب السعادة حتى في أحلك الظروف، الأمراض الجلدية وخاصة الجرب غزت معظم الزنازين، بسبب حشرة القراد التي استفحلت في القسم جراء كثرة الأعداد وقلة الماء وعدم تعرضنا للشمس ولا دخول الشمس إلى الزنازين، حتى أن البعض قد تهرأت أجهزتهم التناسلية من كثرة الحكة؛ أما التدرن (السل) فقد انتشر بأنواعه السل الرئوي، وسل المثانة، وسل العظم، وسل الغدد، وأخطر أنواع السل؛ السل الرئوي وأكثرها إيلاماً سل العظم، لقد أصيب به السجين أبو هيفاء، وكان عمره فوق الخمسين، كان صابراً محتسباً، كان لا يسمع خبراً، أو روايةً أو قصة حلم من أحدنا إلا قال (قضيتنا تحب صبر)، أصيب بسل في عظم ساعده الأيسر على ما أذكر وظل طوال عام أو أكثر وهو يتقيح، وهو صابر راضٍ بما ابتلاه به

الله، أبـو هيفـاء هـذا واسـمه حسـين محمـد كـاظم مـن أهـالي ديالى، كان نموذجاً فريداً في إيمانه الفطري ورضاه بما كتبَ الله عليـه، مـن حكاياتـه أنـه أُعتُقِـل فـي (أمـن) البصـرة فسـأله المحقـق هـل أنـت مـن حـزب الـدعوة؟ فأجابهم بكـل بـرود واطمئنان: وهل حزب الدعوة من (ربع) الله؟ يعني من أهل الله، فقـال المحقـق نعـم، فقـال: (سـجلني ويـاهم)، أي اكتـب اسمي معهم، ليس ذلك مراوغةً أو تهرباً، ولا التفافاً أو خداعاً للمحققين، بل هو صادق تماماً، فلم يكن الرجل من المنتمين إلى حزب الدعوة إطلاقاً ولأنه رجل متدين، فقد تم اعتقاله، فالحملة القمعية كانت ضد كل ما هو خير في هذا البلد. كـان غالبـاً مـا يحـدث غيـر المصـلين وهـم معـدودون جـداً فـي الزنـازين، أن صلوا واذكـروا الله فنحن في بلاء وامتحان كما تـرون، وكـان أحـدهم يمتنع عـن ذلك، فقـال لـه ذات يـوم: لا داعـي للحـديث معـك فأنـت ممـن بـال الشـيطان فـي آذانهـم وضـحك وانصـرف، الجميـل فـي الحكايـة أن هـذا الرجـل لـم ينزعج منه ولم يغضب لأنـه يدرك إيمان وفطرة (أبو هيفاء).

وفي هذا العام أيضاً حصلت وفيات بسبب الأمراض وعدم وجـود العـلاج والمعاينـة منهـا وفـاة الشـهيد المرحـوم السـيد أحمد كاظم البخاتي من أهالي الشعلة لقد كان المرحوم في أحد الزنازين من ١ إلى خمسة وكان لديه أخوين آخرين في ذات القسـم أحـدهم ناصـر فـي زنزانـة ١٢ وكانـت الأخبـار

تتوالى أن أخيه يعالج روحه وهو بين الحياة والموت ويتقيأ دماً، وهو يتوسل إلى الجلادين أن يكون بجانبه فيرفضون ذلك رفضاً قاطعاً وقاسياً حتى توفي رحمه الله وقد علمت فيما بعد عن هذه العائلة أنها منكوبة بحق فقد اعتقل كل من حيدر وعبد الحسين أولاد السيد كاظم البخاتي وحكما بالإعدام، وحكم على أشقائهم ناصر ومحمد وأحمد بالسجن المؤبد واعتقل السيد كاظم نفسه وزوجته وأطلق سراحهما فيما بعد، عائلة من خمسة أولاد وأبويهم كلهم ذاقوا مرارة الظلم وحر السيف من قبل الجلادين.

بلغت أمراض الحكة والجرب فينا مبلغاً، فجاءنا طبيب برفقة أحد الجلادين، وعندما وصل إلى غرفتنا قال لنا لا تخافوا ولا تقلقوا الأمراض الجلدية منتشرة بينكم، ولكنها ليست خطرة (ما تموّت)، ومعها ابتسامة كل فهمها حسب فهمه، شخصياً أخذت الأمر على محمل الجد وهو يبعث فينا الأمل ويبث فينا الروح المعنوية، وآخرين قالوا أنها ابتسامة التشفي، أنها ابتسامة صفراء ولو لم يكن من رجال الأمن لما اطمأنوا إليه وجاءوا به إلى هذه الأقسام التي لا يرى احد فيها الشمس.

رغم قساوة الأمراض بأنواعها والتدرن الرئوي خاصة، إلا أننا بدأنا نتعايش معها بما بقي لدينا من حول وقوة، فهي في نظرنا باتت أمراضاً مزمنة، ولكن المشكلة مع الأمراض

المصحوبة بالألم كالتهاب الأسنان والحصى المتحركة في الكلى أو الحالب، أو السرطان، فآلام الأسنان في عز الشتاء لها مذاق خاص ابعد الله القارئ عنها، يتمنى المرء لو يُقلَع فكُّه مقابل أن ينتهي الألم، كنا كلما ندعوهم لإخراج المصاب قالوا: (خل يتجمعون يصيرون أكثر من واحد بكل زنزانة ونطلعهم سوية)، هكذا بكل برود، أنا شخصياً أصبتُ بالمغص الكلوي أكثر من مرة، أعقبها تبول دموي لخدش الحصى جدار المثانة أو جدار الحالب، لم أجد أفضل من أن انحني واضعاً ركبتي قريب من ذقني وأتقلب من باب الزنزانة إلى نهايتها، ذهاباً ومجيئا. ذات يوم وبينما كان السجين جاسم حسن كاظم من أهالي ديالى مصاباً بالتدرن وأعطي علاج التدرن المعروف أقراص (تي بي) وحبوب (INH) وكبسول (ريفادين) -هكذا سمعنا أسماء الأدوية وحفظناها- بدأت حالته تسوء يوماً بعد آخر، تورم في وجهه وأقدامه، تعرق فضيع، حكة مستمرة، فقدان للشهية، وكلما طُلبَ من الجلادين إخراجه للمستشفى، قالوا لا تراجعونا عن أحد حتى يموت، ذات يوم جاء رجل (أمن) جديد، فاكتشف أحد رجال الخدمات طريقةً لأقناعه بإخراج جاسم إلى المستشفى وهو بأنفاسه الأخيرة إذ لم يعد قادراً على الوقوف، فقال لرجل (الأمن) إن هذا السجين ميت لا محالة فبدل ان يموت عندنا في القسم أرجو ان تأخذوه ليموت هناك، فتفاجأ من

قوله، وقال ولماذا يموت؟ هيا احملوه إلى المستشفى فحمله السجين سعد التميمي على ظهره وأدخله المستشفى؟ تُرى ماذا نتوقع أن يكون مرضه عدا التدرن؟ إنه كان يتحسس من علاج أقراص (التي بي) فمجرد أن قطعها الطبيب عنه واستبدلها بحقن (الستربتومايسين) وحقن الكورتيزون لمدة أيام حتى عاد إلى صحته. أحد السجناء لا يحضرني اسمه الأن لديه آلام فضيعة في أسنانه طلب من الدكتور سعد أن يقلع السن المصاب بأي طريقة، لم يتوفر في القسم الا (سكور سبانة) وهي آلة تستخدم في تأسيسات الماء، قد نسيها أفراد الصيانة فاحتفظ بها في القسم حاول الدكتور سعد ان يقلع السن بواسطتها الا أنه فشل في ذلك فزاد الم السن أضعافاً مضاعفة. السيد محمد هاشم (أبو رشا) من أهالي الناصرية كان معي في الزنزانة رقم ١٦، كان إذا جن عليه الليل بدأ ينهش بجسمه كل جسمه، عندما سألته عن السبب، قال إنه قد أصيب بالسرطان في كبده أثناء وجوده في المديرية العامة، ظل يصارع المرض حتى استشهد في هذا العام في زنزانة أخرى.

صورة الديكتاتور وذوي العاهات النفسية

لم يسلم من حملة النظام على حزب الدعوة الإسلامية حتى أولئك الذين يعانون من مشاكل نفسية واضطرابات عقلية رغم تشخيصهم بسهولة ومعرفة ذلك على تصرفاتهم من أول جلسة لرجل عادي فما بالك حين عرضهم على طبيب، فرحان (أبو سرحان) واحدٌ من أولئك الذين تعرضوا لهذا القمع الوحشي حتى استشهد رضوان الله تعالى عليه في زنزانات سجن أبي غريب.

فرحان رجل خمسيني، أعزب ذا بشرةٍ ميالة إلى السمرة، ضخم الجثة، يسكن مدينة الثورة في بغداد مدينة الصدر حالياً، يستأجر غرفةً واحدة، كل ما يملكه راديو وقاموس عربي إنكليزي، ظل مرافقاً له طيلة حياته حتى حفظه من الغلاف إلى الغلاف، لست متأكداً من مرضه هل هو الشيزوفرينيا (انفصام الشخصية) أو الجنون الإدواري، أو البله، لكنه في كل الأحوال مصاب نفسياً، يعمل عاملاً في البناء، ينهض فجراً إلى (مسطر) العمال ليعود في المساء حاملاً معه عشاءه، ثم يذهب فجراً وهكذا، صادفه أكثر من مرة الحراس الليليون حتى صار معرفاً لديهم فلا يحاسبونه ولا يشكون فيه.

ذات صبح وبعد أن أشرقت الشمس رآه أحد الرفاق من أعضاء حزب البعث المجرم وقد داس على جريدة فيها

صورة الديكتاتور كما هي العادة في عدد من جرائد العراق التي تصدر يومياً، فوشى به إلى الفرقة الحزبية ليقتادوه إلى مديرية (أمن) الثورة، وبعد أن نزعوا جلده من الضرب والتعذيب تبين لهم أن الرجل مريض نفسياً فأحالوه إلى مركز الشماعية ووضعوه مع المجانين من ذوي الجنون الاطباقي.

لم يتحمل أبو سرحان هذا الوضع فهو أعقل الموجودين، طلب مقابلة الطبيب وإخراجه من هذا المشفى، راجع الطبيب ملفه، وأدرك خطورة إخراجه من هذه المصحة فهو مطلوب للجهات الأمنية، حاول إقناعه بأية طريقة، فلم يفلح، ثم قال له بالحرف إذا أخرجتك من هنا فستذهب إما إلى السجن أو إلى الإعدام؛ فقال وليكن ليس مهماً، المهم أن تخرجوني من هنا؛ وقع الطبيب وإدارة المستشفى في حيرة؛ فهم من جهةٍ متيقنين أن الرجل غير سوي وواجبهم الطبي يحتم عليهم أن يبقوه في المصحة، ومن جهة أخرى فالمصحة لا تخلو من الرفاق ووكلاء السلطة، وأي وشاية بأنهم يتعاطفون مع مريض بحجة أنه مجنون سيكلفهم ربما حياتهم؛ فاستجابوا لطلبه وأرسلوه إلى مديرية (الأمن) التي أحالته إلى المحكمة فوراً ليحكم عليه بالسجن المؤبد لأنه داس على جريدة فيها صورة الديكتاتور. دخل السجن وهو مريض نفسياً ومصاب بالسكر والضغط، ويلهج ليل نهار بثروته التي جناها من هذا البلد الغني أنها جهاز مذياع صغير (راديو) وقاموس المورد

عربي إنكليزي وأبريق كبير من النحاس (المصخنة) يحفظ بها الماء، هذه ممتلكاته التي صودرت منه في قرار الحكم، وهو يطالب بها كلما مر رجال (الأمن) على الزنازين. وحتى لو لم تصادر فمن ذا الذي يعيدها له وأنى له ذلك وقد غيبوه وراء الشمس. كان السجين أحمد رسول (أبو فاطمة) من أهالي كربلاء يراقبه ويتابعه ويهتم بأكله كي لا يرتفع منسوب السكر لديه ظل أربع سنوات معه حتى انتقل إلى زنزانة رقم ٦ فغفل عنه رفاقه قليلاً فأكل على غير المعتاد فارتفع السكر في دمه فتوفي رحمه الله. جاء الجلادون بعد أن أخرجوه من الزنزانة يسألون السجناء عن عنوانه، أهله، فلم يحصلوا على جواب لأن الجميع لا يعرف حقاً عنواناً واضحاً له.

جاسب عبد اللطيف أبو عادل من أهالي الناصرية ناحية سيد دخيل لم يكن أحسن حظاً من أبي سرحان رحمه الله، فهو شارد الذهن لا يدرك الزمن ولا الأحداث من حوله، مزق صورة الجلاد ذات يوم من دون قصد ووعي، الجنود الذين معه يعرفون حالته النفسية، ولطالما توسطوا له من أجل تسريحه، فلم يفلحوا، فغدوا حيارى إن أخبروا عليه الجهات الاستخباراتية يكونون قد جنوا عليه ويدركون مقدار القمع الذي يتميز به رجال الاستخبارات، وإن لم يخبروا عليه سيساقون بتهمة التستر على جريمة، فمالت نفوسهم إلى الخيار الأول، فالبشر تريد دفع الأذى عنها قبل كل شيء،

فسيقَ إلى صنارة التعذيب، حتى كُتبت له إفادة بما يشتهي الجلادون وحكم عليه بالسجن المؤبد وقضى عشرة سنوات محسوداً من بعض السجناء لأنه لا يدرك أين هو ولماذا هو ومتى يخرج ومتى دخل، المشكلة أن هذا المسكين لا يعلم تفاصيل وحدته العسكرية وعنوانها بالضبط وتابعيتها وعندما خرج من تلك الطامورة بعد كل تلك السنين أصرت دائرة السجن على أن ترسله مخفوراً إلى عنوانه العسكري وكلما بسألونه عن وحدته ومكانه الذي اعتقل منه لا يعلم فكل ما يعرفه أنه في كركوك، وظل يتنقل من موقف إلى موقف ومن تسفير إلى تسفير حتى مرت ثلاثة أشهر ليجدوا بعد ذلك عنوانه ويعود إلى أهله.

وما دمت أتحدث عن ذوي العاهات النفسية فلا بأس أن الفت عناية القارئ إلى ما سيمر عليه من قصة الشهيد عودة من أهالي البصرة الذي أعدم داخل السجن بتهمة تمزيق صورة الرئيس.

الأمل مع الألم

رغم القسوة التي كنا نعاني منها، والظروف السيئة التي نمر بها، إلا أننا لازلنا نشعر أن السجن أهون من التحقيق وأن الأيام الصعبة انتهت، وكل ما نتعرض له اليوم لا يعدو عن كونه إيلاماً وتعذيباً بلا مقابل، فهم لا يجبروننا على الاعتراف

بسر من أسرارنا ولا اسم شخص نسبب له الموت أو السجن كما في التحقيق وعلينا وزر ذلك العمل، زيادة الأعداد تضيّقُ المكان ولكنها توسع المعارف، فمع كل سجينٍ جديد نتعلم حكايةً جديدة، عن مدينته، عن عائلته، عن قضيته، عن معارفه وعلومه، عن طباعه وسجاياه، فنحن في مجتمع كلما تزايدت أفراده كلما تنوعت مشاربه، كل ذلك يزيدنا ويخفف عنا وطأة السجن، ولو لم تكن الأعداد الإضافية مفيدة، لما كانت العقوبة في المحجر الانفرادي، فمع قلة العدد يزداد الملل والسأم وعيش الوحدة لا ينسجم وطباع بني آدم الذين ولدوا يأنسون بإخوانهم في الخلق فضلاً عن إخوانهم في الدين. رغم أن هذا ليس مراد الجلادين ولا ضمن أهدافهم، ولو كان كذلك لسمحوا بفتح الزنازين على الأقل في القسم الواحد وسمحوا لنا أن نلتقي ببعضنا، هم يزيدون الأعداد لإيذائنا وإيلامنا من جهة، وربما لعدم وجود سجون محصنة تستوعب هذه الأعداد، الأيام تمر مسرعة، فلا رتابة ولا روتين نكتشف في كل يوم ما يجدد حياتنا ويزيد من ايماننا ويخفف عنا وطأة الفراق والتعذيب الذي نتعرض له صباحاً ومساءً. نعم كان العام ١٩٨١ أكثر انفتاحاً ففيه صلاة الجماعة والسماح بالقرآن الكريم وكتب الأدعية، وفيه المحاضرات العلنية، وبعض أدوات الكتابة وفيه قراءة الأدعية من أحد ى الزنزانات بصوت عذب وشجي هو صوت الحدث رعد

شامل من الأحداث المحكومين ثلاث سنوات، وصوت آذان موحد لسجين حدث أخر هو حيدر من أهالي الدغارة، محافظة الديوانية، كل ذلك قد تم منعه، لكننا لا زلنا في أوج معنوياتنا.

مع كل هذه القسوة كان هناك تحد وإصرار وكانت هناك مواقف بطولية وشجاعة تلهب الحماس وتقوي العزيمة، في زنزانة ٧ مثلاً وبعد جولة من جولات التفتيش المستمرة على الزنازين وجدوا أوراق سكائر مكتوب عليها بعض الأدعية، فاستشاطوا غضباً وتوجهوا لعقاب جميع السجناء فما كان من السجين سعد غايب من أهالي ديالى إلاّ أن ينبري للجلادين ويقول هي لي، رغم أنها لم تكن له وإنما فعل ذلك تطوعاً، وفي زنزانة ١٧ مرّ المنافقون ليلاً فرأوا أحد السجناء قائماً متوجهاً إلى المرحاض لقضاء حاجته خارج الأوقات المسموح بها، فسجلوا اسمه وكان سجيناً نحيف البدن، ضعيف القوى اسمه حسين رحمن من أهالي الديوانية، وفي اليوم التالي جاء المنافقون ومعهم جلادوا السلطة لينتقموا من (المخالفين)، ولما وصلوا إلى الزنزانة ١٧، قال الجلاد (وينه هذا اللي البارحة كاعد نص الليل من دون الباقين)، فقام جاسم من أهالي الدجيل ليقول أنا هو، تطوعاً عن حسين رحمن وأنزلوه ليتلقى أنواع الضرب المبرح ويعود راضياً قانعا مؤثراً على نفسه ولو في تلقي التعذيب. كان السجين

كامل خلف جاسم الكناني كثيراً ما يجادلهم في أوامرهم وتعليماتهم، ذات يوم قرروا ربطه إلى مشبك الزنزانة وقوفاً، فلما حان موعد الصلاة فتح قيده ونزل يصلي، واستغرب المنافقون من هذا العمل فأخبروا الجلاد، وحين سأله لماذا فتحت قيدك ونزلت؟ قال لهم حلّ وقت الصلاة ويجب أن أصلي. فغضب الجلاد من هذا الجواب وصرخ بكامل: أنت معاقب كيف تفتح قيدك لوحدك وتصلي؟ فأجابه كامل بكل برود: لم أكن أعلم بهذه التعليمات، فازداد الجلاد غضباً وأمر بربطه وتقييده إلى الشبكة مجدداً. صور البطولة هذه ترفع عنا ألم الأجساد، ليحل معها سمو الروح، والأمل في المستقبل، والرضا بالمصير، والقناعة بالطريق، وكل ذلك يهون الآلام ويغذي الآمال. هل للتعلق بالغيب علاقة بهذا الاطمئنان والشعور بالقوة؟ أجيب قاطعاً نعم، الإيمان بالله وبالغيب عموماً يوفر علينا الكثير من التعب والإعياء ويخفف مرارة الشعور بالظلم، الإيمان بالله يعني الاطمئنان إلى العوض المدخر، والحكمة البالغة في تقديرات هذا الكون وسننه في الحياة، المعاد بما فيه من ميزان حق ومحكمة عدل، اليقين بأننا تحت أنظار قوي قاهر، وأن الحياة زائلة، عابرة، لا تساوي شيئاً أمام الآخرة الباقية، قيم دينية مثل الصبر والحلم وكظم الغيظ والرضا والتسليم، كل ذلك هون من السنين

ليجعلها وكأنها أيام تمر مر السحاب وان كانت غير عادية بعذاباتها وحرمانها والجور الذي انصب علينا فيها.

ثقافة تشبه التنظيم

في ظل هذه الظروف وفي الزنزانة رقم ١٢ التقيت باثنين من أهالي الناصرية وهما المرحوم السيد رحيم الحصيني الموسوي والأخ أحمد يونس وتولوا في الزنزانة عملية تثقيف يبدو وكأنه ثقافة عامة حول مفاهيم إسلامية لبناء الشخصية الحركية الواعية تركزت حول أصول الدين وفروعه كالتوحيد والنبوة والمعاد والعدل والعبادات اليومية كالصلاة والصوم والحج والزكاة، والمفاهيم الأخلاقية كالصدق والأمانة والصبر وكظم الغيظ، ثم المفاهيم الحركية كالطاعة والعام والخاص والثقافة السياسية العامة كعلاقات الدول والأمم المتحدة والمنظمات الدولية، كل ذلك على ما يبدو وفق منهج في ذهنيهما، شخصياً كنت من المتعطشين إلى مثل هذه المفاهيم إذ لم تكن ثقافتنا الدينية نحن خارج السجن على القدر المطلوب، كما أن أعمارنا وسني تجربتنا لم تكن لتسمح بتلقي هذه الأفكار بالشكل الكافي، اندفعت الزنزانة بقوة نحو هذا النوع من الحركة وفاتتنا وفاتت السيد رحيم والأخ احمد يونس أموراً كثيرة، لعل أهمها هو أن هذا النوع من التثقيف سيتهم لا محالة بالتنظيم السري ولكنه مكشوف

فجدران الزنزانة الأربعة لا تتسع لنشاط سري، وفاتهم أيضاً أن اختلاف المستويات داخل الزنزانة الواحدة ووجود كبار السن سيجعلهما أمام خيارين كلاهما مر وهما أن يشملا الجميع بهذا النوع من الثقافة والبعض لا يتقبلها ولا يستوعبها وإما أن يختاروا البعض ويهملوا البعض مما يسبب حساسية الآخر وانزعاجه، والحديث هنا فقط عن المتدينين الراضين بهذا القدر الذي حل بهم ولكن ما بالك بالمنافقين الذين سأعرض لهم لاحقاً. فكان ما كان أن تشوهت الفكرة واجتهد البعض في إضافة ما ليس في المنهاج إلى المنهاج وردات الفعل التي بالغت في شيطنة المتصدين لهذا العمل واتهموا بشتى التهم. العبرة هو أن السجون لا تصلح لأي خصوصية فكرية ولا أي ثقافة حركية لأنها مغامرة، شخصياً دفعت ثمنها غالياً. هذه التجربة تستدعي وحدها كتاباً، ولكني أربأ بنفسي عن كتابته لما فيه من خلاف واختلاف.

المنافقون

المنافقون مصطلح تعارف السجناء على أطلاقه على المخبرين السريين والعلنيين بيننا، رغم ان المخبر العلني لا تنطبق عليه صفات المنافق فهو لا يظهر خلاف ما يبطن فهو عدو علني ومحارب علني الا انه شُمل بهذه التسمية ربما لأنه يدعي الإسلام لكنه لا يعمل بمبادئه وأحكامه، سبق وان

ذكرنا ذلك عن يقظان وآخرين وهؤلاء ممن لا يمتون إلى حزب الدعوة الإسلامية ولا عموم الحركة الإسلامية بل ومطلق صفة المعارضة بشيء، ولكن الهجمة الوحشية للنظام وبطشه وظلمه وعدوانيته وطائفيته أوقع هؤلاء المساكين في قبضته، فمنهم من تأثر بأفعالنا وسلوكنا فتدين وصام وصلى وتبنى معارضة النظام فكان كأحدنا وربما فاق بعضنا ومنهم من تقرب للسلطة وللجلادين على حساب امننا وراحتنا فباتوا مخبرين سريين وعلنيين بل ويشاركون في جلدنا وتعذيبنا. هؤلاء ظلت مسيرتهم معنا صعوداً ونزولاً، لقد استغلتهم سلطات (الأمن) أبشع استغلال وتعاملت معهم كأوراق لعب بشكل براغماتي خالٍ من أي قيم واعتبار للخدمات التي قدموها للسلطات، بل زادوا في احتقارهم وامتهانهم أكثر مما احتقرهم السجناء انفسهم. ففي الوقت الذي تريد السلطة منهم أن يؤدوا دور المخبر يلعبون هذا الدور بكل بشاعة، وفي الوقت الذي تقرر فيه السلطة الانفتاح على السجناء تصب جام غضبها عليهم وتتركهم بيد السجناء ينتقمون منهم كيف شاءوا وأنى شاءوا وهذا ما حصل مع يقظان من أهالي الحلة وصباح من أهالي ديالى. لست متأكداً من السبب الذي يجعل هذه الظاهرة منتشرة في السجون واحتلال البلدان، لماذا يضحي المُشغّل بعميله الذي يشغِلُّه عند أول حاجة؟ لتزاحم المصالح أم لاحتقار العملاء

والمخبرين أصلاً؟ أم لأن العمل الذي يقوم به المخبرون مستقبح عقلاً وإنما يطلبه المُشغِلون لضرورة وما إن تنتهي هذه الضرورة حتى يبدوا على قباحتهم فيتم الانتقام منهم كما لو أن العملاء هم من ورطوا الأسياد في هذه المهمة؟ تحاول بعض دول الاحتلال أن تمسح هذه السمعة (الظاهرة) عنها ولكنها لا تزال تؤيدها الوقائع يوماً بعد آخر.

ترقبُ أخبار العائلة

في زحمة الأحداث اليومية ودخول وجبات جديدة من المحكومين، وإخراج المخالفين يومياً للتعذيب، انقطعتُ عن الأهل والأقارب، فلم أعد أزورهم في أحلامي نوماً ولا في خواطري يقظةً، فلعقلي الباطن والظاهر ما يكفيه من خزين جديد وانعكاسات يومية، واذا أراد أحد أن يتحدث معي عن اعتقال ذويه فأحمدُ الله أن لديَّ اثنين من الأخوة الأول عبد العال ومواليده ١٩٤٧ وهو أبعد ما يكون عن أجواء الاتهام فلا عمره ولا سيرته تستدعي ذلك، وكان همه توفير لقمة العيش لعياله، والسير بأخلاق حسنة مع الجميع، والثاني واسمه نوري مواليد ١٩٥٩ كان شجاعاً جداً ولكن ليس له احتكاك ولا علاقة في ميدان معارضة السلطة أو التحرش بها؛ بل في منازعاته مع أمثاله في الحياة اليومية، أتذكر ذات يوم خرج لصيد السمك في نهر الإسكندرية وهي تبعد عن كربلاء

قرابة ٤٠كيلومتراً وعلى ضفاف هذا النهر تسكن عشائر الجنابيين، ورغم أن الأنهار لا يملكها أحد والماء والكلاء ملك عام مثلما تقول القاعدة الفقهية، الا أن قرب سكن بعض العوائل من حافة هذا النهر الصغير يجعلهم يضيقون ذرعاً بمن يأتي للصيد هناك، وهكذا كان مع نوري وابن أخته باهر، وكلما أراد ابن أخته ثنيه عن العراك وحل المشكلة بطريقة وديه لانهما غرباء هنا وهؤلاء في دورهم وليس لديهما ما يحميهم من سلاح، كان نوري يصر على زجرهم وتوبيخهم والحديث معهم بكل قوة وشجاعة، وانتقلت المشاجرة إلى عنف يدوي وشَجّ على إثره أثنين من رؤوس المهاجمين، حتى تدخل الناس، وذهبوا إلى مركز شرطة الإسكندرية ليتعاطف معهما مأمور المركز ويجعل ما قاما به دفاعاً عن النفس ويحث الطرفين على التصالح وعودة الجميع إلى أهليهم. نوري كان لا يهوى الدراسة منذ تركته في المتوسطة بعد أن كان يسبقني بعامين، ولكنه شاطر ومقدام في مجال الأعمال، لا يهاب أن يكون بناءً مثلاً وقد اشتغل في مجال البناء شهراً واحداً فقط!! حتى أن أبي رحمه الله كان كثيراً ما ينهاه عن ذلك فلا يبالي. كنتُ أتألم لحال وجود الأخوة بيننا فهناك احمد ومحمد وناصر أولاد كاظم كرم البخاتي من الشعلة الذين مر ذكرهم، وكيف أُعدمَ أخويهم حيدر وعبد الحسين، وكذلك عبد الرحمن مرزوق

عبد الزهرة الحلفي وأخوه جبار وابن أختهما صباح شريف من البصرة، وهناك سعدون عبيد دحيبش وأخواه حسين وعلي من كربلاء، وهناك فرحان كشكول وحسن كشكول من الزعفرانية، وغيرهم، أتألم لهؤلاء وعوائلهم وكيف يتحملون أكثر من مُصاب في آنٍ واحد.

يُخففُ بعضهم الهمّ عن بعض في الزنازين بخلاف ذويهم الذين يعانون من ترادف المصائب وتعددها عليهم.

في ليلة الجمعة ١٩٨٣/١/٢٠ كنت على موعد لم أفكر فيه ولم يخطر ببالي أبداً، إذ اشتغل الهمس من حولي، حتى قادوني إلى مشبك الزنزانة المطل على الزنازين المقابلة أعلاها وأسفلها، فأنا في الزنزانة ١٢ وقبالتي الزنزانة ١٩ وأسقل منها الزنزانة ٩ أشاروا إليّ أن أنظر إلى الزنزانة ٩ فنظرت لأرى ابن أختي باهر سلمان كشيل من أهالي النجف الأشرف/ ناحية القادسية واقفاً على الباب يؤدي التحية على وجل.

باهر أكبر أبناء أختي الكبرى، يكبرني بستة أشهر كلانا من مواليد ١٩٦١، كان قد قضى معظم طفولته في بيتنا فأنا وهو رفاق طفولة وعلاقتي معه تجمع بين الصداقة والقرابة، بين الأُبوّة والأُخوّة، مكانته خاصة في قلبي، بدأت أعد الأيام لألتقي به لأسمع أخبار أهلي عن قرب، فالإيماءات والكتابة على الهواء لا تشفي غليلي، فضلاً عن أنها ممنوعة. بعد

أسبوعين حصلت الموافقة من المفوض فلاح عاگولة على نقل باهر إلى زنزانتي.

أخبار صادمة

بين ١٩٨٠/٧/٨ و١٩٨٣/٢/٨ سنتين ونصف تقريباً قضيتها محروماً من أي خبر عن أهلي والدي ووالدتي وأخويّ عبد العال ونوري وسائر قرابتي، انقطاع تام لم يتسرب طيلة كل تلك المدة شبح خبر أو نتفة خبر، فكم أنا متلهف لأسمع من باهر ما يشفي غليلي ويبرد شوقي، فأخبار السياسة تردنا كل يوم ونسأل عنها وما نحلله من كلام الديكتاتور الذي يجبروننا على سماع كل خطاباته اليومية في نشرة الثامنة مساءً، وما يردنا من أخبار جبهة الحرب التي تبيّن فيما بعد أن هناك راديو يخبئه أحد السجناء ممن يجيدون اللغة الفارسية ليسمع النشرات الإخبارية لإذاعة الجمهورية الإسلامية الإيرانية ويترجمها ويوزعها عبر المراسلات، ما نحن منقطعون عنه تماماً أخبار ذوينا، آبائنا أمهاتنا إخواننا أخواتنا، الذين تركناهم يتجرعون غصص الفراق والبعد.

كان أكبر همي أبي وأمي فشرح لي باهر كيف تلقوا الخبر وكيف ظلّ أبواي يلهجان بذكري منذ اعتقالي حتى اعتقاله في ١٩٨٢/٧/٧ أي بعد سنتين من اعتقالي. أما أمي فتنفسُّ عن حزنها بالبكاء في كل ليلة حتى بانت على فوطتها السوداء

آثار دموعها، فما يترسب من ملح دموعها بان بياضه على سواد فوطتها، وهي تلهج بعشرات مقالات النعي بعدي، لها في كل مساء دورة من النعي والنحيب، نعي تصوغ كلماته هي، كلمات تخرج من قلبها ممزوجة بنشيج، كلمات تجثو تحتها خواطر من ذكريات السنين الخوالي، وأمنيات كل أم لولدها للسنين التوالي، ثم يفجعها الدهر بغياب مجهول الأثر، لا تدري بولدها حياً فتتمنى له العودة بسلام أو ميتاً فتترحم عليه، لا جثمان فتدفنه، ولا جسداً حياً فتضمه إلى صدرها، كل ذلك تسوقه على لسانها بكلمات لا تبدو مبعثرة، فهي تتناسق أحياناً كالقوافي وتتباعد أحياناً كالنثر الحزين، لا يهمها ذلك، فهي ليست بشاعرةٍ ولا قارئة تعازي، المهم أنها تعبر عن مكنونها وما يجول في خاطرها شاء من شاء من أفراد العائلة وأَبى مَن أَبى. وأما أبي فحزنه في قلبه يتلوى في لياليه كمداً، بدموعٍ خفية، وآهات تتكسر في صدره، أما النهار فلا يكفُّ عن مماشاة أبناء جيله في أفراحهم وأتراحهم، ليتناسى بذلك ألم الفقد ويقتل الوقت، ويتعلل بالشواغل من الواجبات، وما يسمع من القصص التي تهوِّن المأساة. لم يبالِ ابن أختي في سرد كل تلك المعاناة ربما لأنه في مدة اعتقاله قد شاهد ما شاهد من مصائب وويلات مما هانت عليه مصيبة جدته التي تنوح على ولدها المفقود، فباهر يوم أتى إلى محكمة الثورة سيئة الصيت في ١٩/١/١٩٨٣ كانت

هناك قضية لأهالي الدجيل وبلد في هذه القضية ١١٢ معتقلاً عندما ترافعوا أمام القاضي مسلم الجبوري حكم منهم تسعين معتقلاً بالإعدام والباقين بأحكام مختلفة. وباهر لازال يتذكر يوم اعتقاله من قبل جلاوزة مديرية (أمن) النجف يوم عصبوا عينيه ثم وجهوه نحو جدار وهو لا يعلم ثم قالوا له اركض اركض حتى اصطدم بالجدار ففقد الوعي ولم ينتبه الا وهو في أحد القاعات، هذا مجرد لهو يلهو به أفراد مديرية (أمن) النجف مع من يقبضون عليه لمصلحة مديرية أخرى، فلا تحقيق ولا إفادة فهو مطلوب في مديرية (أمن) الثورة في بغداد. باهر لازال يتذكر كيف يمازحه المحقق علي الخيكاني بضربه بحذائه على خده ليضحك (هههه): كانت هناك ذبابة على خدك أردت إزالتها، باهر يتذكر أن ٤٥ يوماً قضاها في أمن بغداد بعد أن فرغ من تحقيق (أمن) الثورة وهو مكبل بقيد حديدي في أحسن الحالات تطلق يده اليمنى منه وتبقى اليسرى حتى إذا جاء موعد إحالته إلى محكمة الثورة استعصى القيد على الفتح، فتلاوم الجلادون فيما بينهم وفكروا في فتحها بـ(كوسرة) كهربائية فأصابه الوجل من ذلك لكنها فُتحت في اللحظات الأخيرة، باهر يتذكر رفاقه الذين حُكِموا بالإعدام، وحُكِمَ هو بالمؤبد، أمام كل هذه الذكريات فيقيناً أن نحيب أم أو حسرة أب قطرة في بحر قياساً للأسى الذي مرَّ به.

حتى الأن من ساعة لقائي به لازال باهر يخفي علي أمراً ما، فحين سألته عن خاله الأكبر أجاب: هو بخير فقد أعادوه إلى الخدمة العسكرية جندي احتياط، وماذا عن نوري؟ أجابني: أو لم يصلك خبر نوري؟ قلت لا، قال إنه اعتقل قبلي بثلاثة أشهر وأنه في قضية أهالي الزعفرانية وقد تمت محاكمتهم وتم الحكم عليه بالإعدام في الشهر السابع من عام ١٩٨٢.

صُدمتُ مرتين الأولى عاطفية، فموت أخٍ شقيق ليس بهيّنٍ على قلبي المكلوم، فمهما بلغت قساوة الأيام، لكن عواطفنا مع ذوينا لا تموت، وكيف تموت والرحم الذي أنجبنا واحد والثدي الذي أرضعنا واحد، فصورة نوري ذلك المشاكس، الوقح، الكريم، الوسيم، راكزة في مخيلتي، وماثلة في عيني، نظر لي باهر ليزيدني ألماً وحرقة، وهو يريد بذلك أن يعزيني ويعزي نفسه فقال: لقد تزوج بعدك امرأةً أحبها كثيراً وفي ليلة زواجه وعندما دخل على زوجته بكى، وعندما سأَلَتْه ما يبكيك؟ قال لها: تذكرت حميد. كان لا يجلس في مجلس إلا ويتذكرك ويلعن الذين سجنوك، أخي برئ، أخي مؤدب، أخي شاطر، أخي في كلية الطب، أخي ما غش طول حياته، كل ما أعرف عن أخي هو أنه مؤمن يصلي ويصوم، هكذا كان يلهج مع كل صديق وفي أي مجلس يجلسه،

وربما هذا الذي كان سبباً في اعتقاله، فالجلادون عادةً ما يؤذيهم الحديث عن فضائل ضحاياهم.

لقد كان الكثير ممن حولي في الزنزانة يعلمون باستشهاد أخي ولكنهم أجلوا مفاتحتي إلى الوقت المناسب، فالكثير ممن حولي فقدوا من ذويهم، نحن عوائل منكوبة وليس أفراداً منتمين إلى الحركة الإسلامية تمت معاقبتنا جميعاً، فأخوتنا أعمامنا أخواتنا يؤخذون بجرائرنا، (فكل امرئٍ بما كسب رهين)، و(لاتزر وازرة وزر أخرى) مبادئ أخلاقية وقانونية لم يتم العمل بها من قبل الجلادين في زمن الديكتاتور صدام، فهؤلاء جميعاً -أعني ذوينا- مدانون إما أن يعدموا أو يسجنوا أو يُمنعوا من التعيين، أو الدراسة، أو يراقبوا بشدة، أو أن يعايرهم الجيران عند كل خلاف (ها خمينية). لذا فلست وحدي في هذا المعترك؛ ففي قضية الزعفرانية التي أعدم فيها المرحوم أخي نوري وقص عليّ خبرها باهر أُعدِمَ الحاج آلوس حسون البهادلي وزوجته سعيدة جاسم البهادلي وابنته حياة آلوس وأولادهم كاظم آلوس، وطه آلوس، وعلى آلوس، ويحيى آلوس، ومحمد آلوس، وعبد الكريم آلوس، وعبد الحسن آلوس، وعبد العباس آلوس!!!! قد يعذر الإنسان الجلاد عندما يقتل هؤلاء بقنبلة يرميها على بيتهم أو مواجهةً مسلحة بينهم وبين الجلادين، أو تنقلب بهم حافلة تقلهم إلى السجن أو التحقيق

ولكن أن يعدم كل هؤلاء فرداً فرداً، تباعاً عبر تحقيق صوري ومحاكم صورية، فأية قسوة هذه وأية حماقة وأي استهتار بدماء الأبرياء؟

قلتُ فيما سبق صدمت مرتين، الأولى عاطفية، ولكن الثانية عقلية!! أنا أعلم بطباع أخي وسجاياه، أعلم أنه شجاع، ولكن ليس له باع بمعارضة السلطة وليس مع هذا الجو الديني والحماس الإسلامي الحركي، نعم يتعاطف معي كوني مظلوم ولم ير مني أي عمل عدواني أو إساءة لاحد، لكنه لم يمارس أي نوع من أعمال المعارضة!! وما زاد من صدمتي عندما سألت عنه ابن أختي باهر هل تغير بعدي فاتجه إلى العمل السياسي؟ فأجاب بالنفي. إذن لماذا اعتقلوه؟ فأجاب على حد علمه وبما استقاه ممن اُعتُقِلوا معه أن السبب وراء ذلك هو وجود خط تنظيمي داخل الجامعة التكنلوجية ومصدره الزعفرانية في بغداد ومتفرع إلى كربلاء وعدد من المحافظات، أخبرني أن مع أخي نوري عدة شباب من نفس المنطقة سيقوا إلى الإعدام منهم من اعتقل معي سابقاً في عام ١٩٨٠ وتم إطلاق سراحهم في حينها، لكنهم هذه المرة حُكِمَ عليهم بالإعدام منهم داخل عبد الحسين عبادة، وياسين جاسم المعمار، وعبد الزهرة عبد السادة، وصبيح كاظم حساني، هؤلاء كلهم من منطقة الجمعية باب طويريج/ كربلاء -حيث كنتُ أسكن- وهي محلة شعبية

صغيرة، ومعهم عادل ذياب من العباسية الشرقية/ كربلاء، إنَّ أحداً من الذين تم اعتقالهم من كربلاء ذكر اسم المرحوم نوري مدعياً أنه يعرف اسم مسؤولي أنا في حزب الدعوة الإسلامية، لذا فكل التحقيق الذي جرى معه هو بهذا الشأن!! يا ويلتي أهكذا تجري الأقدار أن أكون سبباً لإعدام أخي وأنا في السجن؟ فيجيبني باهر ليقول وهكذا كان يجيبهم خالي نوري، يقول لهم إن أخي حميد عندكم واسألوا منه عن مسؤوله أما أنا فلا أعرف مسؤوله على الإطلاق. وتحمل من الأذى ما تحمل حتى أنه من كثرة تعليقه بصنارة السقف شلت يداه وخلع كتفاه. لست متأكداً حتى اليوم هل أن أخي المرحوم نوري قد دخل في تنظيم معارض مع خط الزعفرانية أم إنه أُخذ بجريرتي، ولكنه في كل الأحوال سبقني إلى الله فكُتبت له الشهادة ولم تكتب لي في تلك الهجمة البربرية التي ضاعت فيها البوصلة وفُقدَت بها المعايير حميد يبقى حيّاً ونوري يُستشهَد ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

القلم والقرآن

ما يلفت الانتباه وفي جميع مراحل التحقيق ومن بعدها أيام السجن المغلق وطيلة تسعة سنوات هو الملاحقة الأمنية للقرآن الكريم وللقلم، القرآن كتاب مقدس مر على نزوله

أربعة عشر قرناً ويحفظه العديد من المؤمنين في صدورهم أو يحفظون جزءً منه، ولا تخلو منه إذاعة عربية أو إذاعة دولة مسلمة يومياً عبر شرحٍ، أو تفسير، أو تلاوة ترتيلاً أو تجويداً، فلماذا يطارده الجلادون كل هذه المطاردة؟ ربما لقدرته على تسلية المعتقلين أو السجناء ووعده إياهم بالأجر والثواب من الجنان والحور الحسان، وربما لأنه يُشعِل الحماس في نفوسهم وقدرته الفريدة على محاكاة جهادهم، أو لأنه الكتاب الأقدر على توضيح منهج الدعوة إلى الله ومنهج الطغاة في مواجهة الدعاة، أو لأنه رمز الإيمان يحمله المؤمنون، فيتبرم الطغاة والجلادون كون حمله نكاية بهم لأنهم كفرة أو فاسقون، وربما كل ذلك، فعيون الجلادين لا تغفل عن البحث في كل عملية تفتيش عن القرآن ومعاقبة من يجدونه عنده بأقسى أنواع التعذيب، ولأن القرآن كما اسلفنا ولأن الإنسان حريص أيضاً على ما مُنع عنه، ولأن عنوان معارضتنا للطواغيت هو القرآن فقد تبرع من يُخفي القرآن رغم كل تلك الظروف القاسية، يقول الأخ السجين باسم محمد عبد الحسين الحيدري من أهالي البصرة أنه استطاع أن يحتفظ بمصحف صغير قد عمل له جيباً خاصاً في جانب من جوانب لباسه الداخلي وكان يدخل إلى المرحاض ليحفظ منه ما تيسر ثم ينشره عبر كتابته على غطاء اللبن من السليفون (رقائق الالمنيوم)، بالعظام المنحوتة لتستخدم كأقلام،

ليحفظه الآخرون وعند التفتيش يضع المعتقلون هذه الرقائق في أذيال ملابسهم (الكفة)، لإخفائها عن عيون الجلادين، حتى أحس المفوض كاظم الذي سبق الحديث عنه، أحس بوجود القرآن داخل الموقف، فعمد إلى إجراء تفتيش دقيق للغاية لكل الموقوفين، يقول باسم فتوجهت صوب الإمام موسى الكاظم وقلت له مخاطباً سيدي ومولاي ان الرسول صلى الله عليه واله وسلم قال: إني تركت فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما فلن تضلوا بعدي أبداً، وهذا كتاب الله وأنت وسيلتنا إلى الله فنجني من هذا البلاء، يقول فسبحان الله ما إن وصل دوري إلى كاظم حتى قال (ها أبو يسم) أنت حباب ما عندك شي يله روح) فنجوت وبقي القرآن عندي حتى أحلت إلى المحكمة في ١٩٨٣/٦/٦ ولباسم هذا أيضاً مغامرة أخرى سنأتي عليها في حينها.

لا يختلف الحال عن بحث الجلادين عن القرآن الكريم في السجن أيضاً، في ق١ فلطالما أُجريت عمايات تفتيش عنه وعن سائر الممنوعات الأخرى، لكن يبقى القرآن هو التحدي الأول لهم فهم يعلمون علم اليقين أنه موجود، ولكن أين؟ لا يعلمون.

في عام ١٩٨٣ تم نقل بعض الأحداث ممن لم تتجاوز أعمارهم الـ ١٨ عاماً من القسم الذي نحن فيه إلى الأقسام المفتوحة، وأثناء عملية التفتيش عثر على قلم لا يتجاوز طوله

السنتمتر ونصف مبري من طرفيه، وما إن عثروا عليه عند أحد الأحداث إلا استشاط النقيب غالب الدوري غضباً وضربه ضرباً مبرحاً، ثم أصر على رميه من الطابق الأعلى إلى الطابق الأرضي ولم يسلم الا في اللحظات الأخيرة، كانت فكرة صناعة القلم البديل حاضرة في ق١ سواءً من بقايا العظام أو الخشب، أما القرطاس فهو رقائق الالمنيوم التي توضع كأغطية لأقداح اللبن، أو أكياس النايلون التي يوضع فيها الخبز، لكن توزيع الصابون وخلع الغطاء الخارجي فقط قد سمح لزنزانة من الزنازين أن تحتفظ بالورق المقوى الذي تغلف به الصابونة؛ لقد شكل ذلك دافعاً لاختراع قلم يحاكي قلم الحبر القديم. يقول السجين السيد سعيد جبر محمد الصافي من أهالي الكوت قضاء الحي، ظلت فكرة إيجاد القلم تلازمني لأيام، حتى منَّ الله علينا بتوزيع علب الجبن المصنوعة من القصدير وكانوا يريدون العلب الفارغة فاحتفظت لنصف غلاف لأحدى العلب وبردته بارضية الزنزانة وصنعت منه الريشة، وبقيت أفكر في الفحمة الندية التي تلتف عليها الريشة كما في قلم باركر أو شيفر، حتى دخلت ذات يوم إلى المرحاض فخرجت وانا أقول وجدتها وجدتها، أنها نواة التمر، ومن السرنجة المستخدمة لزرق الإبر جعلتُ وعاء الحبر، ولكن كيف اجد الحبر؟ بعد أيام اكتشفت أن تنظيف صحون

الالمنيوم برقائق الالمنيوم يخلف مادة سوداء تصبغ الماء بلون مائل إلى الأسود، وهكذا يكون قلم الحبر قد اكتمل وبدأنا نرسم بريشته القصديرية حروف القرآن على أغلفة الصابون، لم ينتشر اختراع السيد سعيد الصافي لوجود بدائل اسهل واكثر أماناً وهي العظام، ولقلة الورق الموجود، إذ لا يصلح قلم الحبر للكتابة فوق السليفون أو النايلون، لكنه اختراع بقي في الذاكرة.

ولسيد سعيد الصافي حكاية من التعذيب يودع فيها عام ١٩٨٣سأرويها في السطور أدناه.

إياك أن تصرخ

كان الجلادون يبحثون عن أية ذريعة يعذبون بها ضحاياهم مع كل وجبة طعام يقدمونها لهم، لتُحكِمَ إدارة السجن قبضتها على السجناء في الأقسام المغلقة، فهي لم تكتفِ ان يكون بعض المشرفين ممن عُرفوا (بالخدمات) من المنافقين والمنحرفين، بل زادت على ذلك بأن زرعت في كل زنزانة جاسوساً ومخبراً لها أو أكثر، فازدادت الحلقة ضيقاً علينا، وأصبحت العقوبات قاسية جداً، في زنزانة ١٩ كان أحد المتعاونين مع الجلادين في حينها مراقباً على الزنزانة، وكان لدى السيد سعيد الصافي قليلاً من المال يشتري به بعض الحاجيات البسيطة كفرشة أسنان أو علب

سكائر إذ يتم تفريغ السكائر من العلبة وتُعطى للمشتري، المدمنون على التدخين يعانون الأمرين من انقطاعهم عن ذويهم وعدم قدرتهم على شراء الدخان، البعض منهم جعل من ورق جريدة الثورة التي كانت توزع يومياً علينا ثم يتم سحبها في اليوم التالي ورقاً لسيكارة يلفون بها ما بقي من الشاي بعد غليه (البثل) تشبهاً بالتبغ، ومع كل هذه الحاجة للمدمنين الذين كان مراقب الزنزانة منهم، ومع كونه متعاوناً مع الجلادين، الا أن سيد سعيد الصافي لم يستجب لطلبه في أعارته ولو سيكارة واحدة، وأسرها المراقب في نفسه، وفي ١٩٨٣/١٢/١ يوم الخميس، تحدث السيد سعيد الصافي مع السجين رزاق من أهالي كربلاء حول السماح له بأخذ دوره في الدخول إلى المرحاض كون رزاق قد أتم الصلاة في حين ان سيد سعيد لا يزال ينتظر قضاء حاجته ثم الوضوء من بعدها، وفي هذه الأثناء مر احد رجال الخدمات فما كان من المراقب الا أن أعطاه أسماء سيد سعيد ورزاق كونهما يتحدثان بصوت مسموع وذلك من الجرائم التي يحاسب عليها الجلادون. كان أحد الجلادين من شرطة (الأمن) واسمه خليل قد وقف قبل أيام وتوعد وهدد وأزبد وأرعد وأقسم بشرفه وعرضه وناموسه أنه سيقتل كل مخالف سيصل اسمه إليه، لم تسلم الأسماء من الخدمات إلى شرطة (الأمن) يوم الخميس ١٩٨٣/١٢/١ إذ لم يدخل إلى القسم خليل،

لأن أفراد الأمن كانوا يتناوبون، ومرت الأيام الجمعة والسبت برداً سلاماً، حتى جاء يوم الأحد فدخل فبادره أحد أفراد الخدمات:

- سيدي لدينا مخالفون.
- هيا أنزلهم.

قبل أن يخرج سيد سعيد من الزنزانة كان قد اصطف معه أحد السجناء ليوصيه همساً، ترى بماذا أوصاه؟

سيد؛ كن صلباً وإياك ان تصرخ عند ضربك أو تتأوه فذلك لا يليق بنا كسجناء، وتذكر بأننا ننام هنا على جوانبنا إذ لا يسع المكان النوم على ظهورنا فاحذر ان يتعرض كلا جانبيك للضرب أو الكسر لا سمح الله، بل كن حريصاً على ان يكون الضرب على أحد الجوانب، وفي حال تعرضك لجروح فكن حذراً عند دخولك الزنزانة وادخل أولاً للمرحاض لتطهير جروحك إذ لا يوجد عندنا من الماء ما نطهر به الزنزانة من الدم، وصايا قاسية جداً ولكنها صريحة حد الفجاجة وواقعية من غير رحمة وما كان الموصي ليوصيه بهذه الطريقة لولا علمه ويقينه بأخلاق الجلادين ومشاهداته اليومية لأعمالهم فلم يدارِ ولم يتفاءل. حفظ سيد سعيد هذه الوصايا وخرج من الزنزانة ومعه رزاق من أهالي كربلاء، استعان الجلاد خليل باثنين من أفراد الخدمات، وقال اطرحوهما أرضاً، الوقت قبيل غروب الشمس، الطقس بارد

جداً في كانون الأول، استخدم الجلادون الثلاثة أول الأمر ما لـديهم مـن (صـوندات) وهـي أنابيـب بلاسـتيكة تسـتخدم لتأسيسات الماء سوداء ذات حجم ٤/٣ انج، ضرب عنيف، وكيفما اتفق، التزم سيد سعيد بوصايا زميله فلم يصرخ، بل لـم يجبـه حـين سـأله خليـل عـن أسـباب رفـع صـوته داخـل الزنزانـة ليس التزاماً بالوصية فحسب؛ بل ليقينه أنـه معاقـب بغـض النظـر عـن التهمـة، ممـا زاد ذلـك فـي حنـق الجـلاد وغضبه، تعمد خليل أن يكسر ذراعه لكن ذلك لا يتيسر له بـ(الصـوندة)، فطلـب قضـيباً مـن الحديـد (الشـيش)، فـركض الجلادان يبحثان في المكان، فلم يجدا، فاقترح عليه أحدهما أن يـأتي بمغرفـة الـرز الكبيـرة والمصـنوعة مـن الالمنيـوم (الجفجيـر)، فقـال الجـلاد خليـل هيـا آتنيـه، وعلـى وجهـه علامـات التعـب، وشـيء مـن الإعجـاب بفكـرة هـذا الجـلاد المتطوع الذي يعمل بلا اجر ولا راتـب بـل هـو سـجين مثلنا، وبدأ خليل يضرب بقسوة وقوة، وبدأت الدماء تسيل من سيد سعيد، إذ تجمع عليه ثلاثة جلادين بينما تفرغ رابع إلى رفيقه رزاق، لـم يصـرخ سيد سـعيد فـازدادوا حنقـاً، وعمـلاً بوصـية صاحبه أيضاً اتكأ سيد سعيد على جانبه الأيمن وأخذ يصد الضربات بيده ورجله اليسرى، تلقى أكثر من مائة ضربة لا على التعيين وكيفما تكون، حتى كسروا له اللوح الخلفي من ساقه وأصبع من أصابع كفه، وفي ضربة من ضربات المغرفة

العملاقة اتقاها بيده اليسرى فدخلت ما بين أصابع يده، فشُجت شجاً كبيراً، فانفجر الدم حتى نال قسم منه ثياب احد الجلادين المساعدين، لقد ظل هذا الجرح غائراً لأربعين يوماً حتى نما فيه الدود (الضراع). لم يكتفوا بذلك بل طلب خليل من الجلادين أن يرقصوا على ظهره، وهو يسخر ويقول دعونا نعمل قفزات على الرقعة (نوع من الرياضات السويدية)، عاد سيد سعيد إلى زنزانته يترنح يقوم ويجلس حتى أنه لم يتيقن زنزانته فوقف قبالة الزنزانة ٢٠ ظاناً أنها زنزانته، فقالوا له تقدم إلى الإمام أنت في الزنزانة المجاورة، فاستقبله رفاقه وهو يبكون وأولهم من أوصاه بتلك الوصايا وهو السجين داود من مدينة الثورة (الصدر حالياً)، وآخرين من زنزانات أخرى يتلوون ألماً لما ينظرون.

نادى الجلاد خليل على طبيب القسم الدكتور سعد وقال له إياك ثم إياك ان تعطي أي علاج لهذا السجين واتركه حتى يموت. وما دمنا بذكر التأوه والصراخ أثناء الضرب والتعذيب، أستذكرُ يوماً أخرج فيه النقيب غالب الدوري السجين كامل خلف جاسم (أبو منتظر) من أهالي العمارة لمخالفة تافهة كسائر المخالفات، فقام بضربه ضرباً مبرحاً، فتأوه بصوتٍ عالٍ، فقال له الجلاد غالب: (لا تگول آخ)، فرد عليه بلهجة تجمع بين الطرافة والغضب (خو أنت لا تضربني، آني ما أگول آخ).

هدية العام الجديد ١٩٨٤/١/١

ليس على المسؤول الكبير أن يدخل في التفاصيل، فتوجيهاته عامة، وصغار الخدم من المرؤوسين هم من يخترع ويتفنن في الوسائل التفصيلية لكيفية تنفيذ الأوامر، معتمدين بذلك في بعض الأحيان على إبداعهم وذكائهم وفطنتهم ولكن في مجال السوء، وفي أحيان أخرى على ما في نفوسهم من خسة وحقارة ودناءة، هكذا كان معنا في السجن طيلة المدة التي قضيناها هناك، فعندما يكون التوجيه من الرئيس عذبوهم، فتأتي التفصيلات كلاً حسب موقعه، ولا أدري حتى غاية كتابة هذه السطور من هو صاحب الفكرة الشيطانية في تلويث طعام العشاء ليوم ١٩٨٣/١/١ بمواد مُسهلة لتضج الغالبية العظمى من سجناء ق١ بالمغص والإسهال الحادين، حتى وصل لدى بعض السجناء إلى حد تقرح الأمعاء وخروج الدم من أمعائهم، بتنا نتندر من ذلك اليوم فنسميه يوم الإسهال العالمي، غمزاً للأمم المتحدة وأيامها العالمية، ونكاية بها لما تغفل أو تتغافل عنه من جرائم ترتكبها النظم الفاشية والديكتاتورية ضد المعارضين، فتغض الطرف عنها منظمات العفو الدولية وحقوق الإنسان مادامت هذه النظم سارية بالمسار الذي تشتهيه أقطاب النظام العالمي. في هذا اليوم يدخل كل سجينين معاً إلى المرحاض الوحيد داخل الزنزانة حيث ينتظرهم أربعة أو خمسة خارجها

يئنون من المغص ويتوسلون بمن داخل المرحاض أن يخرجا بسرعة، قد يتساءل القارئ اللبيب وما أدراك أن العملية مدبرة؟ فربما كان التلوث عرضياً أو نتيجة إهمال بعض الطباخين؟ نعم هناك من قال منا ذلك، ونحن لا نختلف عن القارئ في تبني مبدأ حسن الظن أو حسن النية، ولكن في الصباح جاء الجلادون ومعهم أدوية لوقف الإسهال، دون طلب منا، وبعد التحري علمنا أنهم وضعوا مسحوق غسيل الملابس على الطعام بكمية مناسبة لكي تهيج الأمعاء والبعض قال وضعوا مادة معينة لا يعرفونها.

السجنُ يزيد من وطأته

الأيام تمضي وتمضي السنون والجلادون مصرون على أن يزيدوا من بطشهم، يزدادون تعنتاً وقسوة، لا معلومات عن ذوينا ولا لذوينا معلومات عنا، سنة سنتان، ثلاث، اربع وها قد قضى بعضنا خمساً من السنين العجاف، خمساً لم نسمع فيها صوت امرأة، أماً كانت أو زوجةً، بنتاً، أو أختاً، لم نسمع فيها صوت طفلٍ يلهو أو يضحك أو يبكي، أي طفل ولو تناسل من عدو، لم نأكل فيها حبة طماطم نقطعها بأيدينا نلهو بها، لدينا اشتياق لطعمها للونها ومنظرها، أو حبة خيار نشمها فنحن على أبواب أن ننسى تلك الرائحة، أو باقة فجل أو رشاد أو كرفس، نتأمل في شكلها، خمسة أعوام ولا سرير

ننام عليه، ولا وسادة للرأس كوسادات البشر، شحوب وجوهنا بات يُخيف حتى السجانين الذي يأتوننا لأول مرة، فخمس سنوات لم تتحسس بها جلودنا أشعة الشمس جعلتنا نبدو وكأننا أشباح بشر، السجن كبناء من جمادات بدأ يتعب، حياطين الزنازين الصفراء تغيّر لونها من أنفاس زفيرنا وتعرقنا من الأصفر الفاقع إلى الأصفر المغبر الداكن، مجاري المرحاض باتت عرضةً للانسداد من تكلسات الفضلات، وضغط الأعداد، تفيض بين الحين والآخر وليس لها من معالج إلا عبد القادر وهو أحد عمال الصيانة من الأقسام المفتوحة محكوماً عليه بالمؤبد بتهمة التجسس إلى سوريا، لا يأتي إلا بطلب شفهي يقدمه نزلاء الزنزانة ذات المجاري المسدودة إلى خدمات القسم، وهم بدورهم يرفعونه إلى رجال (الأمن)، الذين يرفعونه إلى مراجعهم، ثم يأتي مأمور خاص برفقته، ليؤدي المهمة، حينها تكون الزنزانة قد غطت بالمياه الثقيلة، لم تفت هذه المعاناة أحد الشعراء الشعبيين الهزليين من قضاء الشطرة، لا يحضرني اسمه الأن إذ أنشد باللهجة الدارجة:

والمصيبة تشتد... مرافقنا من تنسد

نصيح وما يجي أحد؛ ثم يصيح بصوت مرتفع: عبد الدايم...عقيل...سعد.

ويعود ليقول: ثلاثتهم يگولون نجيكم يوم الأحد.

وهو يعني أنهم يأتون بعد ثلاثة أيام من انسداد مجاري المرحاض!!!

الزنازين مصممة كل اثنتين في الطابق العلوي بمسلك واحد، يتصل بمسلك اثنتين في الطابق الأرضي وعليه فالانسداد قد يكون في المسلك الرئيسي فيعاني نزلاء أربعة زنازين أي ١٦٠ نزيلاً، جاسم حسن كاظم من أهالي ديالى، وهو من ذوي النفوس التي تشمئز بسرعة من القذارات، شاءت الأقدار على أن يكون مراقباً لزنزانة ١٦، وشاء القدر أن ينسد مسلك المجاري في زنزانتهم بتاريخ ١٩٨٥/١٢/١٠، لم يكن لهم من حيلة إلا أن ينزحوا ماء القاذورات بأنفسهم ويرموه من الشباك الصغير عبر أقداح صغيرة، علم مفوض (الأمن) فلاح عاكولة بذلك جاءهم مهدداً ومتوعداً، ممنوع منعاً باتاً أن ترموا أي ماء من الشباك، وماذا نفعل أذن؟ لا أدري أنا لدي مراقب في الزنزانة ٦ اسفل منكم لدي فيها مخبر إذا أبلغني بأنكم ترمون المياه القذرة فسأفعل ما أفعل وأنتم تعلمون ماذا تعني ضربة كفي على خدودكم. تداول السجناء الأمر، ماذا يفعلون أذن يمسكون عن الطعام والشراب وأجسادهم التي أعيتها السنون، اتفقوا على أن ينزحوا المياه الثقيلة ويضعونها في أدوات خزن الماء التي لديهم بعض الأواني البلاستيكية و(الفلينات) وفي الساعة الثانية ليلاً يرمونها خارج الزنزانة بعد أن تنام العيون السرية

لرجال (الأمن)، في اليوم الثاني جاء فلاح عاكولة غاضباً، الم أنهكم عن رمي المياه القذرة من الشباك؟ لم نفعل؛ وما هذه الرطوبة التي نراها أسفل منكم؟ أنها من بعض الخرق البالية نمسح بها الأرض ونعلقها في الشباك فتنزل منها قطرات. سكت وانصرف، هكذا الحال خمسة أيام، ثم جاء عبد القادر وهو الخبير الذي لا تتأخر عنده المهمة أكثر من خمس دقائق؛ سارع أفراد الزنزانة ١٦ إلى تنظيف الأواني وشطفها عدة مرات بما تيسر من الماء ثم يملؤونها بماء الشرب، الفلين مادة خشنة، ظنوا أنهم نظفوها تماماً لكنهم فوجئوا بعد يومين من استخدام مياهها للشرب أنها كانت ملوثة بـ... ......

ومن الطريف بعد هذه المأساة أن هناك ثلاثة نزلاء طيبون من أهالي البصرة في قضية واحدة، ولظروف التحقيق التي لا تطاق جاء الأول باسم الثاني والثالث، فعاتبه الثاني: لماذا يا أخي جئت بي إلى جهنم هذه، أما ترى بؤسنا وحالنا؟ فقال له الأول: لا ينفع العتب يا أخي (ماي وتبده ما ينلم بعد) يعني ان الماء إذا أُريق فلا يستطيع أحد جمعه؛ فرد عليه بهدوء وجدية: لا يا عزيزي هذا المثل كان أيام زمان، ألا ترى كيف نجمع ماء القذارة بالإسفنج ونرميها خارج الزنزانة. فضحكنا وضحك من سمعهما.

كسر الرتابة والروتين اليومي يحتاج إلى إبداع يومي، وقدرات خارقة في هذه الطامورة، بدأ يصعب ذلك على أولئك السجناء الافذاذ الذين يحملون من العلوم ما يحملون، طاقاتهم بدأت تنفد، لابد من تدخل غيبي عبر حدث كبير يشحذ الهمم ويكسر الجمود.

آل الحكيم في الأقسام المغلقة

انتشر خبر دخول السادة آل الحكيم في القسم الثاني ق٢ انتشار النار في الهشيم، وتضاربت الأخبار عن عددهم وأعمارهم والتهم الموجهة إليهم، وتنوعت ردود الفعل بين متفائل ومتشائم، بين من يرى ذلك بداية النهاية لحكم الطاغية، وبداية الفرج لنا نحن المظلومين، وبين من عد ذلك علامةً من علامات قوة النظام واستهتاره بكل المعايير الدولية، وانه قد تلقى إشارات من الدول الكبار بأن يفعل ما يحلو له. وبين من قال أن الحرب على ما يبدو قد بدأت تأخذ منحىً لصالح الجمهورية الإسلامية في إيران وأن المعارضة العراقية باتت تهدد النظام الديكتاتوري تهديداً جدياً وما هذه الخطوة إلا للضغط على المعارضة بشخص رئيس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية السيد محمد باقر الحكيم. هكذا هو ديدن من لا يجد لمعلوماته مصدراً مؤكداً، ولم يكن على صلةٍ بصاحب القرار، فليس له سوى التحليل

فتختلف التحليلات حسب مدارك كل شخص ونظرته للأمور. لكن ما اتفق عليه الجميع هو أن وجود السادة من آل الحكيم قد أضاف وزناً نوعياً للسجناء في هذه الأقسام، وزناً نوعياً عند النظام وعند المنظمات الدولية وعند الشعب العراقي عموماً، كما شعر الجميع بروح معنوية إضافية، لما لهذه العائلة من أثر عند العراقيين ممتدة من يوم تبوأ جدهم السيد محسن الحكيم مقام المرجعية الدينية العليا لعموم المسلمين الشيعة في العراق وغير العراق والتي استمرّت قرابة الربع قرن (١٩٤٦-١٩٧٠م)، خاصة وإن من بين أفراد الأسرة الذين أُلقوا في السجن معنًا سماحة السيد محمد سعيد الحكيم وهو مجتهد جامع للشرائط، ومعلوم ما لدى عموم المتدينين من الشيعة من تقدير لهذه الدرجة العلمية الحوزوية الدينية، وهي درجة تمكنه من استنباط الأحكام الشرعية من مداركها المقررة (القرآن والسنة والعقل والإجماع الكاشف عن رأي المعصوم)، وفي السجون هناك الكثير من المسائل الابتدائية المستحدثة، ناهيك عن بعض الخصومات والمنازعات التي تحتاج إلى تدخل من ذوي الحكمة والعلم. عدد أفراد أسرة آل الحكيم الذين جيء بهم إلينا يناهز الخمسين بين كبير في السن وشاب بمستوى أعمار الأغلب منا، وهم أيضاً على مستويات متفاوتة من الدرجة العلمية الحوزوية. صلتهم بالسيد محمد باقر الحكيم زعيم

المعارضة العراقية ورئيس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق ونجل السيد المرجع الراحل محسن الحكيم متداخلة بين العمومة والخؤولة. لم يكن مقدم أسرة آل الحكيم إلى زنازين أبي غريب في ١٠/٤/١٩٨٥ من بيوتهم إلى حيث نحن في هذا المكان الذي حجبت عنه الشمس، وانما سبق وإن أمضوا قرابة العامين في زنازين ومواقف (أمن) النجف و(الأمن) العامة تلقوا فيها أصناف التعذيب النفسي والجسدي وتم إعدام كوكبة منهم ومن بين الذين تم إعدامهم أنجال السيد محسن الحكيم قدس سره أخوة السيد محمد باقر الحكيم كل من السادة عبد الصاحب الحكيم وعلاء الدين الحكيم ومحمد حسين الحكيم وأولاد إخوانه كلاً من كمال الدين وعبد الوهاب نجلي السيد يوسف الحكيم وأحمد نجل السيد محمد رضا الحكيم وعشرة آخرين من ذات العائلة، لذا فقد كانوا متحفظين جداً في أقوالهم وأفعالهم ريثما يطمئنوا إلى ما حولهم.

رغم التشديد الأمني وهستريا النظام في قمع معارضيه وانعكاس نكساته في الحرب المشتعلة مع الجمهورية الإسلامية في إيران على السجناء قسوةً وتعذيباً، وعيونه المنتشرة بيننا عبر المنافقين الذين أشرت إليهم إلا أن ذلك لم يمنع من التواصل مع القسم المجاور الذي وُضِع فيه أسرة آل الحكيم وهو بنفس التصميم والخارطة، تواصل عن طريق

الكتابة على الهواء أو عن طريق المورس، أو الإشارات وأحياناً عبر الحبال لتوصيل بعض الحاجيات بين القسمين رغم ان المسافة بينهما قد تصل إلى أربعين متراً!!! ومن الأمور التي كانت تصل سريعاً هي أجوبة الاستفتاءات الشرعية حول بعض المسائل.

انتفاضة في قاطع الإعدام ١٩٨٦

لم تبدُ أيةُ انفراجة من قبل السلطة وجلاديها بعد دخول السادة آل الحكيم، واستمرت أساليب النظام الفاشي القمعية سواءً في مجال الاعتقالات وطرق التعذيب لانتزاع الاعترافات أو ممارسة التعذيب لإذلال وإهانة السجناء وفي كافة الأقسام، حتى الأقسام التي يودع فيها المحكومون بالإعدام كانت هناك أساليب وحشية في التعامل مع المحكومين الذين كانوا يتمتعون بمعنويات عالية في تلك الظروف، حكى لي السجين صفاء مهدي سعيد من أهالي الشامية محافظة الديوانية أنه حُكِم عليّ بالإعدام يوم ١٩٨٦/١٢/٢٥ وأودع في أبي غريب قاطع الإعدام مع صديق له في نفس القضية اسمه عارف في الطابق الأرضي. عند دخوله القاطع عرف أن حملات تنفيذ الإعدام كانت قد توقفت مدة شهرين مما أدى إلى اكتظاظ الأعداد في الزنازين، إذ كان عدد المحكومين يتراوح بين ١٤ و١٦

محكوماً في زنزانة تشبه في قياساتها زنازين (الأمن) العامة أو أصغر حجماً (٣*٢م) وهو يقدّر عدد المحكومين في القاطع يوم دخوله بألف محكوم؛ الغالبية الساحقة منهم من المنتمين إلى الحركة الإسلامية في العراق وأنصارها، وجلُّهم من الشباب بين ٢٠ وثلاثين عاماً، كانت الطريقة المتبعة في تنفيذ الأحكام هي أن يأتي الجلادون ظهراً إلى القاطع يومي الأحد والأربعاء ثم تفتح أبواب الزنازين لخروج الأشخاص الذين تم تلاوة أسمائهم ليُنفذ بهم الحكم بين الخامسة والسابعة مساءً، ثم يُؤمر الجميع بالجلوس للتعداد بعدها يتم تفريقهم للدخول إلى الزنازين ولكن بقسوة مفرطة مستخدمين الهيروات والضرب في كل الأماكن من الجسم ومن حسنات هذه الطريقة أن المحكومين بإمكانهم أن يتبادلوا الزنزانات فيما بينهم. كل تلك المعلومات تم إعلامه بها حال دخوله القاطع، وماذا تُرى أن يسأل المحكوم بالإعدام ساعة دخوله غير تلك الأسئلة؟ وإذ كان دخوله يوم ١٩٨٦/١٢/٢٥ وهو يوم الخميس فبينه وبين الوجبة الأولى في حال استئناف الجدول-أعني جدول التنفيذ كل أحد وأربعاء- هو ثلاثة أيام، ليرى أول وجبة وكيف تُساق، وكيف تكون ردة الفعل من قبل المحكومين. كانت قبالته في الطابق الأعلى زنزانة فيها أولاد الحاج طه الحداد (أبو مسلم) من أهالي الكوفة وأولاده الأربعة وأكبرهم إبراهيم وزوج ابنته وكلهم محكومون

بالإعدام وفيها أثنين من الأكراد وفيها بُريْر من أهالي الناصرية من كوادر حزب الدعوة الإسلامية الا أن قضيته تحمل عنوان (حزب البعث اليساري) لوجود جماعة معه بهذه القضية، وفيها هاشم وهو شاب منتسب لقوة من الحرس الخاص أو الحرس الجمهوري المكلفين بحماية صدام حسين في الخط الثالث، ولم يكن له من تهمة سوى قوله لأحد أصدقائه وهم يتندرون (هسة السيد الرئيس اذا يجي واحد ويقتله احنه شنكدر نسوي)، أي لو أتى شخص ما ليقتل رئيس الجمهورية (صدام) فهل نستطيع منعه؟ على هذه الكلمة فقط حُكم عليه بالإعدام، كل أولئك وآخرون ليكون مجموعهم ١٦ محكوماً موجودون في الزنزانة المقابلة له في الطابق العلوي. صباح الأحد وقف هاشم في باب الزنزانة ليعلن للجميع أن هذا اليوم سيعود جدول التنفيذ وان اسمه سيكون أول اسم في قائمة التنفيذ!!! تعالت الأصوات من هنا وهناك ومن أين لك بهذه الأخبار؟ فقال صدقوني أن ذلك هو ما سيحصل وسترون بأم أعينكم. ظل الإلحاح على هاشم لمعرفة مصدر الخبر فالجميع كانوا قد اتفقوا مسبقاً على أن يدعوا أحد المسؤولين إلى القاطع لتحسين ظروفهم ورفع الحيف عنهم ومراجعة قضايا البعض منهم، وأقل ما يمكن فعله هو السماح لهم بمواجهة ذويهم قبل تنفيذ حكم الإعدام لتَعلُّق ذلك بوصايا خاصة بهم وبعائلاتهم كأبسط حق من

حقوق المحكوم بالإعدام، واتفقوا على أن لا يخرج أحد من الزنزانة واذا أذاعوا الأسماء لا يستجيب أحد ويعلنون العصيان حتى ورود هذا المسؤول، وبعضهم دعى بأن يكون المسؤول الذي يجب ان يحضر هو صدام نفسه، هكذا كان الحماس بينهم. فأصروا على هاشم لمعرفة مصدر خبره، فأقسم لهم أن فجر هذا اليوم طاف عليه رسول الله صلى الله عليه وآله في المنام، وقال له انك ستأتينا قريباً وإنك الأول بين من يأتون. بين مصدق ومتردد في التصديق، فهاشم شاب بسيط الإيمان، حديث العهد بالتدين، لكن ذلك لا يمنع من أن يتخذ المحكومون إخباره هذا مناسبةً لتأكيد عهدهم ووعدهم السابق حتى ينالوا ما يريدون.

جاء (العنقرجي) وهو سجين محكوم بالإعدام أيضاً ولكن السلطات تتخذه عيناً لها في القسم وموصلاً لوجبات الطعام إلى المحكومين، جاء في الصباح يدندنُ مع نفسه وكعادة السجناء الذين يتطلعون إلى كل ما هو جديد من أخبار سأله صفاء ما الأخبار؟ فقال اليوم (سماوة)، وطار ذهني هل من المعقول ان الحرب باتت على أطراف السماوة؟ ما علاقة السماوة؟ وبمجرد ان انتقل إلى الزنزانة المجاورة حتى تعالت الأصوات بين المحكومين هذا ينادي ذاك وذاك يرد على هذا، فقلت في نفسي يا الهي ما الخبر فعرفت أن العنقرجي اخبرهم أن اليوم سيتم التنفيذ

بـ(سطعش) أي ستة عشر وهذا الذي سمعته أنا (سماوة)، فالعنقرجي لديه معلومات لأنه مختص أيضاً بإحضار الأكياس التي يوضع فيها المحكومون بعد إعدامهم، وتفتيش الزنازين التي يخرجون منها والملابس، وغير ذلك من الشؤون، فارتفعت نسب التصديق بما قاله هاشم وتحفزت الهمم وارتفعت نسبة الأدرنالين في دماء الموقوفين وزاد القلق والتوتر في آن، لمواجهة اللحظة الحاسمة. وفي الظهيرة أقدم الجلادون ومعهم قوائم الأسماء وفتحوا الزنازين فلم يخرج أحد وقالوا لا مشكلة، سننادي بالأسماء وكل من نذيع اسمه يخرج إلى ساحة القاطع؛ فنادوا هاشم محمد فقال بصوت عال سمعه جميع من في القاطع: نعم ... فزت ورب الكعبة، وعلت الصيحات هنا وهناك، وتوقف الجلادون عن إذاعة أسماء جديدة لما يسمعونه من صخب وضوضاء، وقام إبراهيم في زنزانة هاشم بتغسيل وجهه وتقبيله وخرج يسلم على الزنزانات وسط التهليل والتكبير ونزل إلى الطابق الأرضي ليجد إخوانه بين هاتف له بالشهادة وباكٍ على صدق رؤياه ومحمل له بالسلام على رسول الله والجلادون في ذهول لما يرون، ثم صاح إبراهيم لا داعي بعد الأن أن يرد أي محكوم يذاع اسمه بنعم بعد هاشم حتى يأتي مسؤول ونكلمه وارتفع الهتاف الله اكبر الله اكبر فانهزم الجلادون وأقفلوا الباب خلفهم.

بعد ساعة تقريباً جاءت قوات خاصة يقرب عددهم من المائة، وفتحوا أصوات موسيقى عالية جداً للتشويش على صيحات المحكومين وبدأوا بأطلاق القنابل المسيلة للدموع، وكانوا كلما حاولوا الاقتراب من زنزانة هاشم يهجم عليهم إبراهيم فيتراجعوا هاربين، في أحد الجولات تمكن إبراهيم من أخذ هيراوة كانت بيد أحد الضباط وضربه بها، كانت زنزانة هاشم ومن بها من أشد المؤججين والمدافعين والهاتفين ضد الجلادين. استدعوا طائرات هليكوبتر تحوم فوق القاطع، وكثفوا من إطلاق القنابل المسيلة للدموع فأصيب المحكومون بالاختناق، وكان إبراهيم يلتقط القنبلة من ارض الزنزانة بمنشف كان بيده ويعيد رميها على القوات المهاجمة، حتى أصيب جميع المحكومين بالإنهاك والتعب، كانت مطالب رفاق هاشم أن يعيدوا لهم هاشم الذي أخرج من القاطع فدخل علي حسن المجيد (ابن عم صدام حسين) بنفسه، ومعه العشرات من جلاوزته فهدأت الأنفاس وسكنت الأجراس إلا من أنين البعض ومعالجتهم رشح أنوفهم أو همل عيونهم جراء ما فعلته بهم القنابل المسيلة للدموع، فتوجه صوب زنزانة هاشم وطلب منهم أن يسلموا أنفسهم وإلا... . فرفضوا جميعاً ووقفوا متحدين أوامره، فأومأ برأسه، فانهال جلاوزته بالرصاص على إبراهيم الكفيشي من الكوفة ظاناً أن يستسلم الباقون، فوقفوا متحدين واقتربوا أكثر من

باب الزنزانة دون خوف أو وجل، مما زاد من حنقه وغضبه فأومأ ثانية وهكذا الثالث والرابع حتى قتل جميع من في الزنزانة وعددهم خمسة عشر محكوماً. بعد أن صفى الجميع دخل الجلاوزة إلى الزنزانة وبدأوا بإخراج الجثث يسحلونها بالممر وأصوات ضرب رؤوسهم في سلالم الدرج يسمعها بقية المحكومين، في الزنزانة المجاورة كان أحد المحكومين واسمه شبر من أهالي الكوفة واقفاً يساند إخوانه، فقال علي حسن المجيد لشبر، أنت ابني اجلس، فقال أنا ليس بابنك ولا يشرفني أن تكون أباً لي، أنت قاتل أنت مجرم، أنت نذل، والذي ارسلك نذل -يعني صدام- أنا أرى أرواح اخواني وهي تصعد إلى السماء وتريد مني أن أجلس، أنا أريد أن الحق بهم، الحقني بهم بطلقة قيمتها عشرون فلساً أيها الجبان، يقول ذلك بأعلى صوته، وقد انتفخت أوداجه من الغضب، قلب شبر كان يتكلم وليس لسانه، يكاد يخرج قلبه من فيه مع كلماته، حتى ظن البعض أن شبر سيموت ولو لم يطلقوا عليه النار حزناً وأسفاً حرقةً وكمداً على أخوته، فأومأ علي حسن المجيد برأسه أن اقتلوه فأصابوه بالرصاصة الأولى فسقط لكنه لم يمت، وأدرك من حوله جفاف ريقه وشدة عطشه، فجاءوه بالماء فرفض تناوله وقام ثانيةً على باب الزنزانة فجاءته الرصاصة الثانية، فأُردي قتيلاً، وهنا أراد علي حسن المجيد أن يمعن في إذلال الباقين، ويجبنهم فقال

متبختراً: من يريد أن يلحق بهؤلاء؟ فقام مجاهد أخر من زنزانة شبر واسمه خالد من أهالي محلة الشعب في بغداد، وقال أنا أريد ذلك، هيا ألحقني بإخوتي أيها الجبان، فقتله الجلاوزة برصاصةٍ في رأسه؛ حينها أدرك علي حسن المجيد إن جهوده بالتهدئة ستذهب سدىً في حال أصر على التحدي، فغيّر لهجة الكلام وانبرى يعد المحكومين بإعادة النظر في قضاياهم والتحقيق معهم مجدداً، واطلاق سراح من لم تثبت عليه التهمة وأنه سيأمر بإعادة التحقيق مع الجميع، وسجل عدداً من الأسماء ومن بينهم محكومون في الزنزانة التي أنا فيها وأنا معهم؛ لكنه ما إن هدأت الأمور حتى باشر الجلادون ليلاً وبإشراف مباشر من علي حسن المجيد بإخراج المحكومين زنزانةً زنزانة، ومن كل زنزانة يعود محكوم أو اثنين ويمضي الباقون ولا نعلم إلى أين، باستثناء زنزانتين كان في أحدهما رفيق حزبي (من حزب البعث المقبور) من أهالي الناصرية ناحية الإصلاح واسمه موسى دريب شاطي والذي توسل بعلي حسن المجيد أن يسمع قضيته فأمر بتسجيل جميع الأسماء الذين معه في الزنزانة وزنزانة أخرى فيها عدد من المسيحيين المنتمين للحزب الشيوعي العراقي والذين شكوا أيضاً من بطلان التهم الموجهة إليهم إلا أن الزنزانة الثانية سجل قسماً منها ولم يسجلوا القسم الآخر، جميع من سجلت أسماؤهم تم إعادة

التحقيق معهم ولكن بشكل نفسي واستغرق ذلك شهوراً ليتم اطلاق سراحهم فيما بعد وأنا منهم، في حين تم تصفية ٤٢٥ مجاهداً في هذه الليلة منهم طلبةٌ للسيد الخوئي (قدس سره) وأخوي السيد فاضل الميلاني حسين ومحسن والشيخ عادل شبر والشيخ عبد الله السعودي. ومن مفارقات هذا اليوم أن علي حسن المجيد رأى مدير سجن البصرة أثناء أخلاء الزنزانات لتصفية من فيها، فتفاجأ وسأله كيف حالك؟ فأجابه وهل من حال وقد جعلتم هؤلاء (المزعطة) يهينوننا، فقال أين صاحبك؟ وكان يعني به النقيب معاونه الذي سبقه إلى المشنقة فأرسل أحد جلاوزته عليه وقال اسرع، اسرع وأأتي به فجاءوا به، وقد التقيته بعد نهاية الحادثة فقال حينما جاءني الجلواز كانوا قد وضعوا الحبل في رقبتي وعصبوا عيوني استعداداً لشنقي، فصرخ بهم الجلواز ان توقفوا، وأطلق سراحه مع رئيسه فيما بعد.

وحين انتهى السجين صفاء مهدي سعيد من القصة الغصة سألته وكيف عرفت أنهم أعدموا في تلك الليلة هذا العدد ٤٢٥ مجاهداً، فقال:

أولاً: من الأعداد التي أخرجوها في تلك الليلة من القاطع وأنا في القاطع؛ قلت له، ولكن ذلك لا يثبت أنهم أعدموا في نفس الليلة وفي نفس المكان، فمن أين لك بالدليل؟ قال: هذا يتطلب أن أذكر لك قصة السيد عبد الحسين المحنة لكي

تصل معي إلى الدليل الثاني، فقلت هيا حدثني؟ فقال: كما ذكرت سابقاً فإن الطريقة المتبعة كانت في يوم أحد وأربعاء يتم الاعتداء على المجاهدين بعد إخراج ما بين ١٥ إلى ٢٠ منهم لتنفيذ حكم الإعدام بهم حتى دخل شخص محكوم بالإعدام يسمى السيد عبد الحسين المحنة، وكانت قضيته من القضايا الخطرة في نظر الجلادين وهي قضية الرعاية العلمية في مديرية شباب بغداد الذين خططوا لتسيير عجلة نوع سوبر موديل ١٩٨٢ ذاتياً عن طريق الريمونت كونترول لتفجيرها في القصر الجمهوري ومداهمة الإذاعة وإعلان بيان انقلاب من هناك، وفي ذات الوقت فإنه من الرياضيين المهرة في رياضة الكاراتيه فلديه حزام أسود (٥دان)، حتى أن الجلادين كانوا يضطرون إلى تقييد يديه ورجليه حتى يتمكنوا من تعذيبه أو مجرد ضربه، وسبق أن حاول الهروب من مديرية (أمن) الكاظمية بعد أن درب نفسه على السقوط من مسافة ثلاثة أمتار دون ان يتعرض للكسر، ونجح في ذلك وهرب من المديرية ووصل إلى منطقة (الصليجية) وهي ناحية تابعة إلى قضاء الشامية/ في محافظة الديوانية (١٩٠كم جنوب بغداد)، إلا أن الجلادين استطاعوا القبض عليه مجدداً وأعادوه إلى (أمن) الكاظمية. حين دخل السيد عبد الحسين ورأى طريقة التعامل هذه استنكر ذلك وقال للمحكومين بصوت عال: أمعقول أننا نحكم بالإعدام ويتعاملون معنا

بـالهيروات؟ ثـم قـرأ علـى المحكـومين قصـيدة (يحسـين بضـمايرنه... صـحنة بيك آمنا) وهي قصيدة حماسية شعبية تجمع بين الرثاء وتاريخ التحدي للسلطات الغاشمة التي تمنع إقامة مراسيم العزاء لسيد الشهداء وابن بنت رسول الله الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام أيام عاشوراء، وردد جميع من في القاطع بعده وعلا صوت المحكومين، فوصل الصوت إلى إدارة السجن فما كان من أحد الجلادين إلا وقد دخل فنادى على السيد عبد الحسين المحنة أن تعال، فلما وصل قريب منه فقال له: نحن لا نفعل أكثر من تعزية لسيدي ومولاي الحسين عليه السلام وكل من تعرض لهذه الشعائر لاقى أسوأ عاقبة، فلم يفهم الجلاد ما قيل له واتجه صوب الإدارة فجاء ومعه مجموعة من الجلادين وأخرجوا السيد عبد الحسين وعذبوه تعذيباً يعجز المرء أن ينظر إليه، وهو يردد الحمد لله الشكر لله فتعاطف معه معظم من موجود في القاطع من المحكومين بالصراخ وقذف بعضهم ما لديهم من أقداح بلاستك فأعاده الجلادون إلى زنزانته خشية تطور الأمر إلى مالا تحمد عقباه.

يقول الأخ صفاء مهدي: ومن مواقف السيد عبد الحسين المحنة أيضاً كما يرويها أحد المحكومين لي أنه بعد قصيدة (يحسين بضمايرنة) تحدث مع المحكومين أن لديه خطة حول مهاجمة الحرس أثناء التعداد وأخذ بندقية أحدهم وفتح

الأبـواب والتوجـه صـوب الأحكـام الخاصـة لإطـلاق سـراح المسـجونين هنـاك، وكـان مـن بـين المحكـومين رجـل يُـدعى كاظم (حية) أو كاظم (عقرب) لأنه وشم ظهره بحية وعقرب وهو محكوم بالإعدام كونه ذكر صدام بسوء وهو في حالة سكر؛ كاظم هذا سمع بالخطة فصرخ فجأةً: (آخ يا بوية بطني راح أمـوت الحگـوني) فـتم اسـتدعاء الحـرس ونقلـوه إلـى المستشـفى، ليتبين فيمـا بعـد أن هـذه كانـت حيلـة مـن كـاظم حيـة، وهنـاك اتفـاق مسـبق مـع الجلاديـن لإخبـارهم بكـل المعلومـات المهمـة عـن القـاطع عبـر هـذه المسـرحية، عَـرَف عبـد الحسـين ذلـك لأنـه فـي اليـوم التـالي لـم يجـرِ التعـداد. تعرض السيد عبد الحسين إلى التعذيب، وبعد مدة شاء الله أن يجتمع مع غريمه في زنزانة واحدة فافتعل معه مشاجرة وقال له بالحرف: إن قلبي متورمٌ من أفعالك وأريد تأديبك فدعني أبرد غليلي بك شريطة ألا تصرخ ويأتي الحرس فإذا صرخت فاعرف أنك ميت بضربة واحدة مني، وأنا محكوم بالإعدام فماذا ينتظرني غير الموت؟ وبالفعل استجاب كاظم حية لشرطه ولم يصرخ. لقد اضمر ذلك كاظم حية في صدره ليومٍ ينتظره عسى أن يأتي وها قد أتى، ففي يوم الانتفاضة التـي أشـرنا إليهـا وعنـدما بـدأوا يُخرِجـون مَـنْ فـي الزنـازين ويعـود منهـا واحـد أو اثنين عـاد السـيد عبد الحسين المحنة فصرخ كاظم حية كل ما حصل اليوم هو بسبب هذا، فأعادوه

ثم سألوا عن عبد الحسين وأفعاله السابقة فغضبوا وأدركوا أنه كان من أول المشجعين على الانتفاضة بوجه الجلادين وفي أخر تلك الليلة سألوا عمن له معرفة بالسيد عبد الحسين المحنة، معرفة عيانية وقادر على تشخيصه فأشار المحكومون علي فاستدعوني ثم قالوا لي: هيا معنا فأخذوني إلى خارج القسم، وأدخلوني مكان التنفيذ فوجدت الممرات والقاعات قد امتلأت بالجثث ثم قالوا لي: هيّا استخرج لنا جثة السيد عبد الحسين المحنة من بين هذه الجثث، فرحت أتخطى بين المعدومين وأنا أنظر إلى وجوههم حتى تعرفت عليه وقلت لهم هذا؛ وأعادوني إلى مكاني وطلبوا مني عدم الإدلاء باي كلام، وها أنا أحدثك بعد خمسة أشهر من تلك المجزرة. ثم قال لي صفاء: وأود أعلامك أيضاً أن من تم تصفيتهم في تلك الليلة لم يُسلموا جميعهم إلى ذويهم فهناك من سُلمت جثته وآخرين لا، ربما خشية أن يعم الغضب بين الناس أو إمعاناً في إهانة الضحايا وإذلال ذويهم، وقد تأكدت من ذلك بنفسي بعد إطلاق سراحي، إذ سألت ذوي من أعرفهم إن كانوا قد استلموا جثث أبنائهم أم لا فأجابوا بالنفي، مما يعني أنهم لم يسلموهم لذويهم. انتهى كلام الأخ صفاء مهدي سعيد الشمرتي.

علاء وعلاء؛ الشجاعة مَلَكَة

تـذكرني حكايـة السـيد عبـد الحسـين المحنـة وإبـراهيم الكفيشـي وشـبر وخالـد بحكايـة السـجين عـلاء إذ حكـى لـي السيد ماهر حسن جاسم الحسني عنه أنه كان ضليعاً برياضة الجودة والكاراتيه، مؤدباً وخلوقاً إلى حد أن معظم السجناء يحبونه، كان كثير التأمل مع ذاته ويمشي مطرقاً على الأرض من خجله وأدبه. كان أحد مفوضي (الأمن) المشرفين على قسم الأحكام الخاصة واسمه علاء أيضاً، كان ذا بشرةٍ بيضاء، وعيون ملونة وشعر ميال إلى الشقرة ويعتني بزيه الزيتوني وغالباً ما كان يشنف أردانه تقليداً لما يفعله بعض الضباط والحمايات مثل صباح ميرزة محمود حماية الديكتاتور الأقدم، كنا نظنه ضابطاً فعلاً لكن تبين لنا انه مفوض، يبدو أنه يهتم برتبته جداً وان كان مفوضاً فقد عاقب السجين عباس داغر من أهالي العمارة ذات يوم؛ لأن عباس نبّه أخوته السجناء في أحدى الزنازين بأن يهدأوا وقال لهم لقد دخل الشرطي، فسمعه مفوض علاء فما كان منه إلا أن أخرجه من الزنزانة ونكّل به أشد أنواع التنكيل وعذبه تعذيباً يُؤلم قلب الناظر ويُقطّع نياط قلب كل حر على هذه الأرض، كل ذلك لمجرد أنه قال أهدأوا لقد دخل الشرطي، علاءٌ هذا كان يمشي ذات يوم بساحة القسم، فرأى صاحبنا السجين علاء الذي كان مطرق الرأس غارقاً في همه ومحنته، يتأمل

مستقبله مع هذا النظام الذي زجّ بخيرة الشباب في السجون، صاح به المفوض الجلاد علاء:

- (لك تعال).

- جاءه علاء واقترب منه جداً، فازداد حنق المفوض، ورأى من وقوفه وطريقة تلبيته الدعوة نوعاً من اللاأبالية.

- لك أوگف عدل واحترم.

- أنا لم أقلل الاحترام لك أستاذ.

- لا أنت عديم الشرف وغير مؤدب (يلله ولي وما أريد اشوفك هنا).

- اتركني يااستاذ ودعني فلدي ما يكفيني من الهموم، وأنا لم ارتكب خطأً أو أخالف أية تعليمات.

- (لك شنو أعوفك، شنو اتركك، شنو هاي الجسارة، تره والله أكطعك).

- (أستاذ عوفني أرجوك، هو غير الوكت خلاك هجي، لو أنت وآني برة جان تگدر تحجي هذا الحچي)؟

فاستشاط الجلاد علاء غضباً وهمّ بضربه، فأمسك علاء السجين بيده وتلّها إلى الأرض، وبحركة متدرب على الكراتيه وشجاعة بطلٍ لا يهاب الجلادين أرداه على الأرض وأشبعه لكماً على وجهه ورأسه وجوانبه، والبو المنفوخ يتلوى تحت يديه ولا مدافع ولا معين، والجميع ينظر لفداحة المشهد وما تجره هذه الحادثة عليهم من ويلات، وحتى

وصلت القوة يكون الجلاد علاء قد تورم وجهه واحمرت عيناه واقتادوا السجين علاء إلى ما نعلم ويعلم القارئ.

في كل مرة يتصدى سجين للجلادين بهذه الشجاعة يثور جدل ونقاش خفي بين أروقة السجناء بين مؤيد ومعارض، فبينما يعده البعض موقفاً صحيحاً وشرعياً من الناحية الفقهية وشجاعاً وبطولياً من الناحية الأخلاقية، يرى البعض أنه موقف يعرض حياة ومعيشة الجماعة إلى الخطر فقهياً ومتهوراً أخلاقياً وكل يبدي حجته وبراهينه من التاريخ، لكنه في النتيجة يضل عملا بارزاً ومحطة مهمة من محطات السجن ولياليه، وشخصياً فأنا مقتنع من أن هؤلاء يختصرون الطريق إلى الجنة إن استشهدوا أو عاشوا وهم في كل الأحوال سبب في علو شأن الجماعة مهما كانت ردة الفعل التي يتخذها الجلادون.

عفو عام ١٩٨٦

رغم استهتار النظام بكل المعايير القانونية، وقضايا العدل والمحاكمات القضائية التي يجب توفيرها لكل متهم، ورغم استهتاره بطرق التحقيق الأصولية، واستخدامه أشد أنواع التعذيب النفسي والجسدي مع الموقوفين، رغم ذلك كله فإنه يحرص على أن يسوق بعض ضحاياه إلى محاكم صورية يُتلى بمنطوق حكمها بعض المواد القانونية من قانون

العقوبات العراقي، يسري ذلك على عينة قليلة العدد يستخدمها النظام كنوع من الدفاع عن إجراءاته القضائية أمام بعض المنظمات الدولية لحقوق الإنسان، فمثلاً نحن في الأقسام المغلقة كان معظم المحكومين يحملون في أضابيرهم المادة ١٥٦ من قانون العقوبات العراقي رقم ١١١ لسنة ١٩٦٩ المعدل والتي نصت على ما يلي: (يعاقب بالإعدام من ارتكب عمدا فعلا بقصد المساس باستقلال البلاد أو وحدتها أو سلامة أراضيها وكان الفعل من شانه ان يؤدي إلى ذلك)، تحت هذا النص يقبع حوالي ١٥٠٠ سجين في قسم الأحكام الخاصة المغلقة، بدلالة المادة ٧٩ التي لا تجيز الإعدام لمن هم دون العشرين وفوق الثامنة عشرة من العمر، والذين أدينوا بالمادة ١٥٦ ولكن بالاشتراك وفق المادة ١٧٥؛ في حين كان من بيننا حوالي ١٠٠ سجين وجّهت لهم العقوبة وفق المادة ١٧٥ من ذات القانون في فقراتها الأخرى. في عام ١٩٨٦ زار وفد من المحامين العرب برئاسة أحمد خوجة العراق طالباً إطلاق سراح السجناء في كل البلاد العربية ومنها العراق، كان العراق بأمس الحاجة إلى دعم الدول والمنظمات العربية والدولية والتي لم تبخل عليه بذلك، شرقاً وغرباً، فقال للوفد انه سيطلق جميع السجناء لديه، فعزل هؤلاء عنا وأطلق سراحهم مبقياً على الآلاف غيرهم في زنازينه المظلمة وآخرين

يواجهون ذويهم إلا أنه لم يشملهم بذلك العفو الصوري أيضاً.

هذا النوع من الأحداث يترك آثاراً مختلفة على نفوس السجناء تختلف باختلاف رضاهم ويقينهم وصبرهم على السجن وآثاره، وقدراتهم وتحليلهم للأمور، لكنه في كل الأحوال حدث يكسر الروتين ويداعب الآمال بأن يوماً ما سياتي لا محالة لنودع هذا المكان فكما فرّج الله عن إخواننا الذين قضوا معنا هذه السنوات، سيفرج الله عنا، لكن متى؟ لا أحد يعلم. عند البعض سيكون الإفراج عن سجين سبباً للذكرى، ذكرى الأهل، الأقارب، الأصدقاء، طرق المدينة، أروقة الجامعة، محل العمل، شجرة بباب البيت، بستان كان يتنزه به السجين، حبيبة وعدها ان لا يتزوج غيرها، أخت طالما تعلقت بأذيال أخيها، اب يأتي من العمل تعِباً، أم تعد أكلةً كان يحبها... لا تنتهي الخواطر عند البعض فيختلي بنفسه هذا ويتوجه إلى ربه ذاك، يتأمل في قدرته على جمع يوسف بيعقوب ويونس بقومه ثم يقوم ليصلي نافلةً أو واجبة من الصلوات الخمس، أنها صلاة المغترب الحزين.

الدرجة الحرجة للانفجار

ها قد دخلت في السنة السابعة من يوم دخولي السجن، تنقلت في عدد من الزنزانات، واجهت بعض الملامة على عمل كنت أظنه مفيداً ونافعاً، ذاك الذي قلت عنه أنه منهاج ثقافي يشبه التنظيم، في كل عملية انتقال من زنزانة إلى أخرى نفارق من طابت لنا رفقتهم ونتعرف على جدد، حتى التنقل بين الزنازين صار رتيباً وروتينياً، أعداد المعتقلين الجدد بدأت تنخفض تدريجياً، وان وجدوا فهم لا يأتون لأقسامنا، المغلقة ق١ وق٢، النظام ضرب ضربته القاضية من عام ١٩٨٠ حتى العام ١٩٨٥ اكتشف معظم الخطوط التنظيمية لحزب الدعوة الإسلامية، أعدم الآلاف، اخترق ما تبقى من التنظيم، أحرز سيطرته على أمنه الداخلي، ظلت دول الشرق والغرب تُعظم ترسانته العسكرية بأنواع الأسلحة، أفضل أنواع الطائرات ميك السوفيتية وميراج الفرنسية وتورنادو الأوربية، الحرب قائمة ولكن توازن القوى فيها بات علامةً فارقة، فبينما تندفع الجمهورية الإسلامية في ايران بقوة الإيمان بقضيتها وأنها دولة معتدى عليها إذ شنت عليها الحرب ولم يمضِ على ثورتها أكثر من سنة، تلك الثورة الشعبية العارمة التي وصفها البعض بزلزال القرن العشرين، كان النظام الديكتاتوري الحاكم يسوق الألوف من أبناء شعبه بالقوة، حتى خرج الديكتاتور ذات يوم ونحن نراقب نشرة الأخبار

وهو غاضب ليقول: أنا أريد جندي يقف في الجبهة، لا يهمني ما في قلبه راضياً أم غير راض. كان الفرق الكبير في التسليح لصالح الديكتاتور هو عصب التوازن في الجبهة، كل ذلك لم ينعكس إيجاباً على تعامله معنا، لازال يمعن في حرماننا، تعذيبنا، فالنظام لا يتعامل معنا كسجناء سياسيين نهدد أمنه الداخلي فمتى زال هذا التهديد يطلق سراحنا، لا يتعامل معنا كأناس ارتكبنا جريمةً فنُعاقب قدر الجريمة التي ارتكبناها، نُحكم بالسجن المؤبد ونلتقي بذوينا أسبوعياً شهرياً فصلياً سنوياً كيفما تقتضي العقوبة، ربما كان من مصلحة النظام ان يكسب بعضنا أو يكسب ذوينا لو أطلق سراحنا فنحن لا نمثل أي تهديد جدي له بعد أن فكك كل خلايا التنظيمات الإسلامية وباتت الشاردة والواردة في أروقة بنايات أجهزته الأمنية، (الأمن) العامة، المخابرات، (الأمن) الخاص، الاستخبارات، الاستخبارات العسكرية، ناهيك عن منظومة الحزب الحاكم (حزب البعث العربي الاشتراكي) الذي أصبح جهاز أمني أكثر من كونه حزب سياسي، نعم قناعاتنا ثابتة وعقائدنا راسخة ولكن لم يترك لنا النظام -لو قُدّر لنا الخروج- من سبيل لمواصلة العمل الحركي المؤثر عليه. النظام الديكتاتوري تعامل مع الشعب عامة ومعنا نحن الموقوفين والسجناء خاصةً بحقد مبالغ فيه ونزعة سادية خالية من العقل والحكمة في إدارة شؤون البلاد ومنذ اليوم

الأول لمجيء الطاغية صدام حسين في تموز عام ١٩٧٩. كل هذه التصورات اليقينية باتت في عقولنا وضمائرنا بقصد ووعي أو بدون ذلك. لقد تراكم الغضب المقترن بثورةٍ خابيةٍ تحت جوانح كل واحد منا، أو ما يشبه اليأس من حياة غير مأسوف عليها، يأس تحته بركان يغلي ينتظر ساعةً ينفجر فيها بوعي أو دون وعي. كان معظمنا يعيش هذا الشعور الذي لا نستطيع أن نعبر عنه ببيان أو نشرحه بلسان، لا نستطيع شرحه لبعضنا البعض أو للجلادين ولو بصورة الشكوى. وذات ليلة من ليالي شهر رمضان وبالتحديد في ٦/ مايس/ ١٩٨٧، وبينما كان السل يفتك بعدد كبير منا ومنهم المرحوم الشهيد ضياء عبد الأمير من بغداد/ محلة الكرادة فوجئنا بأن حالته ساءت بشكل سريع، حتى إذا حل المساء سلّم روحه إلى بارئها في زنزانة رقم ٥، فوقع الخبر على جميع نزلاء القسم (ق١) كالصاعقة التي فجرت ذلك الغضب المكنون، والثورة المختبئة بين جوانحنا، فلم يدرِ الكثير منا من أين بدأت ومن أي زنزانة انطلقت صرخة (الله أكبر) ليصرخ الجميع من أعماق قلوبهم، ويلتصقوا بأبواب الزنازين، لقد شقت أصواتنا أعنان السماء، لم يلتفت الجمع إلى العواقب المحتملة لهذا التحدي ومن التفت من القلة القليلة فهو لا يستطيع ان يعبر عن رأيه إما خجلاً أو خوفاً من أن تسحقه الجموع وهم بهذا البركان، بُحت بعض الأصوات لشدة الصراخ، خاصة وان

أجسادنا متعبة بعناء السنين، سنين الحرمان، جوع، فراق، تعذيب جسدي ونفسي، امتدّت الهتافات إلى ق٢ القسم المجاور، وقف الجلاوزة مذهولين أمام هذه الانتفاضة، الصرخة، التمرد، لا يعلمون، سجناء منهكي القوى، نحيلي الأجساد، يفتك بهم المرض، يقبعون خلف أسوار زنازين مقفلة، بعدها جدُر محصنة، ثم جدُر وهكذا خمسة أسوار حتى يلامسوا بأقدامهم الشارع العام، كل تلك التحصينات لكن صرخة الله أكبر أرهبتهم، ارتجفت قلوبهم، فزعوا فانطلقوا بالجثمان بسرعة وأقفلوا باب القسم خلفهم، بعد نصف ساعة من التكبير خارت القوى وعاد الجمع إلى الهدوء ليتدبروا ما عليهم أن يفعلوه أو يقولوه للجلادين الكبار الذين سيقدمون حتماً بعد هذه الثورة، المغامرة، الاحتجاج.

وبالفعل دخل المسؤول الأمني الأعلى المشرف على الأقسام المغلقة ضابط (الأمن) طارق ومعه عدد من الجلاوزة، دخل بهدوء لكن خلف الأقسام تقف قوة كبيرة مدججة بالسلاح فكانت الطلبات تتركز حول تحسين الأوضاع التي نحن فيها من ماء وغذاء وشمس ونظافة الأقسام ومجاري المراحيض وزحام الأعداد، فتح أبواب الزنازين، وقد استجاب لبعضها ولم يستجب لأخرى.

جميعنا تفاجأ من ردة فعل النظام على هذا التحدي ونحن في قبضته، الجميع كان يتوقع أن ندفع ثمناً باهضاً لهذه الصرخة داخل الزنازين، فحسب ما لمسناه ونلمسه يومياً من النظام القمعي البوليسي فهو نظام مستهتر بكل القيم والأعراف الدولية والمبادئ الإنسانية، فضلاً عن كونه مدعوم من الشرق والغرب كما أسلفت، وما هو أهم أننا أصبحنا في عداد المنسيين أو الموتى في نظر أهالينا، فسبع سنوات من التغييب كافية لزرع اليأس في قلوب آبائنا وأمهاتنا، فلن يشكل إعدامنا ردة فعل ضد النظام وسلطته.

غالبيتنا العظمى وطّنت نفسها لكل العواقب وأقساها، أننا عبرنا ولأول مرة وبهذه الكيفية عما في داخلنا من الرفض لهذا النظام، أنها كلمة (لا) كبيرة وعالية وقوية بوجه الجلادين، أننا راضون عن أنفسنا، استعدنا اليقين الذي نتحدث عنه طيلة سنين قضيناها في هذه الطوامير، اليقين بأن الله معنا، اليقين أننا على حق، اليقين أننا نمتلك من الشجاعة ما يكفي لقول (لا) بوجه الظَلَمَة فلا غرابة أني والكثير لا زلنا نتذوق حلاوتها، حماسها، ذكرياتها. قد أستطيع أن أحلل بعض الأسباب التي دفعت النظام وجلاديه لأن تكون ردة فعلهم على هذه الكيفية من التسامح والاستجابة لبعض الحقوق، كخشيته من المنظمات الدولية، وحاجته لورقة السجناء في تبييض وجهه وشعوره بتماسك جبهته وسيطرته

الأمنية، لكن كل ذلك غير كاف أبداً لإقناعنا، ما أتيقن به شخصياً هو أن هناك قوةً خفية تسوق قلوب الطغاة في لحظات معينة فتتخذ قرارات خارج السياق المألوف وهذه القوة ذاتها هي من تهيئ ظروفاً لمثل هذه القرارات.

النشوةُ والجرأة

فُتحت أبواب الزنازين على بعضها، صار لنا حرية التنقل بينها، تم الاعتناء بتغذيتنا بقدر ما، استطاع بعض السجناء وبما لدى عوائلهم من علاقات أو أموال أو وجاهات أن يروا أهليهم، عدد محدود جداً، بتنا نمارس بعض الاحتفالات داخل الزنازين، ألقاء قصائد في بعض المناسبات، مجالس عزاء حسينية، كل ذلك نعدّه من نتائج ثورتنا وهتافنا واحتجاجنا في مايس عام ١٩٨٧، وان لم يكن كذلك. ليس لدينا علم حتى اليوم كيف تعاملت السلطات مع مظهر الاحتجاج هذا، هل كانت الصرخة هي الحجر الذي حرك الماء في البركة الراكدة؟ بركة نسياننا في هذه الطوامير، هل أن السلطات العليا التفتت بناءً على مشورة ما بضرورة الاهتمام بهذه الثلة لمصلحة النظام الجائر؟ أم أنها أدركت بعد كل هذه السنين أنها استخدمت العنف المفرط بحقنا وآن لها أن تعود إلى منطق العقل والحكمة والسياسة؟ أم إن

الجلادين أوصلوا الرسالة إلى كبارهم بأننا اليوم فدائيون لا نبالي بحياة أو ممات وهما عندنا سواء؟

الفصل الرابع
السماح بمقابلة ذوينا

لقاء يشبه الحُلُم

لم يعد بين السجناء الذين يؤدون مهام الخدمات أحد من المنافقين، وازداد حجم الثقة التي يبديها الجلادون وإدارة السجن بهذه الثلة، تسربت أنباء عن وجود نية لإدارة السجن بإعلام ذوينا ودعوتهم لمقابلتنا في أبي غريب حيث نُعذب منذ ثمان سنين، واجهت السلطات مشكلة وهي أن بعض الأهالي لا يتفاعلون مع تلك الدعوات ويظنونها بالونات اختبار أو شائعات أو محاولات لابتزازهم؛ فلا يستجيبون لطلب اللقاء أو يحاولون المماطلة فيه؛ لأنهم سبق وإن أخبروهم بإعدام أبنائهم، وحتى الذين لم يخبروهم فإن المدة التي مرت دون ان يعلموا لأبنائهم حسيساً ولا نجوى يجعل ظنونهم تميل إلى استشهاد أبنائهم أكثر من ميلها لصالح بقائهم أحياءً، ذلك ما دعا الإدارة أن ترسل على بعضنا لكتابة رسائل خاصة لذوينا نذكر فيها الأسماء أو الحوادث الخاصة في العائلة كي تتيقن عوائلنا أن هذه الرسائل هي من

أبنائهم المغيبين، وكان من بين من دُعوا لكتابة تلك الرسائل عبد الرحمن مرزوق من أهالي البصرة.

في البدء كانت الأعداد التي ينادى عليها للمواجهة قليلة جداً وليس هناك من جزم في أن الجميع سيقابلون ذويهم، كان من بين من نودي عليهم للمقابلة حبيب شلاكة حمزة من أهالي الديوانية قضاء الشامية، كان من عائلة تؤمن كثيراً بالغيب وكرامات أهل البيت عليهم السلام، قص علينا ما دار بين أهله وبينه بعد المقابلة فقال:

اعتاد أبي أن يذهب لزيارة الأربعين كل عام، إما مشياً على الأقدام أو في السيارة إن كان المنع من المشي قاسياً ومحكماً، في عام ١٩٨٨ استطاع أبي ومعه عديله (زوج أخت زوجته)، من الوصول إلى كربلاء مشياً بالتخفي، وبعد أداء مراسم الزيارة وكان مهموماً مغموماً قد أخذ منه فراقي وغيابي مأخذاً كبيراً وهدّ حوله وقوته، وهو المريض بداء السكر مذ كنت خارج السجن، طلب منه عديله أبو ماجد أن يعودا إلى أهلهم ولكنه فاجأه بالرفض؛ استغرب أبو ماجد، ما هذا يا أبو حبيب، لقد زرنا وها قد مرت علينا أربعة ليال وخمسة أيام عن ذوينا؟ فأجابه بصوت شجي ودموعه تنفجر من مآقيه دون استئذان: لن أعود حتى يعطيني الحسين عليه السلام مرادي؛ لن أعود حتى يأتيني خبر من حبيب، معدوماً كان أو سجيناً. ألح عليه أبو ماجد، هدّأ من روعه، أمّله، عذلهُ

عن رأيه فلم ينفع، فتركه في كربلاء المقدسة وعاد أدراجه، وقبل أن يأتي إلى أهله قرر المرور بأهل (أبو حبيب) ليخبرهم عن قصته، وإذا بهم يفاجئونه باستلامهم ورقة مختومة من (أمن) السجن لدعوتهم إلى مقابلة حبيب في موعد قريب فقال سبحان الله وأخذ الورقة ليحصل على بشارة أبي حبيب وذهب إلى موقف سيارات الـ(OM) وظل على هذا الحال يومين حتى عاد أبو حبيب وبشره بالبشارة.

الله أعلم بحال عباده يمدهم بالصبر قدر المصيبة، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، فلا غرابة ان يتدخل حين تبلغ القلوب الحناجر وتظن الناس بالله الظنونا وتتوسل بالأولياء والصالحين ممن يدركون أنهم قريبون إلى الله لفهم آهاتهم ولوعاتهم.

بعض الزنانزين لم تفتح أبوابها طيلة أربعة أعوام، وذلك من أشد العذابات على السجين، يقول السجين محمد عبد الحسن عبود الكندي من أهالي النجف ناحية المشخاب: كنت في الزنزانة رقم ٢٠ من العام ١٩٨٤ حتى العام ١٩٨٨ وعددنا في الزنزانة كان ٤٥ سجيناً خشينا على باب الزانزانة من الصدأ وقد نحتاج لفتحه في أية لحظة، إذ كانت الشائعات بين مدة وأخرى تتحدث عن إمكانية أن يكون هجوم عسكري من هجومات الحرب يؤدي إلى انكسار الجيش وسقوط النظام، فأشرنا على بعضنا بأن نعمد إلى صب بقايا

الزيت التي تتكتل أحياناً تحت الرز على قفل الزنزانة لكي يبقى رطباً يمكن فتحه، كان المراقب عبد الدايم من أهالي البصرة، قضاء أبي الخصيب، يجيد التعامل مع المنافقين، فلا عقوبات عليهم في كل تلك المدة.

بعد مرور عام على ثورة التكبير وبالتحديد في ١٠/ ٥/ ١٩٨٨ نودي على اسمي ضمن وجبة من السجناء أظن أن عددنا كان ٧٠ سجيناً لمواجهة ذوينا، خرجنا من القسم صوب الممر المحظور علينا المرور فيه طيلة ثمانية أعوام، تفحصت جدرانه، سقفه، طوله، عرضه، كأني في صالة كبيرة واسعة ليس لها حدود، أنها مشكلة العين التي تتعود على مساحة محدودة، وضوء محدود، انعطفنا على اليمين ثم باب يؤدي إلى مسقف واسع، فرشت بطانية بالية اصطحبتها معي لهذه المهمة، وهكذا من معي من القائمة المخصصة، علينا جميعاً إمارات البِشْر والقلق، الخوف والرجاء، ننتظرُ ولا ننتظر، ننتظر ذوينا ولكن أي منهم سنقابل بعد ثمان سنوات مدةْ تعدل نصف جيل، يرحل من يرحل ويُعاق من يُعاق، ويمرضُ من يمرض، لا ندري، ناهيك عن الحرب المستعرة التي أول وقودها العراقيون أهلونا نحن السجناء وأهالي غيرنا من المواطنين، نترقب وجوه بعضنا البعض حيناً، بنظرات غير محددة، تجمع بين التهنئة والوجل، ونرمق الباب المؤدي إلى الممر حيناً آخر، نترقب البدء بدخول عوائلنا دفعةً واحدة،

كما خرجنا نحن لمقابلتهم دفعةً واحدة، ناسين أن هناك محطات للتفتيش، تفتيشهم وتفتيش ما معهم من مأكل وملبس ومستلزمات، وهناك ختم لذراع كل رجل منهم ذلك ما يجعلهم يأتون عائلة عائلة. ها قد دخلت أول عائلة، ليس حالهم بأفضل منا فهم أيضاً وجلون، خائفون ينظرون لبعضهم حيناً والينا حيناً آخر، ليس عليهم من إمارات الفرح والسرور بقدر ما عليهم من إمارات القلق والذهول، أسئلة كثيرة تخفق بقلوبهم فتزيدها قلقاً وذعراً. لم نر عائلة توجهت صوب ابنها وتعرفت عليه مباشرةً إلا بعد طول تروٍّ وتأمل، ثم يبدأ العناق، وأي عناق ليتني كنت من الوجبات المتأخرة لكي أتدرب على هكذا لقاء، ليتهم أعدونا بشكل أفضل لهذه اللحظة، ليتهم أخذوا لنا صوراً أرسلوها لعوائلنا قبل اللقاء، أو جلبوا لنا صوراً منهم، خواطر وأمنيات خطرت على قلبي وأنا أنتظر أهلي، وأنى لهذه الخطرات من أن يسمعها الجلادون؟ أمهات أُغشي عليهن، أخريات صرخن بأعلى أصواتهن، منهن من رفضن الإقرار أن هذا الذي يقف أمامهن هو ابنهن حتى تدخل رفاقهم الذين معهم في السجن يقنعونهن ان هؤلاء أبناؤهن، نعم يقسمون على ذلك بأغلظ الأيمان.

تعرفت على أبي وأمي وأختي الكبرى، فالمسموح في هذه المقابلة ثلاثة من ذوي السجين فقط، والمسموح من

الوقت ساعة واحدة فقط، والمسموح من الأموال خمسون دينار فقط، هكذا بلغونا وبلغوا ذوينا، تعليمات صارمة وحازمة؛ عانقت أبي وأمي وأختي وعانقوني وشممتهم وشمّوني، سالت دمعة من أبي فنهرته أمي، وقالت له لا تؤذيه، فيكفيه ما هو فيه، هل ظننت يوماً أن تراه وها أنت بجواره، احمدِ الله واشكرهُ على هذه النعمة، بدل البكاء والدموع، من قال أننا سنجده حياً؛ أدرك والدي صحة ما تقوله أمي، ودخلت كلماتها إلى عقله وقلبه، فتمتم بصوت متهدج، الحمد لله، الحمد لله، ثم وضع يده ثانيةً على رقبتي وأدناني منه ليقبلني، الشوق جوع وعطش، لم يرتو الآباء من أبنائهم بعد الفراق بقبلة واحدة أو ضمة واحدة، تجمدت أختي الكبرى، لا تنطق فقط تتأمل في وجهي، تسمرت عيناها على عينيّ تنظرُ لي بحذر وذهول، ظلّ الحديث تحت إمرتي فبياني طوع لساني، أنا الذي أوجهه يميناً وشمالاً أتجاذب أطرافه أحياناً مع نفسي فأنا من أسأل وأنا من أجيب، حرصاً مني أن أوصل أكثر المعلومات وأهمها لوالديَّ وأختي، وأنا من أتفقد هذا وذاك، كيف حال أبو زكي، أم فلاح، أم نغم، حمدية، حاولت بأي طريقة أن أتفادى ذكرى أخي الذي أعدم بعد اعتقالي بسنتين (١٩٨٢)، لم استطع، عاد أبي للبكاء مرةً أخرى، هذه المرة لم تتمكن أمي من أداء دور الصابر الجَلِد، الذي يلهم الصبر لغيره، فانهارت هي الأخرى بالبكاء، ظنوا

أنـي لا أعلـم بـالخبر، لكـنهم فوجئـوا مـن جلادتـي وعـدم انهيـاري، فعلاقتـي بـأخي الشـهيد فيهـا الكثيـر مـن الـود والمشاكسة كما أسلفت في أيام الصبا والطفولة، سألتني أمي من أخبرك بإعدام أخيك؟ لقد أخبرني من هم معه في نفس القضية وقد حُكِموا بالسجن المؤبد وهم معي؛ حدثوني أنتم هـل استلمتم الجثمـان؟ قـاطعتني أختـي الكبـرى ولـم تتحمـل السكوت أكثر من هذا، (خوية باهر وياك)؟ بـاهر ابنهـا الأكبـر، (إي نعـم ويـاي)، عـادت إلـى حالهـا الأول مشـدوهة الـذهن، شاردة البال، لمْ أشأ أن أنغص عليهم أول لقاء، تركت السؤال عن حيثيات استلام الجثمان، جثمان أخي الشـهيد، واستبدلته بالحديث عن باهر، صحته، تاريخ حكمه، كيف التقيت معه، كيف اخبرني عن أحوالكم، ستتمكنون من رؤيته عما قريـب، فهـو فـي القائمـة المقبلـة إن شـاء الله، بـدأت والـدتي بتبليغـي سلام أخي الأكبر وباقي أخواتي، وأقاربي، وهي تقول نحن بخير، لا تفكر فينا، استثمرتُ فرصة اللقاء لأمنحهم الأمـل، والثبـات، ولـيس أنسـب لـذلك مـن الحـديث عنـا كمجتمـع سـجناء نحمـل قضـيةً واحـدةً وتهمـةً واحـدة اسـمها الإسـلام الأصيل، لذا استطردت بالحديث عن إيماننا، صلابتنا، يقيننا وثقتنـا بـالله، بالمبـادئ التـي نحملهـا، تآزرنـا، وحـدتنا، صـبرنا، عدم يأسنا، تكافلنا، لـم أتحدث عن كـل المنغصـات، فيكفيهم مـن الفـراق مـا يكفـيهم، أردت توضـيح التهمـة الموجهـة إلينـا

فبادرت بالقول: ونحن عندما كنا معكم خارج السجن لم نرتكب خطأً ولا سلكنا طريقاً شاذاً، نحن فخركم، فارفعوا رؤوسكم، قولوا الحمد لله، أبناؤنا لم يقتلوا أحداً، ولم يعتدوا على أحد، أبناؤنا أخيار، أكبر ذنبهم أنهم مؤمنون بالله، ويحرصون على تعاليم الله، واطمئنوا أن من مات منا فهو عند رب كريم ومن لازال حياً فهو مفخرة للقريب وللبعيد، لا نحتاج منكم سوى رضاكم عنا ودعاؤكم لنا. بهذا المقدار من الطاقة الإيجابية وعنفوان الشباب، ولغة الإيمان بقضيتي، أحسست أن أبي وأمي وأختي الكبرى انتشوا وأُنعِشوا، لقد صدمهم كلامي وطريقة حديثي واليقين الذي تحدثت به، كانوا يظنون أن يجدوني مخذولاً بائساً ضعيفاً، فدلالات جسمي غير دلالات لفظي، إذ عرفت فيما بعد أن أختي الكبرى ظلت مصدومة من منظري بعد عودتها أسبوعين كاملين وراجعت طبيباً مختصاً لهذا الغرض، كل ذلك مما رأته مني من شحوب الوجه واصفرار الجلد والضعف الذي عليه أنا اليوم وبين ما فارقتني عليه قبل ثمان سنوات؛ طبعاً ثمان سنوات من غير أن نبصر نور الشمس ولا ضوء القمر، ثمان سنوات من غير أن نذوق النومة الهانئة، ثمان سنوات من غير نأكل الطعام الذي نرغب،... وكثير غير ذلك.

بدأ الطرق على الأعمدة الحديدية التي ترفع سقف الساحة التي قابلنا ذوينا فيها تنبيهاً إلى أن الوقت المخصص

للزيـارة نفـد؛ وعلـى العوائـل مغـادرة المكـان، وان الزيـارة انتهـت، عـادت أرواح أبـي وأمـي وأختـي إلـى الانقبـاض، لـم يشـعروا أن سـاعةً قـد انقضـت، فهـذه المقابلـة مـرت كطيـف جميـل فـي نـومهم، أو خـاطرة أمـل فـي لحظـة مـن لحظـات يقظتهم، لـم يستجيبوا للتنبيه الأول ولا الثاني، عـدوا أنفسـهم لا يفهمـون لغـة الطَـرْق هـذه، فصـرخ أحـد المشـرفين علـى الزيارة من الجلادين بصوت أجش: (يله انتهت الزيارة، يله اطلعوا خارج القاعة، يلّه، يلّه) يعني، هيا، هيّا اخرجوا. فلم يجد كل سجينٍ منا بُدّاً من إقناع ذويه على المغادرة للحفاظ على كرامتهم، لا نريد منهم أن يسمعوا ما يجرحهم ولنعود نحن محملين بما جادت به أنفسهم من ملابس ومستلزمات مسموحة وأكل فارقناه منذ ثمان سنين.

أحوال ما بعد مقابلة الأهل

عـدنا إلـى الزنـازين وكـل واحـدٍ منـا يحمـل أخبـاراً خاصـة وعامـة، بـدأ الـبعض بإقامـة مجـالس العـزاء علـى آبـائهم أو أمهاتهم أو إخوانهم الراحلين عن هذه الدنيا، وآخرين سمعوا بأعزةٍ لهم قد أكلتهم نار الحرب المستعرة منذ ثمان سنين، أحوال بعض الأهالي تغيرت نحو الأفضل من حيث المُكنة المادية، وآخرين نحو الأسوأ، البعض أخبرَ بزواج أخواته أو بعضهن، أو زواج إخوانه، أو تخرج هذا ورسوب ذاك، كثيرة

هي الأخبار أفراحاً وأتراحاً. ما أهمني شخصياً أن معظم أهلينا لازالت قلوبهم معنا، لم يستنكروا عملنا ولم يغضبوا على توجهاتنا، معظم أهلينا صارت بين النظام وبينهم فجوة كبيرة، لم يستطع النظام ان يردمها وكان بوسعه ذلك، لم يرسل أي مسؤول حزبي عليهم ليشرح لهم الذنب الذي اقترفناه -إن كان لنا ذنب- وبستميلهم لجانبه، بل استخدم القسوة والسطوة والقوة، أُبعِدَ عن وظائف التعليم ذوونا حتى الدرجة الرابعة وكذا ذوونا الذين يشغلون مناصب أمنية أو عسكرية فقد طُردوا من وظائفهم، ازدادت مساحة المعادين للنظام كنتيجة حتمية للقمع الذي مارسه ويمارسه ضدنا ونتيجة هذه الممارسات أيضاً، فما ذنب ابن الخال أو ابن الأخت أو الخال أو العم ليطرد من وظيفته بجريرتنا. الغالبية العظمى من أهالينا في الوسط والجنوب لم يكونوا مقتنعين بالحرب القائمة بين النظام والجمهورية الإسلامية في ايران، كل قتيل يسقط في الجبهة يزيد من الفجوة بين النظام والأهالي، رغم أنهم يسقطون في الحرب إلا أن ذويهم صاروا يعدونهم قتلوا بسبب النظام وقمعه، ساحات الإعدام داخل المدن زادت من سخط الناس على البعثيين ومجمل أتباع النظام، لكن ذلك كله لم يُضعف من سطوة السلطة أو يخفف من قبضتها. قرأت بين سطور جميع من قابلوا ذويهم أن مقبولية الحكم في العراق ليس كما كانت عام ١٩٧٩ أو

١٩٨٠ أو ١٩٨١ فمنذ النكسات التي تلقاها الجيش في هجومات الشوش وديزفول والمحمرة عام ١٩٨٢ انقلب الرأي العام لدى الغالبية العظمى ضد النظام ومغامرته في الحرب.

أما نحن فبدأت الدنيا وغرورها وزبرجها وزينتها وميولها تدغدغ قلوبنا وعقولنا، أفكارنا وشهواتنا بقدر يختلف من سجين لآخر، بدأت إفرازات الفقر والغنى، الجاه والبساطة، تنتقل من خارج أسوار الطوامير إلى باحاتها، ورغم حرص معظم الميسورين منا على الإيثار والتضحية وتوزيع ما تجود به عوائلهم على المعوزين والمحتاجين إلا أن ذلك لم يخفف بالمطلق همهم وتفكيرهم بذويهم. عقولنا التي كانت قد انقطعت عن الأهل والأولاد والدنيا والمال وكان جل همها بالعبادة والعرفان بدأ يتسلل لها معاناة أهالينا خارج الطوامير.

أنجز الجلادون مهمة مقابلة ذوينا في ق١ وق٢ وكل الأقسام المغلقة على شكل وجبات في غضون شهرين، لتنقطع بعدها المقابلات ويغلق الملف باستثناء أولئك النفر القليل جداً الذين لا يتعدون أصابع اليدين والقدمين ممن لهم علاقات ببعض الضباط أو يدفعون الرشا أو يتوسطون لدى بعض الوجهاء استمرّت مقابلاتهم لذويهم بين الحين والآخر.

قرار وقف الحرب في ١٩٨٨/٨/٨

نحن لسنا بدعاً من الأحزاب والحركات والتيارات التي تعارض الأنظمة الطاغوتية في بلدانها. كل تلك الحركات في العالم تعول على أي متغير دولي أو إقليمي أو محلي ليصب في صالح موقفهم السياسي مع النظام. ثمان سنوات من البقاء في الطوامير المغلقة ليست قليلة مهما كانت العقيدة التي يحملها البشر، والتوق إلى الحرية وسقوط النظام الذي أرانا أنواع التنكيل والاضطهاد وأعدم العشرات ممن نعرفهم خارج السجن أو التقيناهم في زنازين (الأمن) العامة أو المحافظات التي نُقلنا إليها، سقوط هذا النظام أمل يداعب مخيلاتنا، كنا نعوّل الكثير على أن الحرب القائمة بين العراق وايران لن تنتهي إلا بسقوط النظام في بغداد وفق ما يتسرب إلينا من أخبار. مهما كان شكل العقيدة التي تربطنا بمبادئ الجمهورية الإسلامية في إيران إلا أننا ندرك أن معظم العراقيين يقاتلون بغير إرادة وإنما يُساقون إلى الحرب عنوةً؛ كنا ندعو ليل نهار أن تنتهي هذه الحرب بسقوط النظام بأي طريقة، هزيمة عسكرية، انقلاب عسكري، مقتل رأس النظام، خلافات في عائلة الرئيس الطاغية، لا يهم، كل يومٍ يمر نخسر المئات من أخوةٍ لنا في الجبهات أو المشانق أو غرف التعذيب، أو من جراء السل في السجون. استمرار الحرب ليس غايتنا ولا من أمانينا، لكن استمرار الحرب بالنسبة لنا

متعلق بسقوط النظام. النبوءات المستقبلية في كتب التراث الديني تتحدث عن كثير من الأحداث تقرع أسماعنا من بعض المطلعين، وما بين مصدق ومكذب تميل نفوسنا إلى تصديق البعض منها، ومنها أن هذه الحرب لا تنتهي إلا بسقوط النظام وتشكيل حكومة عادلة في العراق. القليل القليل منا من له تحليل مغاير بشأن الحرب وموازين القوة بين العراق وايران وموقف الدول الكبرى من هذه الحرب وإرادتهم للكيفية التي يجب ان تنتهي بها، هؤلاء لا يستطيعون أن يفصحوا عن رأيهم جهاراً نهاراً، قد يُؤَوَّل هذا الرأي على أنه يأس أو إنه رأي يعاضد النظام الديكتاتوري فلا يبيحون به، معارضة العقل الجمعي مشكلة كبيرة في كل العصور وكل المجتمعات. صدر بيان البيانات في ١٩٨٨/٨/٨ وتسرب إلينا بيان الإمام الراحل السيد الخميني رحمه الله عبر الراديو السري الذي يحتفظ به ويُتَحفَظُ عليه في زاوية من زوايا إحدى الزنازين. ترجمة البيان آلمتنا وأدركنا أن الحرب كما فرضها الطاغية على إيران فإن وقفها قد فُرِض على ايران من قبل الدول الكبرى. لم نكن نتوقع أن يكون حجم الفرح بهذا القدر لدى العراقيين وبهذا الشكل العلني، لأن الحرب لم تحقق الأهداف التي أعلنها صدام في بدايتها وهي تعديل معاهدة الجزائر بين العراق وايران في عام ١٩٧٥ وإعادة الجزر الثلاث طنب الكبرى وطنب الصغرى

وأبو موسى إلى دولة الإمارات، فبماذا يحتفل العراقيون بعد ثمان سنوات من الدمار والخراب ومئات الألوف من الضحايا؟ البعض منا اعتبر مظاهر الفرح هذه احتجاج من الشعب ضد النظام، يعكس حجم الرفض لهذه الحرب ومقدار الألم الذي يعاني منه، مما اضطرّ النظام لأن يركب الموجة ويعد ذلك انتصاراً وهو الذي لم يحقق أي مطلب من حرب ابتدأها هو ودفع ثمنها الشعب غالياً بسبب قرار الديكتاتور.

انقسمت التحليلات على خطوة النظام القادمة، البعض قال بأن النظام سيزيد من إجراءاته القمعية بعد أن تفرغ من الحرب وأوزارها وسيوظف ما يسميه انتصاراً بالحرب لتصفية من تبقى من معارضيه ولا غرابة أن يعود على السجناء منهم بالتصفية الجسدية حقداً وانتقاماً، وتوظيفاً للدعم الدولي الذي تلقاه واستثماراً لأجواء الرأي العام الذي يضج بنبأ وقف الحرب، أما البعض الآخر فكان له تحليل مغاير وهو أن الحرب كانت السبب الرئيسي وراء حملات التنكيل والتعذيب والإعدامات التي لحقت بنا، وبما أن الحرب قد انتهت فسيعمد النظام إلى تغيير سياسته نحو الأحسن وربما يطلق سراحنا أيضاً. لم يبدُ على النظام ردة فعل سريعة بتعامله معنا، لازال الحال كما هو، أصحاب الرأي الثاني وبعد تسرب الأخبار حول عمليات الأنفال

الأولى والثانية بحق أخوتنا الكرد في كردستان العراق رأوا في ذلك تعزيز لنظريتهم وتحليلاتهم بشأن سلوك النظام بعد وقف الحرب، أما أصحاب الرأي الثاني فما زالوا مصرين على رأيهم وهو أن حالة الأخوة الكرد تختلف تماماً عن حال المعارضة في الوسط والجنوب وعلينا أن ننتظر. هذا النوع من التحليلات يجري على ألسنة القليل القليل منا، أما عامة السجناء فلهم نمط آخر.

الله أكبر ثانيةً

تحتاج سلطات الدول إلى وقت ليس بالقصير لأن تبني هيبة الدولة واحترام القوانين وحالة الردع في مخيلات مواطنيها، وقد يتراكم ذلك العمل بمر السنين حتى يبيت للدولة أية دولة مهابة وطاعة. الطواغيت كذلك يحتاجون إلى وقت كي يبنوا حواجز الخوف لدى رعاياهم، الخوف من الاعتراض، الخوف من التمرد، الخوف من كلمة لا على أفعالهم وأقوالهم التي ما أنزل الله بها من سلطان ولم ترد في قانون أو نظام. ليس لدى الطواغيت من حجة أو بيان يقنعون به رعاياهم فيلتجئون إلى القتل والتنكيل لإرهاب رعاياهم.

السجون عندهم ليس للمجرمين من المجتمع، بل لكي يضعوا فيها صفوة المجتمع وأولئك الذين تجرأوا على قول كلمة لا. بناءً على ما تقدم فالسجناء مجتمع لأصحاب الرأي،

مجتمع الثلة الشجاعة، مجتمع الصفوة المختارة، فيقيناً أنهم يحتاجون إلى مزيد من القوة والعنف لكي يبني الطواغيت حواجز الخوف لديهم. فمهمة الجلادين في السجون ليست تغييب تلك الصفوة عن المجتمع ومعاقبتها بسلب حريتها فقط، بل لقتل كلمة لا في نفوسهم، أو أضعاف روح التمرد عندهم، زراعة اليأس والإحباط وربما مراجعة عقيدتهم التي وقفوا مدافعين عنها بأموالهم وأرواحهم. فلا غرابة أن يستخدموا مالا يخطر ببال بشر من أساليب التعذيب والتنكيل بحقهم. لقد تضعضع حاجز الخوف كثيراً بعد انتفاضة عام ١٩٨٧ وأكثر من ذلك فقد رأى السجناء أن صرختهم بوجه الجلادين قد أثمرت فتحسنت بعض أحوالهم، ثم ما هو ذنبهم لكي يمنعوا من مقابلة ذويهم حالهم حال أي سجين تحكم عليه المحكمة بجناية؟ أليس بجوارهم من هم محكومون بذات التهم من اتباع الحركة الإسلامية في العراق ويتمتعون بمقابلة ذويهم كل شهر؟ دارت الأيام وتوفي السجين علي حمادي من أهالي البصرة في يوم الثلاثاء ١٩٨٩/٦/٢٠ فتفجر بركان الغضب من جديد وصدحت حناجر السجناء بالله أكبر ثانيةً، وهذه المرة أكثر شدةً وبأساً فلم تبق في الزنازين كسرة صابون، أو كاسة لبن، أو خشبة سجود، أو إناء صغير أو حذاء متهرئ أو نعال بلاستك إلا وتم قذفه على الجلادين، الذين دخلوا بعد أن أخرجوا

جثمان السجين علي حمادي من زنزانة رقم ٧، ظانين أن بإمكانهم تهدئة الوضع، فخرجوا مهرولين مذعورين، حتى إن أحد الجلادين علق بباب القسم المطل على الممر، فخدمات القسم من السجناء يريدون إخراجه كي لا يتم قتله من قبل السجناء الهائجين ورفاقه يظنون أنه سجين يريد الاندفاع إلى الممر ليؤلب بقية السجناء في الأقسام الأخرى على التمرد. فيُطبِقون الباب على جسده، فظل يصرخ عليهم بأعلى صوته، أنا فلان أنا فلان، حتى تبينوا أنه منهم، فأخرجوه وأوصوا على آلةٍ كهربائية فلحموا الباب الحديدي من الخارج كي لا يكسره السجناء، وبدأوا برمي القنابل المسيلة للدموع من نوافذ بأعلى القسم، الكثير منا لم يسبق له وإن تعرض لهذا النوع من القنابل، بعضنا بدأ يسعل، آخرون عادوا إلى الزنازين، آخرين لا زالوا على حماسهم، استخدم الجلادون الأعيرة النارية في الهواء لخلق حالةٍ من الذعر بين السجناء، بعد نصفُ ساعةٍ أو أكثر قليلاً، عاد لبعضنا التفكير في العواقب، فبادر العقلاء إلى التهدئة، وخبت أصوات التكبير، وعاد السجناء إلى الزنازين وبادر أفراد الخدمات إلى تنظيف ممر القسم تماماً من مقذوفات السجناء العُزّل وجمعها في الأواني المخصصة للقمامة، وغسل الممر والهدوء التام. في هذه الأثناء أبرق المسؤول الأمني طارق إلى مراجعه في بغداد أن تمرداً ضخما حصل في الأقسام المغلقة وأن

السجناء مصرون على كسر السجن والهروب وأن أعدادهم تزيد على الألفي سجين وأنهم عنيفون إلى حد لا يوصف.

كل ذلك عرفناه من القوة التي أُحضرت ومن همسات المسؤول الذي جاء من بغداد مع المسؤول الأمني طارق بعد التهدئة ودخوله إلى داخل القسم، ونحن في الزنازين، ومن لغة العيون بينه وبين طارق التي فيها الكثير من اللوم والتوبيخ.

لقد فوجئ الوفد الذي أراد التفاوض معنا بالسماح له بالدخول دون أي ممانعة، وفوجئ ان المطالب تنصب على أمور هي من حق كل سجين، كتحسين ظروف السجن، ومواجهة ذوينا والخروج لرؤية الشمس ولو أسبوعياً، بين هذه المطالب وتلك الأخبار التي أوصلها المسؤول الأمني فرق شاسع، مما انعكس بقوة على الاستجابة لكل مطالبِنا، هكذا بدت لنا الأمور، وقد يكون غير ذلك، فربما كان هناك قرار بأن يتم التخفيف من الضغط علينا وجاءت هذه الصرخة العفوية لتعجل في تنفيذ قرار السلطة، أو إن الصرخة كانت في يوم كان فيه الطاغية مرتاح البال، هادئ المزاج، فللطواغيت أطوار من الرضا والغضب، والبطش والعفو، فأرواح عباد الله ليست أكثر من لعبةٍ يتسلون بزهقها إن غضبوا، وكرامات الناس يدوسونها لأتفه الأسباب إن حنقوا، ويعفون عن أكبر العتاة المجرمين إن رضوا أو أَنِسوا، نحن

عبرنا عما يعتمل في صدورنا، بلا تخطيط مسبق، ولا قيادة موجِّهة، إنه الظلم المتراكم، والحيف الذي ملأ كياناتنا فانفجر حيث قُدِحَ في لحظةٍ عاطفية فكان ما كان. ما يميز هذا الاحتجاج عن سابقه في مايس عام ١٩٨٧ أمور منها أن أبواب الزنازين كانت مفتوحة وليست مقفلة، وأننا بادرنا برمي الجلادين بما تيسر لدينا من أواني وأحذية، ومنها أن البعض توجه صوب صورة للطاغية صدام كانت موضوعة في نهاية الطامورة وقرب التلفزيون اليتيم الخاص بنشرات الأخبار المقززة والخاصة بنشاطات الطاغية، تلك الصورة قد تعرضت للكسر والتمزيق وكل ذلك يعد من الجرائم التي لا تغفرها السلطة أبداً، ليس من الغريب أن يظن الكثير من السجناء أن يد الغيب كانت معنا في تلك اللحظة وهي التي أرشدت خدمات القسم إلى تنظيفه تماماً ورفع الصورة المحطمة والممزقة وإخفائها بعيداً في سلال القمامة. كم أُعدِم من العراقيين بسبب الصورة، صورة القائد الرمز، القائد الضرورة، زعيم الأمة العربية، محرر العراق، الفاتح الأكبر، معيد أمجاد القادسية الأولى، بطل التحرير، باني أمجاد العرب،... كل يوم يخرج لنا صحفي بائس يطلق لقباً، ثم يصبح مانشيتاً رئيسياً في جرائد الحزب ويتلقفه الإعلام المأجور ليفرض على العراقيين أن يتداولوه في مخاطباتهم. صورة الرئيس هذه لها حكاية أخرى في السجن بعد مغادرتنا

فقد بقي بعض إخواننا فيه ليسردوا لنا هذه القصة المأساوية، يقول السجين جاسم حسن كاظم من أهالي ديالى:

كان لي صديق داخل السجن اسمه عودة من أهالي القرنة محافظة البصرة، ذلك الشاب العشريني، الذي يحمل كل طيبة الجنوب وشجاعته، هادئ خلوق، قليل الاختلاط، عليه ملامح الهيبة والوقار والحياء، يمشي مطرقاً برأسه، سُجن في قسم الأحكام الخاصة في عام ١٩٩٢، إذ كانت التهمة الموجهة إليه هي الانتماء لتنظيم حزب الله العراق، لا يستطيع أحد الجزم بصحة هذه التهمة من عدمها فظروف السجن لا تكاد تختلف عن التحقيق في الموقف من ناحية الخوف والإرهاب ووجود المخبرين السريين، فلم استطع -والحديث للسجين جاسم- أن أتبين صحة تهمته من عدمها، ولكن ما يُجزم به ان السجين عودة بدأ يمر بأزمة نفسية حادة نتيجة التعذيب الذي تعرض له وظروف السجن القاهرة إذ تبدو عليه نوبات الاكتئاب الحاد بين مدة وأخرى. في آب من عام ١٩٩٤ وبينما كان عودة يطالع صحيفة الثورة داخل زنزانته، تلك الجريدة التي يصدرها الحزب الحاكم والتي لا يخلو عدد منها من صورة الديكتاتور صدام حسين مزقها عودة، فارتجف المخبرون السريون من هذه الجرأة، ونقلوا الخبر إلى رئيسهم السجين المحكوم بتهمة التجسس علاء العاني، وبدوره نقل الخبر إلى مديرية أمن السجن ومنه إلى مكتب

الوزير الذي كان يومها سبعاوي إبراهيم الأخ غير الشقيق لصدام حسين، جاءت الأوامر بإخراج السجين من زنزانته وضربه أمام السجناء من قبل زمرة من أفراد الأمن يحملون التواثي و(الكيبلات) وحتى احدهم كان يحمل أنبوب ماء حديدي (بوري)، ضرباً أعجز عن وصفه وطريقته، ولئِن وصفت بعضه فإني أخشى أن أُصيبك بأذىً نفسي، ضرباً ظن البعض ممن رآه أنه فارق الحياة، ثم نُقل إلى محجر خاص، علم السجناء بعد ذلك أن عودة لايزال حياً وظنوا ان ما لاقاه من ضرب وتعذيب عقابٌ كاف لجريمة تمزيق الجريدة. في ذات اليوم مساءً حضر سبعاوي بنفسه إلى ساحة السجن، ثم أمر بإحضار سجناء من الأحكام الجنائية الثقيلة والخفيفة إضافة إلى السجناء السياسيين وجاءوا بعودة، وسأله عن اسمه ومنطقته وتهمته وعودة يرد بصوت خافت فقد أعياه الألم والنزف والعطش وطلب ماءً وهو في ذلك الحال، فأمر سبعاوي ان يؤتى له بالماء من مستنقع آسن بجوار الساحة، مصحوباً بوابلٍ من السباب والشتائم والكلمات البذيئة، ثم خاطبه قائلا (اسمع يولو غدا راح يفحصك طبيب إذا أنت مريض فراح نضربك إلى ان تموت واذا أنت صاحي راح نعدمك بالرصاص)، وأعادوه إلى المحجر. وظن السجناء ما ذلك الا حرب نفسية فقد انتهت مهمة الوزير وسيلعق عودة جراحه أم يموت لا يدرون، ولكن الأمر لا يستحق أكثر من

ذلك، فعلامات المرض بادية على عودة. وفي اليوم التالي عاد سبعاوي ومعه جلاوزته من أفراد الحماية بين من يحمل مسدساً أو كلاشنكوفاً وآخرين يحملون (التواثي) و(الكيبلات) وأمر بإحضار السجناء كما فعل في اليوم السابق وفي بضع دقائق جاءوا بعودة وقيدوه على عمود في جانب الساحة، وعدد من المحكومين بتهم السرقة والزنا بالمحارم والقتل الجنائي يهتفون باسم الديكتاتور ويطلقون عبارات الموت للخونة، ثم أومأ سبعاوي إلى جلاوزته فأفرغوا ما لديهم من عتاد على السجين المظلوم عودة فذهب إلى ربه شهيداً حميداً سعيدا، لم يشف كل هذا عقد الجريمة المتأصلة في نفس سبعاوي فأمر بأن تُسحَب جثة الشهيد في طول الساحة وعرضها وهو مضرج بدمه ثم أُخذ إلى جهة مجهولة. لم تُسلَّم جثة الشهيد إلى ذويه إذ جاءت امه واخته لزيارته بعد أسبوع في الزيارة المعتادة فاحتار السجناء بماذا يجيبوهم وماذا عساهم أن يقولوا لام والهة بحب ولدها، أو أخت تعد الأيام عداً لكي يتنفس شقيقها هواء الحرية. رحل الشهيد عودة بتهمة تمزيق جريدة فيها صورة للديكتاتور، ولازالت صورته وهو يعذب تتراءى لكل من شاهده في ذلك الحال. أقول هذا ضحية واحدة من مئات الضحايا بسبب الصورة، ليس أكثر من صورة، فكم كان الله بنا رحيما في تلك الحال.

استجابة تشبه الخيال

كنا نقرأ في كتب التاريخ عن عصر ما من عصور الدولة العباسية بوصفه العصر الذهبي، وقرأنا في العصر الحديث مصطلح (أحداث دراماتيكية) أي سريعة ومتلاحقة وكأنها مشهد تمثيلي، الإنسانُ ابن بيئته وتقديره للعطايا التي يمنحها له الله على ضوء ما هو فيه، دائما ما كان يواسي بعضنا بعضاً بقولنا "ما بين المغرب والعشاء يفعل الله ما يشاء"، ويصوغ الشاعر تلك المقالة بصياغة أجمل: ما بين طرفةِ عينٍ والتفاتتها... يغيّرُ الله من حالٍ إلى حالِ، لم نحصلْ على أكثر من حقنا كسجناء سياسيين، ولكننا أمام نظام لا يعرف ما معنى الحق والواجب، يتعامل مع رعاياه كما يتعامل المالك مع دوابه، يذبح ما يشاء منهن ويستبقي ما يشاء دون أن يرف له جفن أو تهتز منه شعرة، كما صرّح الرئيس الجلاد نفسهُ ذات يوم وهو يتحدث عن مجزرة قاعة الخلد التي أوقعها برفاق دربه وزملائه في الحزب الفاشي؛ فلا غرابة إذن أن نصف تحسن الأحوال هذا بالتطور الدراماتيكي، فبعد كل تلك السنين العجاف ها قد حان حلول (عامٌ فيهِ يُغاثُ الناسُ وفيهِ يَعصِرون)، فبعد سنين أكلت لحومنا وأذابت شحومنا، وذهبت بزهرة شبابنا، وسلبت أرواح المئات من رفاق دربنا وأخوتنا في الجهاد، قبل وبعد دخول هذه الطوامير، كم ودعنا من إخوةٍ وأصدقاء في انتزاع الاعترافات، في زنازين (الأمن)

العامة، في المحاكمات الصورية في محكمة الثورة سيئة الصيت، ها قد سُمِح لنا بمقابلة ذوينا شهرياً وبدون عدد محدد، وبدون أموال محددة، الخروج إلى الساحات ساحات نرى فيها الشمس وترانا يومياً، من الصباح حتى المساء حتى تدربت عيوننا على رؤيتها وبدأ يقل شحوب الوجه واصفرار الجلد وإن كان ضعف البدن لازال على حاله، فما فقدناه بتسع سنين لا يمكن إعادته بعام أو أقل، تمت المباشرة بصيانة المجاري الخاصة بالزنازين من قبل العمال المهرة الموجودين معنا من أخوتنا السجناء وبمعونة الخبير عبد القادر، لقد تحسنت وأصلحت شبكات الماء، الماء الذي كان يُهدر بجوارنا تشرب منه القطط والضفادع والقصب والبردي ولا يُسمح بدخوله إلى القسم إلا بما يسد الرمق، خرج عمالنا المَهَرة لصب الساحات الخارجية لتلائم مقابلة ذوينا، سُمِح بخروجنا نحن نزلاء الأقسام المغلقة من الطوامير إلى الساحات لنلتقي ببعضنا البعض، السماح لأسرة آل الحكيم بالاختلاط معنا، السماح للسيد الدكتور حسين الشهرستاني بالاختلاط معنا، وهو عالم ذرة عراقي كان يقبع في سجن انفرادي في جهاز المخابرات ثم احتجز في سجن انفرادي في أبي غريب. السماح بحيازة القرآن الكريم وبعض الكتب الأخرى، تسللت أكثر من كاميرا إلى الأقسام المغلقة، تسلل أكثر من راديو إلى الأقسام المغلقة، وإن كان لايزال ممنوعاً

من الناحية الرسمية، بدأ بعض السجناء يمارس بعض الحرف اليدوية، بدأت حيازة أكثر من ثوب ولابد من إيجاد دواليب تتناسب والزنازين التي نحن فيها، أنها صناديق البلاستك المعدة للخضر والتي يجلبها ذوونا نغلفها بالكارتون أو قماش (الكانه) ونعلقها على الحائط، بعد كل ذلك الحرمان العاطفي الممتد لسنوات توفرت فرصة للسجناء المتزوجين بأن يختلوا بأزواجهم، لحظات يتذكرون بها حبهم وعشقهم لبعضهم واللحظات الحميمية التي أمضوها خارج السجن، الغالبية العظمى من الزوجات كنّ على مستوىً عالٍ من الوفاء وحفظ العهد وقمن بدعم أزواجهن معنوياً، بل هناك من انتظرن أزواجهن كل هذه السنين ولم يكن بينهن وبينهم سوى عقد القران، حالةٌ أو حالتان شذّتا عن المألوف إذ صُدِم أحدنا بطلب زوجته الانفصال والطلاق منه رغم أن لديها منه عدة أبناء وبنات، تختلف قدرات البشر على الصمود ومواجهة التحديات، ولكل ظرفه الخاص الذي قد لا يتطابق مع ظرف غيره، بدأت العوائل الميسورة وغير الميسورة تجلب ما لذ وطاب من صنوف الأغذية، لم يعد بالإمكان المحافظة على تلك الأغذية من التلف، فعمدنا إلى توصيتهم بجلب حافظات من الفلين أو البلاستك المصنوع لهذا الغرض ونضع فيها الثلج ثم نضع اللحوم والأسماك والدجاج، سمح بإيجاد مطبخ يطبخ به السجناء ما يشاءون؛

تعاظمت القدرة الشرائية للكثير منا، في حين يعاني الكثير من سجناء الأقسام المفتوحة شظف العيش، فاستأذنوا إدارة السجن على أن يعرضوا بضاعتهم الحرفية من محافظ نقود (جيزدان)، أو علب كلنكس أو لوحات فنية يدوية أو غيرها، وافقوا بشرط واحد هو أن يضعوا مبيعاتهم في الساحات التي نخرج إليها دون أن يقف أصحابها إلى جوارها؟ ظنت الإدارة ان هذا الشرط تعجيزي، إذ كيف يثق أصحاب هذه المبيعات بأن يضعوا أشياءهم في الساحات عرضةً لسجناء الأحكام المغلقة دون ان تتعرض للتلف أو اللامبالاة أو أخذ أشياء منها دون دفع أثمانها؟ لكن صدمتهم موافقة أصحاب تلك المصنوعات على الشرط؛ فكتبوا الأسعار على المبيعات وانصرفوا، حتى إذا خرجنا إلى الساحات، يأخذ كل منا ما يرغب بشرائه ويضع البدل النقدي غير منقوص وربما زيادة على السعر في علبة خاصة أعدت لهذا الغرض وينصرف، حتى إذا دخلنا للأقسام يأتي أصحاب تلك الحرف ليروا أثمان المواد المباعة كما هي فيعجب أفراد الإدارة والجلادون من ذلك، يتناقلون ذلك إلى نزلاء الأحكام الثقيلة والخفيفة المحكومون بأحكام جنائية، بل وحتى إلى عوائلهم، يزدادون احتراماً لنا وتقديرا. كلُّ شيءٍ قد تغيّر المنافقون صاروا تحت قبضة النزلاء، يحتقرونهم ويوبخونهم على ما قاموا به في الأيام التي خلت، اعتذروا بأعذار شتى،

لـم تغيّـر اعتـذاراتهم شـيئاً، فالغالبيـة السـاحقة مـن النـزلاء تستشهد بقوله تعالى (حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وإني من المسلمين. الأن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين)، ليس لدينا من القسوة ما نستمر به لتقريعهم، فهم باتوا أسرانا بعد إن كنا أسراهم، وعسى ان تكون توبتهم توبةً نصوحاً.

انقلاب الموازين

انتقل شيء من الدنيا إلى تلك الزنازين التي كانت وراء الشمس، تحركت غرائز كثيرة كانت ضعيفة، بل وميتة عند بعضنا، المال، النساء، الأولاد، الجاه، السمعة، لم تستحوذ علينا-لا سمح الله- فإيماننا لا يزال بين جوانحنا، ولكنها تتسلل كما يتسلل اللص إلى الدار، عوامل كثيرة تمنع استبدادها بنفوسنا، قد يكون آخرها الحياء من بعضنا البعض؛ فلا يمكن لذي مروءة أن يتحدث بالأمس عن الزهد والورع والتقوى ويغوص اليوم في أوحال المال والثروة والجاه والنساء. الحرية والرخاء تكشفان عن خبايا النفوس، ففيها تبين معادن الرجال، وظهور الحال، بات الحديث عن زيجات مستقبلية أمر مقبول بين السجناء، تطور الأمر إلى زيجات تم عقدها ونحن في السجن خاصة بين الأقارب، نعم محدودة، ولكنها أثارت ما خبا في النفوس وحركت هرمونات الفحولة

لدى البعض، فتحركوا على الأقرب من أصدقائهم، طالبين أيدي أخواتهم أو بناتهم، فمنها ما تم ومنها ما تأجل لحين إطلاق السراح. زاد عدد الراغبين في خروجنا من هذه الزنازين مع تحسن الحال، ونعني بالرغبة هنا حنين داخل النفس إلى عالم خارج السجن، خارج الأسوار، خارج هذه الزنازين التي تعايشنا مع أحوالها سنوات تسع، ذات اللون وذات الشبابيك وذات الأبواب، رغبة كل سجين في ان يطلق سراحه حق طبيعي وربما هي غريزة أودعها الله في نفس كل عاقل، لكن حتى هذه الرغبة الفطرية لم تكن في نفوس الغالبية منا، فأي رضاً بقضاء الله وقدره كنا نحمل؟ وأي جوانح جوانحنا التي تحمل مثل هذا الإيمان وهذا اليقين؟ ها قد بدأ يتسلل إلينا الحنين إلى الحرية، لم يستطع الكثير منا البوح بما في سره، وهذه هي مشكلة المشاعر الجمعية، أو الوعي الجمعي، أو حكم البيئة على الأفراد، فالتذمر والضجر والاعتراض أمور محرمة في المجال العام الذي نعيشه، وما يخرج هو حالات فردية ومحدودة، أما الأن فبدأ الحديث يكثر عن عالم ما بعد هذه الأسوار؛ ذلك الحديث بدأ يعكر سمو الروح والتصاقها بالله الحبيب المتحنن العطوف، فحرص البعض منا على أن يختلوا بربهم ساعات أكثر، بالصلاة والعبادة والتهجد لإصلاح الحال، وبدأ أهل الرأي فينا يكثرون من الوعظ والإرشاد في التصدي لميول الدنيا،

ونسيان الآخرة، والتنبيه على ضرورة محاربة الهوى، أنها انقلابات اجتماعية، تحتاج إلى خطاب خاص يلائم هذه الظروف. بتنا نذكر بعضنا بعضاً بأن شكر النعم إنما هو بالاقتراب من المنعم، والسير على ما يحب، والإكثار من الحمد عند كل متعة متعنا بها الله بعد تلك السنين.

يقابل النعم التي توالت علينا، وانفراجة الكرب التي شملتنا حملٌ باتت تنوء به عوائلنا، فالمقابلات الشهرية ليست ميسورة للجميع من حيث التكلفة والوقت والجهد، البعض من عوائلنا يستقرض المال لكي يقابلنا شهرياً كي لا نشعر بالوحدة أو الحرج بين رفاقنا، من جهة ولأنهم لازالوا عطاشى لرؤيتنا بسبب المدة الطويلة التي قضيناها مغيبين، من جهةٍ ثانية، ولأنهم لا يطمئنون إلى السلطة فربما يمنعونهم في أي لحظة من المقابلات كما حدث في المقابلة الأولى التي لم تتكرر إلا بعد سنة بعضهم يعض على ناجذيه وهو يحمل على كتفه سلال الفواكه أو اللحوم أو القدور التي تفوح منها أشهى الأطعمة، أطعمة لا يأكلونها هم في بيوتهم ويجودون بها علينا، فأعزّ الأولاد غائبهم حتى يعود، ومريضهم حتى يشفى، هكذا تقول العرب، ونحن كنا ولا زلنا بعيدون عن ديار الأهل. أمهات كبيرات بالسن أتعبتهن أيام الفراق، والقلق والوجل الذي عشنه سنين طوال، لا يتحدثن بالعوز والفاقة وما تسببه لهن مقابلاتنا الشهرية؛ بل يشكرن الله على

ما من عليهنَّ من لطفه ورحمته وأبقانا أحياءً. عوائلنا تتنافس على المجيء كل يقول هذا الشهر لي، لطالما سمعت أهلي يتندرون في كل مقابلة عن أختي المرحومة أم باهر فهي أختي الكبرى وابنها باهر معي، فهي من تحدد من يأتي في كل مقابلة، فتبدأ بالعد أنا وأم فلاح وأمي وأبي وعبد العال أخي، انتهى هذه الوجبة لهذا الشهر، في المقابلة اللاحقة تقول أنا وعبد العال وأم نغم وأبو باهر، في التي بعدها تقول أنا وأبو باهر وبنات أم فلاح وهكذا في كل مرة تقول أنا، أنا، أنا حتى صارت يضرب بها المثل في عدم العدالة بالتوزيع فأول ما تختار نفسها وتغير الباقين حسب المزاج. لم تخضع أم فلاح أختي الوسطى لهذه القسمة وبقيت تقابلني كل شهر حتى إطلاق سراحي، كانت رحمها الله تحدثني أنها قد أتاها العباس عليه السلام في المنام بعد أن مرت على اعتقالي وتغييبي ثمان سنين وهي تدعو ليل نهار ان تعرف مصيري، جاءها على هيأة رجل وقور واضح المعالم وهو يقول لها (أعطيتك، أعطيتك أعطيتك)، فاستيقظت وهي موقنة أنه العباس عليه السلام وانه استجاب لدعائها وبالفعل تقول بعد أسابيع جاء خبر المقابلة الأولى، أم فلاح هذه فريدة وعجيبة في الحنان الذي تحمله، كنت في أول أيام السجن أدرك كم سيكون فراقي شاقاً عليها فكتبت في مخيلتي قصيدة طويلة تصور حالها مطلعها:

إنسيني يا أم فلاحٍ... فلكم أفرحُ لو تنسيني... ما عدتُ أحملُ اشجاناً... أشجانكِ هذي تؤذيني

لا أبالغ إن قلت أنها تساوي والدتي فيما تغدقه عليّ من حنان أو تفوقها. أم فلاح تأتي من ناحية القادسية التي تبعد عن سجن أبي غريب حوالي ٢٥٠ كلم، تأتي في كل مقابلة ومجموعة من أهالي النجف بسيارة الحاج زبيل رحمه الله نوع (OM) لا تزيد سرعتها عن ٨٠ كلم في الساعة وكان رحمه الله كبيراً في السن وملتزماً بإجراءات وضوابط المرور إلى الحد الذي أكمل خمسين عاماً في سياقة الأجرة ولم يرتكب حادثاً أو يفعل مخالفة. على أم فلاح وغيرها من الأمهات أو الأخوات في النجف النهوض من قبل صلاة الفجر ليبدأوا رحلة السفر لمقابلتنا فيصلوا في الوقت المحدد عند الساعة الثامنة أو قبل ذلك ليقفوا أمام بوابة سجن الأحكام الخاصة.

أم فلاح أم لأربعة أولاد وستة بنات وزوجة لابن خالتي كل هذا لم يأخذ من حنانها ومحبتها وشفقتها شيئاً لتواصل المقابلة تلو المقابلة. تعلمت بعد خروجي من السجن أشياء كثيرة عن ألفة ذوي الأرحام وتعلقهم ببعضهم، ومن بين ما تعلمت أن الإنسان كلما كبر في السن كلما توزعت عواطفه على أولاده وأولاد أولاده وعائلته الكبيرة فلم يعد بذاك الحنان القديم وتلك المحبة الطافحة لإخوانه أو أخواته، فهذه

المحبـة يسـرِقُ جـزءً منهـا أولادُه وبناتُـه؛ أو دعنـي أقـول أن الإنسان كلما كبر في السن كلما كانت عواطفه أكثر رشداً وأقلُّ حماساً واندفاعاً؛ أم فلاح لـم تكـن ضـمن هـذه المعايير فمحبتها لي تفيض مع تقادم الأيام وتعاظم المسؤولية وتكاثر الذرية.

لـم تمنـع ذوينا حرارة الصيف القائظ ولا زمهرير الشتاء القـارس مـن أن يـأتوا لنـا فـي كـل مقابلـة؛ رغـم أنهـم يقفـون طوابير طويلة على أعتاب السجن قد يصل طول الطابور ألف متـر حيـث يخضـعون للتفتـيش والأذلال مـن قبـل جـلاوزة النظـام. علمـت مـن بعـض رفـاق المحنـة فيمـا بعـد أن بعـض العوائـل كانـت تجلـب المتـاع لأبنائهـا فـي السـجن ثـم تعـود لتصـل ليلاً، فـلا تجد ما تتناولـه فـي العشـاء، والفطـور، حتى يبعث الله لها من رزقه. شيئاً فشيئاً بدأ ذلك يصل إلى أسماع السـجناء فـامتهنوا الحـرف ليعينـوا عـوائلهم، ومـنهم مـن رأى ذلـك لا يليـق بالقضـية التـي سُـجنّا مـن أجلهـا، ولا يليـق ان نتحول من سجناء رأي وسياسة إلى سجناء يلتهون بالخياطة أو التطريـز أو الحياكـة مثلمـا يفعـل سـجناء الجنايـات فـي الأحكام الثقيلة والخفيفة؛ فعمدوا إلى منع ذويهم من زيارتهم دون أن يشعر بهم رفاقهم (تحسبهم أغنياء من التعفف).

آب ١٩٩٠

ها قد انقضى عامٌ (عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون)، ولنا بعد كل عام قصةٌ وحكاية، لا أدري يسوقها الرب الرحيم تخفيفاً عنا وإلهاءً لنا كي لا نمل ولا نضجر، أم هي الحياة بطبيعتها وسننها في كل الأزمان لكن السجين هو من يتخيلها أحداثاً كبيرة، ووقائع ملهمة، أياً كان الأمر فإنها تعجل مسيرة الزمن، وتنحي عنا السأم والملل، ففي صبيحة يوم العاشر من محرم الحرام، حيث اعتدنا على قراءة القصة الكاملة لمقتل الإمام الحسين عليه السلام وإقامة مجلس العزاء وتبادل كلمات المواساة بيننا وزيارة السبط الشهيد الحسين عليه السلام عن بعد، انتشر بيننا خبر دخول القوات العراقية إلى الكويت واحتلالها وذلك في ١٩٩٠/٨/٢. رغم أننا كنا نتابع تأزم العلاقات بين العراق والكويت ونعرف ما يمر به العراق من أزمة اقتصادية فاقمها انخفاض أسعار النفط إلى ٦ دولار للبرميل، ورغم معرفتنا برعونة الديكتاتور وبطشه وظلمه؛ لكننا لم نكن نتوقع منه أن يقدم على هذه الخطوة وبهذه الطريقة.

توالت الأخبار وتُلي بيان الحكومة من على شاشة التلفزيون اليتيم في القسم وعقدت جلسات التحليل والبحث السياسي بين نخب السجناء واختلفت ردود الفعل بين السجناء بين التهليل والترحيب وبين الوجل والقلق من

النتائج، لكن الغالبية منا كانت تنظر للحدث من زاوية واحدة وهي كيف سيكون تعامل النظام الديكتاتوري معنا بعد هذا الغزو؟ هل يبقي النظام على هذه المعاملة الحسنة أم لا؟ هل يفكر في إطلاق سراحنا أم لا؟

طيلة السنين التسع الماضية التي قضيناها في السجن كان النظام شأنه شأن كل الأنظمة القمعية يتوكأ على ذريعة أننا عملاء للجمهورية الإسلامية الإيرانية، بعد هذا الغزو انعطفت بوصلته وصار يتقرب إلى إيران ويخطب ودها ففي أكثر من مناسبة يشيد بالجانب الخير فيها (كما يسميه)، ويتهم عرب الخليج بأنهم كانوا وراء نشوب الحرب واستمرارها ثمان سنوات. طبعاً هذه هي الحقيقة التي نؤمن بها وكنا نتألم منها، فحينما يصرح بها الديكتاتور وعلى الملأ ننتشي ونفرح، شعور لا يمكن لي وصفه بدقة، ولكنه يجمع بين الشماتة والفخر، الشماتة بعدو متجبر متغطرس ظلوم غشوم يسوقه القدر إلى أن يعترف بأنه كان على خطأ؛ وفخر يزيد ثقتك بنفسك بأنك كنت على حق حين وقفت بوجهه وقلت لا لحكمه. البعض ولو كانوا قليلين جداً تحركت في نفوسهم حميةً ما وأعادوا للأذهان ما تناقله آباؤهم عن الزعيم العراقي الراحل عبد الكريم قاسم ورغبته في احتلال الكويت، وإنها تاريخياً محافظة عراقية، البعض تمنى لو يتوغل أكثر ويدخل الأراضي السعودية لأنها تستحق أن تحصد ما جنت يداها

عندما دعمت هذا النظام على حساب الشعب المغلوب على أمره. كل تلك الأحاديث مشاعر وعواطف آنية تفاعلت مع الحدث، لكن النخب كانت تسمع حجم الإدانة الدولية وتحرك القوى العظمى وأدركت تماماً أن الديكتاتور وقع في المصيدة؛ فبعد أن سيق لحرب إيران، ها هو اليوم يساق إلى حرب الكويت، لقد اختار الزمن الخطأ والهدف الخطأ وأن من يدفع الثمن هو الشعب العراقي، إخواننا، أبناؤنا، آباؤنا.

صرنا نتوق إلى مقابلة ذوينا لنستطلع منهم ردود الفعل في الشارع العراقي، كان ابن أخي منتظر يبلغ من العمر في حينها خمسة سنوات جاءه الدور لمقابلتي، فهو ممن ولد بعد اعتقالي، وكنت شغوفاً لمقابلته والحديث معه، أردت ان أسمع منه ببراءة الأطفال وصدقهم المعهود وفطرتهم النقية، فسألته:

- منتظر عمو الناس شتحچي بالشارع بعد دخولنا الكويت؟

- والله عمو أنا ما اعرف بس كل اللي يجون لجدو والبابا وحتى بالشارع، يگولون السوگ غلا، غلا. فضحك جميع الحاضرين.

وبالفعل فقد بات حديث الناس عن ارتفاع الأسعار وغلاء المعيشة وآثار الحصار، فهذا أول ما لامسهم من آثار الحرب التي لم يمض عليها سوى شهرين أو ثلاثة.

رغم ذلك لازالت هيبة النظام والخشية من بطشه سبباً مهماً من أسباب عدم الخروج أو الاعتراض عليه؛ رغم ان العالم كله كحكومات رسمية ومنظمات دولية أدانت احتلاله للكويت. وأنى لهم الخروج أو الاعتراض وقد اعتادوا ان يدفعوا أولادهم وقوداً لحرب طاحنة ليس لهم فيها ناقةً ولا جمل طيلة ثمان سنوات؟ أنى لهم الاعتراض وقد بات في كل شارع وكيلاً من وكلاء السلطة يرصدُ القادم والذاهب ليخبر دوائر (الأمن) بكل ما يشك فيه؟ عدد كبير من أفراد الشعب العراقي استساغ الغزو وأدخل إلى بيته سلعةً أو أكثر مما تم جلبه من البلد المحتل (الكويت)، منهم من برر ذلك بأنها غنائم حرب، وآخرين عدوها ثمناً لما (سرقته) دولة الكويت من نفط العراق.

نحن في السجن سمعنا أن عدداً من الأسرى الكويتيين قد تم إيداعهم في أقسام المخابرات المقابلة لأقسامنا، ولم يتسنَّ لنا معرفة مصيرهم فيما بعد ولا معرفة عددهم بالضبط.

تدابير الحرب

الحِراكُ على أشده في الأقسام المغلقة-التي لم تعد مغلقة- والأقسام المفتوحة، تحليلات، أخبار، أفكار، ماذا لو استخدم النظام أسلحةً كيمياوية؟ أو بايلوجية، فالنظام متهم بامتلاك مثل هذه الأسلحة، نحن بعد مقابلة ذوينا علمنا أن

النظام قد استخدم الأسلحة الكيمياوية في حربه ضد الجمهورية الإسلامية الإيرانية وأدت إلى إصابات بليغة في صفوف القوات الإيرانية، لقد كانت هذه الأسلحة فتاكة جداً أدت إلى خلخلة ميزان القوى لصالح النظام؛ من زوّد النظام بهذه الأسلحة أنها ألمانيا وعدد من الدول الغربية وبرضا وربما معونة أمريكا؛ لكي تجبر إيران على إيقاف الحرب؛ وفعلاً لقد تجرع الإمام الخميني رحمه الله (كأس السم) وأوقف الحرب؛ ها هو الغرب اليوم ينوء من هذه الأسلحة ويخشى استخدامها؛ ماذا لو ردت دول التحالف على النظام باستخدام هذه الأسلحة؛ ماذا عسانا أن نفعل ونحن بين جدران هذه الزنازين وداخل هذه الأسوار؟ تدخل الدكتور حسين الشهرستاني لإعطاء بعض المعلومات عن الأسلحة الكيميائية وكونه يحملُ شهادة الدكتوراه في الكيمياء النووية، تحدث لنا عن طريقة اكتشافها والوقاية منها وبحسب الظرف الذي نعيشه. انظروا إلى السماء فإذا رأيتم الطيور أو الحشرات تتساقط فاعلموا ان الجو بات ملوثاً بالأسلحة الكيميائية؛ طوقوا الزنازين بأكياس النايلون لكي لا يتسرب الغاز السام إلى داخل الزنزانة، بللوا قطعاً من القماش بالماء واستخدموها كمامات لكي لا تستنشقوا الغاز السام، اصنعوا الخراطيم المحلية قناني البلاستك والفحم وأنابيب الماء لكي تستنشقوا عبرها الهواء الخالي من الغاز السام، حركة دائبة

معلومات جديدة، تحليلات متضاربة، أنها طاقة إيجابية، فلقد قتلتنا الرتابة والنسيان سنين طوال، ليس لدينا ما نخسره بعد كل تلك الآلام والمآسي التي مرت بنا، فقد الأحبة ورفاق الدرب وأخوة الجهاد تارةً بتوديعهم إلى حبال المشانق، وأخرى يموتون على أكفنا من المرض. النووي البايلوجي الكيمياوي لا يهمنا، لسنا قلقين على أنفسنا من ذلك، إذا كان هناك من قلق فهو أن لا يعود النظام أقوى، لأن ذلك يعني أنه سيعود أكثر ظلماً وبطشاً وغياً وعتواً في الأرض. آهٌ آه ماذا يفعل الاستبداد بأبناء الوطن، وكيف يغيّر المستبد أمزجتهم، مشاعرهم، مواطنتهم، إنه الظلم الذي لا يعرف مذاقه إلا من وقع عليه، ما فائدة وطن لا يحميك، لا يحترمك، لا يسقيك من مائه ولا يطعمك من طعامه؟ هكذا يفعل الجور بالناس، لن يأتيَ أسوء مما مرّ علينا، فلنمت ويحيى الجيل الذي بعدنا، لأول مرة تذوقنا طعم القلق المفرح، إنه قلق إيجابي، فكل ما ينتظر العراق ينتظر الجلاد، خراب عش الجلاد فرج، سقوط نظام الجلاد فرج، لقد حرفت مرارة الظلم الذي وقع علينا بوصلة التفكير، لسنا بدعاً من البشر؛ فحين ينهشك وحش لا تلتفت إلى من ينقذك هل هو بشر أو وحش مثله، ستمتنُّ له مهما كان.

لم يبدُ على الجلادين الانفعال، مثلما كان يبدو منهم أثناء الهجومات الإيرانية على الجبهة إبان الحرب المستعرة

(١٩٨٠-١٩٨٨)، فلم يغيروا من سياستهم وانفتاحهم علينا بالمعاملة الحسنة، فالعدو اليوم هو الكويت والسعودية ودول الخليج قاطبةً وسوريا ومصر، انتهت شماعة إيران التي كان النظام يعلق عليها كل حججه وأعذاره في محاربتنا والبطش بنا. دخل الجلاوزة ذات يوم يطلبون منا اختيار سجين أو أكثر من ذوي الحاجة، كان من بين من تم اختيارهم في زنزانتنا النزيل عدنان (أبو لؤي) من أهالي بلد، المدينة التي نكبت نكبةً تحتاج وحدها لرواية، تم إعطاؤه ٢٥ ديناراً، دخل الزنزانة جلس في الزاوية، اختار لحظة هدوء، قال باللهجة التي يتحدث أهالي بلد والمحببة لقلوبنا: (الكويت يا جماعة تره هيّه عراقية)؛ تحدث كما لو كان جدياً؛ فالتفت إليه عباس سعيد من أهالي البصرة وكان هو المسؤول عن الزنزانة:

- ها أبو لؤي انطوك ٢٥ دينار صارت الكويت عراقية.

فأجابه أبو لؤي مقهقهاً:

- أنطوني ٢٥ دينار أكلك السعودية عراقية، فقهقه الجميع ضاحكين.

خريف عام١٩٩٠ بدأ يدخل؛ كان مميزاً بالنسبة لنا، الوفود تترا ذهاباً وإياباً تقصد بغداد تتوسل بالرئيس أن ينسحب من الكويت، خافيير بيريز دي كويلار الأمين العام للأمم المتحدة، حسني مبارك رئيس جمهورية مصر العربية غيرهم كثير، ماذا علينا أن ندعو؟ أندعو ألا يخرج الجلاد من مغامرته

هذه سالماً مثلما خرج من سابقتها يوم دخل مدن وقصبات إيران؟ حرب دمر فيها البلاد وسبى بها العباد ثم خرج منها دون حساب؛ حرب راح ضحيتها مليون قتيل وجريح من الجانبين ولم يجرؤ أحد أن يسأله لماذا. لم تمض سوى سنتين حتى دخل الكويت هذه المرة.

ارتخت قبضة الجلادين، مع تحشيد قوات أمريكا وحلفائها في السعودية استعداداً للحرب؛ لا يستطيع أحد أن يجزم أن الرئيس سيبقى على موقفه لآخر لحظة، قد يتنازل مقابل أن يبقى في السلطة، اشتدّت الشروط الأمريكية؛ لم يعد كافياً ان ينسحب من الكويت، هواجس، أخبار تحليلات، لكن أخوفها بالنسبة لنا ألاّ يُعاقَبَ الجلاد.

بات السجناء على مقربة من أسرة آل الحكيم، يلتفون حولهم، ينهلون بعض العلوم والمعارف الدينية، حلقات درس، استفتاءات، علاقات صداقة ومجاملات، مزاح، في السجن يتودد المرء لذوي الدماء الخفيفة، ذوي الوجوه الهشة البشة، التي تُذهب الهمَّ والغم، طيبي القلب، نقيِّ السريرة، حسين الدبي من أهالي العمارة، كان واحداً من هؤلاء خفيفي الظل، طيبي القلب، كانت له علاقة وطيدة مع السيد عبد الرزاق الحكيم شقيق المرجع الديني السيد محمد سعيد الحكيم والذي كان معنا في السجن أيضاً، التقى حسين الدبي السيد عبد الرزاق وأخذ يقص عليه القصص البطولية في

مواجهته نظام الطاغية يوم كان خارج السجن وفي أعتى أيامه عام ١٩٨٢م، حتى وصل به الحديث -وهو يخاطب السيد-: سيدنا كان عندي معمل (بلوك) في العمارة أصررت على أن اسميه (معمل السيد الشهيد الصدر قدّس سره)، فاستغرب السيد عبد الرزاق واعترضه بالقول: وكيف علقت اللافتة بهذا الاسم وأمام منظر جهات الأمن والوكلاء والرفاق في العمارة؟

فأجابه حسين الدبي: لا سيدنا هذا الاسم لا أحد يعلم به إلا أنا وزوجتي فضحك السيد من أعماق قلبه.

كاظم أحد السجناء الذين قرروا أن يتظاهروا بالجنون مذ دخل السجن لأسباب يطول الحديث عنها، وأطلق على نفسه اسم كويظم، كانت هذه الأوقات مناسبة له لأن ينكل برجال الأمن ويسخر منهم ومن أفعالهم بحجة أنه مجنون، كانوا يمازحونه، كثيراً هذه الأيام، استصحبه مفوض (الأمن) شلال وأراد أن ينكل برفيقه شرطي (الأمن) محمود، ارتدى شلال أجمل ما لديه من ملابس ذلك اليوم وأخذ يمشي شمالاً وجنوباً كعارض الأزياء ومحمود وكويظم ينظران، ثم اقترب من كويظم يسأله: (ها شلوني اليوم)؟ ضحك كويظم بصوت مرتفع وقال له: (أنت بغلاة الزلم ما تسوالك درهم)؛ فضحك جميع من حضر. سبحانك ربي أي زمان هذا؟ كيف تتقلب

الـدنيا بأهلهـا مـن حـال إلـى حـال، الجـلادون يمازحوننـا ويتحملون هذا المزاح الثقيل بكل أريحية.

دقت أجراس الشتاء وتكدست قوات التحالف الدولي في السعودية، وبدأ التهديد والوعيد، واقتربت ساعة الصفر، وحانت لحظة الحقيقة، تلك اللحظة التي قررت بها دوائر الغرب القضاء على كل ما بناه الجلاد ومن كان قبل الجلاد من دماء العراقيين وعرقهم، وخبزهم وقوتهم اليومي، مصانع، جسور، محطات كهرباء، معسكرات، أنواع الأسلحة التي تكفي لتسليح ٦٠ فرقة عسكرية، مخازن، أنها إذن حرب التوريط التي خطط لها وأدارها من موّل الديكتاتور وحمى أركان نظامه طيلة حربه مع إيران، هكذا كنا نظن، نحن السجناء داخل الزنازين، نتأوه، نتألم، لكننا كنا نعد ذلك عقوبةً حتمية لما قام به الجلادون من مجازر وإعدامات وتكميم أفواه، وبطش وإرهاب ضد الأحرار من أبناء هذا الشعب.

بدأت الحملة

في فجر السابع عشر من كانون الثاني من عام ١٩٩١ بدأ الهجوم الجوي على بغداد، أصوات الانفجارات ولأول مرة يسمعها السجناء في أبي غريب، كل حرب الثمان سنوات مع إيران لم نكن نسمع شيئا من هذا القبيل، يوم جديد يكسر

روتين الأيام السالفة، السجين يبحث عن كل ما هو جديد، يعيده إلى الحياة خارج القضبان، الجدر المرتفعة، صرير أبواب الزنازين، فرقعة المفاتيح، التعداد الصباحي، التعداد المسائي، تنظيف الزنزانة، إعداد الوجبات الغذائية فطور، غداء، عشاء، عشر سنوات على هذا المنوال، إنه يوم جديد، بدأ العسكريون منا يحللون لغير العسكريين أمثالي، هذا صوت مقاومة الطائرات ٥٧ملم، لا هذا صوت انفجار، أصبح الصباح أخرجونا إلى الساحات، عيوننا في السماء، رأينا جسماً طائراً، ليس بطائرة، ولكنه ليس قذيفة أيضاً، يناور يميناً وشمالاً، ارتفاعاً وانخفاضا، يا رب ما هذا؟ أجاب المختصون؛ إنه صاروخ كروز، لم تستطع كل فرق مقاومة الطائرات من إسقاطه رغم الرمي الكثيف، لقد شق طريقه إلى حيث وجهته قوى الشر والعدوان. رغم الضربات الموجعة التي يتلقاها النظام وعشرات الأطنان من القنابل التي تقع على منشآتنا الحيوية المدنية والعسكرية، نعم أنها منشآتنا نحن، نحن من بنيناها من دمائنا وعرقنا وثرواتنا، رغم كل تلك الضربات؛ إلا أن ذلك لم ينعكس على معاملته معنا مثلما كان في الحرب العراقية الإيرانية، لماذا؟ أنها الطائفية التي تسري في دم النظام وشرايين قياداته، حقده علينا طائفي ولأنه طائفي يتهمنا بالطائفية.

يوماً بعد يوم تنحدر قدرة النظام على الصد وتتسيد طائرات التحالف الأمريكي على سماء العراق فباتت تضرب في أي مكان أنى تشاء، اتصالات النظام ونظُم السيطرة المركزية والفرعية الصارمة تعرضت للتخريب، بعد أقل من شهر من بدء الهجوم الجوي جاءنا ذوونا وهم يقصون علينا هلع أجهزة النظام القمعية وتآكلها، أهل العاصمة بغداد، تحدثوا كثيراً عن المواقع التي تم ضربها وخلاصة ما قالوه إن بغداد باتت مدينة أشباح.

فوضى المواقف

ما ينظم المواقف في بحبوحة الحرية قيادة واعية وحكيمة ومطاعة، أو مجتمع حر يشعر أفراده بقدر عالٍ من المسؤولية، لم نخل من تلك الركيزتين، ولكنهما بقدر، فمنا من أدرك أن هذه فرصته للهروب صوب الحرية وخارج هذه الأسوار وكان على رأس هؤلاء الدكتور حسين إبراهيم الشهرستاني الذي اصطحب معه السيد جعفر عبد الصاحب الحكيم من آسرة أل الحكيم بالاستعانة بالسجين علي عريان الذي كان يقضي حكمه في سجن الأحكام المفتوحة لأنه محكوم بقضية التجسس، وتلك أيضاً من مفارقات الجلادين، حيث يسمحون للجواسيس أن يقابلوا ذويهم ويحسنوا معاملتهم في حين يتحفظ على السجناء السياسيين المعارضين من أبناء

البلد الغيارى في سجون مغلقة لا تصل إليهم الشمس ولا يصلون إليها؛ ومعهم أيضاً السجين صباح من الأقسام المفتوحة أيضاً.

استطاع علي عريان وبالتنسيق مع الشهرستاني والحكيم أن يهربوا إلى الحرية كما أحب أن يسميها الشهرستاني نفسه لاحقاً في مذكراته (الهروب إلى الحرية)، استطاع ليلاً وسط الظلام الدامس في ليلة ١٣على ١٤ شباط ١٩٩١ أي بعد مرور ٢٦ يوماً على بدء القصف الجوي على العراق. انتشر الخبر كالنار في الهشيم بين أوساط السجناء في كل الأقسام المفتوحة والمغلقة، لم يعد أمام الجلادين المبادرة فالضربات الجوية المتوالية تفقدهم السيطرة، والجهاز القمعي محتار بما هو أهم، كل يريد حفظ روحه ودمه، فلم ينعكس هذا الحدث (هروب أربعة سجناء مهمين) على إجراءاتهم أو تعاملهم.

تباينت آراء السجناء حول قضية هروب السيد الشهرستاني ورفاقه، فمنهم من عدها خطوة جريئة وصحيحة، ومنهم من عدها خطوة في غير محلها إذ أنها نبهت الجلادين وقد تحرم الباقين والأفضل لو تمت عملية الهروب الجماعي. انتشرت شائعات الهروب الجماعي، أعد بعض السجناء آلات حادة مما تبقى من أطر الشبابيك الفولاذية ليصنعوا منها سكاكين كبيرة، اختلفت وجهات النظر مرةً أخرى في كواليس المؤثرين والناشطين داخل الزنازين، سنوات البعد عن الأهل

وعن العالم الخارجي، الأمراض التي أخذت منا مأخذاً، الرهبة التي زرعها النظام فينا طيلة عشر سنوات، المنطقة المحيطة بالسجن وموالاتها للنظام، الدم الذي من الممكن أن يُسفك في حال فشلت الخطة، كل هذه الحجج ساقها المعارضون لفكرة الخلاص الجماعي؛ وعلى الطرف الآخر كانت تقف مجموعة الصقور ممن يرون أن هذه الفرصة تاريخية، والفرص التاريخية لا تمر إلا مرةً في كل قرن من الزمان، النظام يلعق بجراحه، وسقوطه ليس حتمياً، وإن توقفت الحرب فستكون ردة فعله على هروب الشهرستاني فوق رؤوسنا نحن وعلينا المبادرة قبل فوات الأوان. ظلت هذه النقاشات أيام وليالي شملت الأقسام المغلقة والمفتوحة دون التوصل إلى قرار حاسم. وكان من بين ما ادعاه بعض الناشطين من السجناء أنهم تلقوا تعليمات من الخارج بأن هناك من يأتي ليحررهم، وعليهم عدم الاستعجال، وعلى ما يبدو أن تلك كانت نفس الشائعة التي روجتها المخابرات العراقية في العاصمة بغداد بعد أن انتفضت أربعة عشر محافظة في الوسط والجنوب والشمال؛ فقرر البعض أن ينفذ فكرة الهروب فردياً أو بمجموعة صغيرة.

رجال قرروا أن يكونوا خارج السرب

كـان مـن بـين أولئـك وبعـد هـروب الـدكتور الشهرسـتاني ورفاقه هـو السيد باقر القبنجي مـن أهـالي النجف الأشـرف، فقد زوّر ختم الدخول الذي يُختم به على أذرع الزوار الذين يـأتون لمقابلتنـا ولكـي يمـوّه علـى الجلاديـن وكافـة الحـراس اصطحب معه غسالة ملابس مدعياً انه أخرجها من السجناء لاستبدالها والمجيء بواحدة جديدة مستقبلاً لكي لا يشك به أحد، السيد باقر كان محكوماً عشر سنين ولم يتبقّ من حكمه إلا أربعة أشهر، لكننا مع معرفتنا بالنظام وسلوكه لا يستطيع أحـد منـا أن يجـزم بـإطلاق سـراحه بعـد إكمـال محكوميتـه، فالأحكام مزاجية، حسب الظرف الذي يمر به الديكتاتور، أو مزاجه الشخصي، وقد لمسنا هذا من ذوينا عندما قابلناهم وسـألناهم عمـن أطلـق سـراحهم بعـد إكمـال محكوميـاتهم، ففوجئنا بأنهم استلموا جثثهم من الطب العدلي في بغداد!!

جاء مدير قسم الأحكام الخاصة رياض حمام الدين (أبو وسـن) وكـان فـي السـتين مـن عمـره، جـاء وهـو ينـوء بظهـره فخاطب مجموعة من السجناء وكانوا خارج الزنازين:

لقد أخطأ صاحبكم فقد قرر الهروب ولم يتبق من حكمه إلا أربعة أشهر ولو لم يفعل لكان أفضل له ولنا ها قد ارتفع ضغطي بسبب هذه الحادثة.

التفت الجلادون إلى أسوار السجن ونقاط الضعف فيه، ولكن رغم ذلك فقد تمكنت مجموعتان من الأقسام المفتوحة بجوارنا الهروب من بينها مجموعة السجين عدنان الزرفي ومعه مجموعة من أبناء قضيته من أهالي الكوفة منهم راضي وعبد الغني وشوقي (آدم) ومجموعة أخرى ضمت كل من أبو منتظر الساعدي من أهالي العمارة، وسيد كمال من الحلة وصبيح من مدينة الصدر وآخرين خلصوا أنفسهم من قيود السجن عبر الختم منهم السجين عبد الباري من أهالي البصرة.

حاول السجين سعيد مسلم جبر الحمداني من أهالي النجف الخلاص من السجن لكنه فشل في ذلك فقبض عليه عند أول نقطة حراسة، ثم حاول السجين جليل صيهود بعد مدة قصيرة متنكراً فتم الإمساك به وإعادته أيضاً.

لم تنعكس عمليات الهروب المتكررة علينا سلباً بشكل واضح، فالجلادون ومعهم سائر أجهزة النظام تترنح تحت وطأة الضربات الجوية القاسية على كل مفاصل السيطرة والنظم التي يملكها النظام، إنه انهيار دولة وليس انهيار نظام، إن الضربة التي أرادتها أمريكا ليست موجهة لإسقاط النظام قدر توجهها إلى تحطيم كل البنى التحتية التي أنشأتها الدولة العراقية منذ تأسيسها حتى الآن.

وزير العمل يحضرُ إلى السجن

تقارير الجلادين إلى بغداد تتضمن القلق مما يضمره السجناء، فعمليات الهروب المتكررة قد تفضي إلى تمرد جماعي وسط هذه الظروف الصعبة التي تمر بها قوى الدولة وأجهزتها القمعية كافة، السجناء من جانبهم بعد أن فشلوا في الاتفاق على الخلاص الجماعي والهروب إلى الحرية لما احتمله عقلائهم من أخطار باتوا يفكرون في انتفاضة ثالثة داخل السجن على غرار ما حصل في ١٩٨٧ و١٩٨٩ وكلاهما أدت إلى نتائج إيجابية لهم خففت الكثير من معاناتهم.

بدأت احتجاجات غير عنيفة ومطالبات بإطلاق سراحنا هذه المرة لكنها ليست حدية على طريقة إما أو؛ استجابت إدارة السجن وبعثت الطلب إلى مراجعها العليا وعبر طريقين إداري إلى وزارة العمل والشؤون الاجتماعية وقمعي إلى مديرية الأمن العامة، فاستجاب الجهاز الإداري ولم يستجب الجهاز القمعي، ليضمر ذلك إلى مستقبل الأيام، فهذا الجهاز لا يريد أن يفاوض أو يستمع من موقع ضعف، وله اهتمامات في هذا الظرف تشغله عن مناقشة أو التقاء ثلاثة آلاف سجين أو أكثر عدّهم في يوم من الأيام بعداد الموتى؛ فإبادتهم والانتقام منهم ليس صعباً ولا مستبعداً من طباع ذلك الجهاز.

حضر وزير العمل اوميد مدحت، ومع التذمر الموجود وخشية ردود فعل غير محسوبة صعد إلى سطح بناية القسم واستمع إلى المطالب؛ المطالب هذه المرة بإطلاق سراحنا فالحرب قائمة وأعداء الأمس أصدقاء اليوم، أولئك الأعداء الذين أُتهمنا بأننا عملاء لهم اليوم هم أصدقاؤكم؛ هكذا قال له السيد كريم سجين من زنزانة ٩ من أهالي السماوة؛ وقد تم إضمار ذلك له ليوم لاحق.

لم يستطع أوميد أن يمتص غضبنا وتخوف من تطور الأمور إلى ما لا يريد فانسحب من ومن معه والهتافات خلفه.

الفصل الخامس
الانتفاضة الشعبانية وتداعياتها على السجن

تحرير الكويت

إذا منع السجين من كل وسائل الاتصال فلا راديو ولا تلفزيون ولا هاتف ولا مقابلة لذويه فستكون روح السجين معلقة بخالقها تسمو خارج الأسوار تدعو تتهجد ترى وتنظر أرواح الكرام والأحرار الذين اعتقدوا وماتوا دون ما يعتقدون، أما أجسادهم فهي قابعة وسط هذه الجدران فلا يرون الشمس ولا الشمس تراهم، وصراع الروح الجسد مستمر كل منهما يريد أن يأتي بالآخر إلى جانبه؛ وذلك ما كان في الأيام الخوالي قبل سنتين من الآن.

الأن وقد مضى على رؤية ذوينا عامان؛ الأن وقد بات لعدد منا راديو يسمع منه الأخبار اليومية، الأن ووجبات المقابلات لذوينا مستمرة؛ الأن وأصوات انفجارات القنابل العملاقة تصكُّ أسماعنا فنحن بأرواحنا وأجسادنا خارج الأسوار؛ نترقب كل جديد.

ها قد مرت أربعين يوماً على بدء القصف الجوي للأهداف العسكرية والمدنية، وها هي بغداد تغرق بظلامٍ دامس؛ وها قد تحول نهارنا إلى ليل ولأول مرة في حياة معظمنا؛ ذلك بسبب الدخان الذي ينبعث من الآبار النفطية التي أحرقها الديكتاتور وفق مبدأ نظرية الأرض المحروقة، لتحمل الرياح ذلك الدخان أكثر من ٧٠٠ كلم من الجنوب إلى الشمال وليغطي سماء السجن الذي نقبع فيه فيتحول نهاره ليلاً .

شنت القوات الأمريكية وحلفاؤها هجومهم البري وحررت الكويت وتوغلت القوات عبر محور الناصرية ووقع الديكتاتور على ورقةٍ بيضاء في خيمة صفوان وبالشروط التي أرادتها الكويت والمنتصرون بقيادة أمريكا؛ وتعرضت القوات العراقية وجميع آلياتها وعدتها إلى محرقة لا توصف وهي في طريق الانسحاب من الكويت؛ جنود بالآلاف لقوا حتفهم؛ آخرين لا يجدون ما يسدون به رمقهم من الطعام؛ باتوا يبيعون سلاحهم من أجل لقمة خبز أو أجور نقل تعيدهم إلى ذويهم؛ توترت الأوضاع واقترب أمل الخلاص داخل السجن وتوقع العديد منا أن تستمر الحملة حتى بغداد؛ فهذا ما ألمحت إليه أمريكا أكثر من مرة عبر دعوة الشعب العراقي لأسقاط النظام.

حرصت إدارة السجن على إبداء أكبر قدر من المرونة في التعامل معنا، وأبدت قدراً كبيراً من الانضباط في تصرفاتها؛ فهي لا تريد استفزازنا من جهة، ولكنها لا تريد كذلك أن تتساهل إلى حد انفلات قبضتها والتمرد على إدارتها.

كلانا نحن وجلادونا نحسب الأيام ونعد الساعات لكي يتقرر مصيرنا، فالجلادون يتكأون على قوة النظام وبطشه، وأغلبهم شاهد ذلك القمع ومارس جزءً منه بحقنا؛ فهيرواتهم ومقامعهم الحديدية التي طالما تراقصت على أظهرنا وجنوبنا في حفلاتهم اليومية ومع كل وجبة أكل يوزعونها علينا لازالت تلك الهيروات والمقامع خلف أبواب غرفهم، ينظرون إليها كل يوم فيتذكرون كم نالت منا عبر أياديهم المفتولة؛ ولازالت ملء أسماعهم أصوات تأوهنا وأوجاعنا.

أما نحن فنتكئ على قوة الشعب بعد أن خارت قوى السلطة وهبّ جنديٌّ شجاع ليرمي صورة الديكتاتور في محافظة البصرة الفيحاء في ساحة سعد يوم ١/آذار/١٩٩١ لتتوالى بعدها انتفاضة شعب مقهور امتدّت من البصرة حتى كربلاء في أيام قلائل ثم التحقت بها أربع محافظات في الشمال هي كركوك وأربيل والسليمانية ودهوك ولم تتبق إلا أربع محافظات من أصل ١٨ محافظة بينها بغداد لم تنتفض.

الجلادون يتأملون عودة السلطة وقوتها وبطشها الذي اعتادوه ولو بمعجزة، ونحن ننتظر أن تنتصر إرادة الله بعد أحد

عشر عاماً من الظلم والقهر؛ ظلم لم يطالنا نحن فحسب، بل طال مئات الألوف غيرنا سواءً في أقبية السجون، أو في المقابر الجماعية، وحتى أولئك الذين يساقون إلى جبهات القتال عنوةً، كلهم مقهورون مظلومون، ونحن في طليعة من يدعو بقوله تعالى: (فدعا ربَّهُ أني مغلوب فانتصِرْ).

قلّلَ الجلادون من رجال (الأمن) الاحتكاك بنا هذه المدة وأوكلوا معظم المهام لمنتسبي وزارة العمل والشؤون الاجتماعية من الحرس والإداريين؛ فهؤلاء أكثر مهنيةً في إدارة الأزمات، وهم لم يتولوا عمليات التعذيب التي كانت تنفذ علينا. هذا الإجراء زاد من احتمالات أن الأمور تسير في غير صالح النظام؛ البعض منهم أوصل رسالة مفادها أنهم مع السجناء وليس مع النظام إذا توفرت فرصة الخلاص الجماعي؛ طبعاً هذه الرسالة أوصلوها إلى الأقسام المفتوحة، وتسربت إلينا.

قد ينصرف ذهن القارئ إلى أن المرونة التي أتحدث عنها هنا وفي مثل هذه الظروف تعني أننا في زنازين مرفهة تحتوي أسرة من طابق أو طابقين، ولا يزيد عددنا عن الحد المخصص لأبعاد كل زنزانة، كأن يكون عشرة سجناء في زنزانة أبعادها ٥*٦ مع المرحاض الموجود بداخلها، أو أننا لدينا مكتبة وكتب نطالع منها ما نشاء كما هي العادة في كل سجون العالم، أو أننا نمارس حقنا في التعليم وحرق

المراحل الدراسية، أو أننا لدينا ساحات للألعاب الرياضية تنظيم بطولات دورية بكرة القدم أو الطائرة أو المنضدة، أو أننا لدينا ورش للتدريب على الحرف كالنجارة أو الحدادة أو الخياطة؛ كل ذلك لا يوجد منه شيء وهو أبعد ما يكون حتى عن مخيلاتنا ولم نطلب منه شيئاً في يوم من الأيام؛ المرونة التي نعنيها ليس أكثر من رفع التعذيب اليومي ورؤيتنا الشمس صباحاً أو مساءً؛ الشمس ذلك الزائر الذي افتقدناه ثمانِ سنوات ولا زلنا حتى يومنا هذا نشكر الله ألف مرة كلما كنا تحت الشمس ولو لبرهة من الزمن.

يوماً بعد آخر؛ بل بعدد الساعات تسقط المحافظات والمدن والقصبات، سقطت البصرة، الناصرية، العمارة، هكذا حتى كربلاء، بابل، المسيب، الانتفاضة على أطراف بغداد إذن، شعور لا يوصف، وجوه مستبشرة، لا بد من التحضر لأي طارئ، شائعات جاءت من الأقسام المفتوحة بأن استعدوا؛ ففي أي لحظة يمكن أن تدخل عليكم قوات الثوار لإخراجكم من السجن، كونوا منضبطين، كان لابد وهذه الأخبار وبمثل هذه الظروف أن تجتمع وجوه الزنازين لتدبر الأمر والحديث عما يحيط بنا والمواقف التي يمكن اتخاذها.

اجتمع عدد من أولئك أصحاب الحل والعقد في زنزانة الدكتور علي العبيدي (أبو أبرار) من أهالي بغداد ومنهم الحاج رحيم الساعدي من أهالي العمارة والحاج محمد

حسن كاظم من أهالي كربلاء، وعقيل من عناصر الخدمات من أهالي الكوفة، وراضي دحام من أهالي البصرة وعقيل (أبو آلاء) من أهالي البصرة قضاء أبي الخصيب، والسيد كريم من أهالي السماوة والأستاذ حسن مرزة من أهالي البصرة قضاء أبي الخصيب، والأستاذ راضي الضويري من أهالي الديوانية ناحية السنية، وتداولوا الأوضاع الراهنة والظروف المحيطة بالسجن وتناقلوا فيما بينهم أن السيد محمد سعيد الحكيم يوصيهم بالتعقل والحكمة في هذه الظروف وعدم التهور ففي السجن كبار السن وهناك من يتعاون مع النظام خارج السجن وان السجناء عزل من السلاح وقد انقطعوا عن العالم الخارجي منذ سنوات طويلة فعليهم حساب كل هذه الأمور إذا ما قرروا أمراً ما، وتوصلوا إلى ضرورة ان يلتزم الجميع بالانضباط والانتظار لحين انجلاء الغبرة والتهيؤ في حال تمكن الثوار من الوصول إلى السجن.

بوادر انتكاسة الانتفاضة

في خضم تحقيق الانتصارات من قبل الثوار والإرباك الذي حصل بقوى السلطة وانهيار الجهاز الحزبي والأمني والعسكري في معظم محافظات الجنوب والشمال وسقوط المدن الواحدة تلو الأخرى، في غمرة ذلك كله من جهة ومن

جهة أخرى ظهور شعارات المنتفضين الإسلامية فما هو مخزون ومكبوت في ضمائر العراقيين هو الثأر لدماء آلاف الشهداء من الحركة الإسلامية في العراق وبالخصوص حزب الدعوة الإسلامية ففي كل شارع هناك شهيد أو سجين أو معتقل أو مهاجر أو مهجر من أعضاء هذا الحزب أو ممن عرف بتدينه، لقد انعكس ذلك على الثائرين فكانت هويتهم إسلامية، في الشعارات التي يرفعونها وفي الهتافات التي يهتفون بها وفي المرجعية التي يرجعون إليها، وهذا ما لم يرق لقوى عميلة لأمريكا في المنطقة فتحركت للضغط عليها لدعم النظام القائم وعدم المجازفة بإسقاطه كي لا يكون هناك نظام على غرار النظام الإسلامي في ايران.

ونحن نترقب الأخبار سمعنا بتصريح الرئيس الأمريكي بقرار وقف الحرب وان عملية عاصفة الصحراء قد توقفت وان العملية كانت مخصصة لتحرير الكويت وليس لإسقاط النظام السياسي في العراق؛ وتوالت الأخبار عن فك الحصار عن وحدات الحرس الجمهوري في الناصرية؛ وتزويد الدبابات بالوقود؛ والسماح لطائرات الهليكوبتر بالتحليق فوق أجواء المدن التي يسيطر عليها الثوار وتقدم الجيش نحو المدن ومحاصرتها وإعادتها إلى سلطة البطش والقمع والإرهاب من جديد واعتقال عشرات الألوف من المنتفضين..

ما إن انتهى شهر آذار حتى قلبت لنا إدارة السجن وجلادوه ظهر المجن وبدأ التشدد في التعداد ولزوم الزنازين وبدأت الشائعات بوصول كوادر من الأمن الخاص وهو جهاز مختص بحماية الديكتاتور بالوصول إلى السجن لمحاسبتنا على كل ما بدر منا أيام الانتفاضة من محاولات الخلاص الفردية والجماعية والهتافات التي أطلقت بوجه وزير العمل أوميد مدحت.

بدأت حملة القمع الجديدة على الأقسام المفتوحة أولاً التي كان نزلاؤها يتواصلون معنا بعد تحسن المعاملة منذ دخول الكويت، ثم ازداد هذا التواصل بعد بدء هجوم قوات التحالف بقيادة أمريكا على العراق في ١٩٩١/١/١٧؛ بعد وصول قوات الحرس الخاص قرر مدير سجن الأحكام الخاصة افتعال أزمة لمحاسبة كل السجناء على ما بدر منهم أيام غزو الكويت، ولم يبدر منهم سوى المطالبة بحقوقهم وخلاص حوالي خمسة عشر سجيناً من كل الأقسام عبر الهروب إلى الحرية، ومطالبة وزير العمل بإطلاق سراحنا بعد أن تحولت الدولة التي اُتِّهمنا بأننا عملاء لها إلى دولة صديقة، نعم لم يبدر منا سوى هذا فهل يستحق ذلك محاسبة جميع السجناء؟

جاء أبو وسن مدير سجن الأحكام الخاصة في يوم العاشر من شهر رمضان المصادف لـ ١٩٩١/٣/٢٧ وأعتقل بطريقة

تشبه الخطف أربعة من الناشطين ووجهاء وأعلام السجناء في قسم الأحكام المفتوحة وهم السيد حسين الشوكي والسيد زايد والسيد جليل والحاج زيارة واقتادهم إلى جهة مجهولة تبين فيما بعد أنها قاطع الإعدام في قسم الأحكام الثقيلة، ثم طلب من السجناء أن يحلقوا لحاهم جميعاً، وان يمتنعوا عن زيارة السجناء في قسم الأحكام المغلقة أي نحن، وأن يمتنعوا بعد اليوم من الخروج إلى الساحات للتشمس إلا وفق ما تراه إدارة السجن.

أمام هذه المطالب مالت ثلة من السجناء إلى أن يكون موقفهم الحزم والشجاعة كي لا تعود عقارب الزمن إلى الوراء وما دروا أن ذلك ما كان يريده الجلادون، كان السجناء في الساحة عندما صدرت هذه الأوامر فهاجوا وأعلنوا أنهم لن يدخلوا الأقسام والزنازين إلا بعد إعادة المخطوفين الأربعة وإلغاء هذه القرارات، حينها دخلت القوات الخاصة المدججة بالسلاح فاعتلت الأسطح وطوقت الساحة وحضر رياض حمام الدين (أبو وسن) ومعه العشرات، ممن يحملون الدونكيات وهي عبارة عن عصي كهربائية تستخدم للضرب وللصعقات الكهربائية يتحكم بها الجلاد كيفما شاء فأعاد طلبه بدخول الأقسام ؛ يقول السيد ماهر حسن جاسم الحسني من أهالي الكوت قضاء الحي ممن عايش الوضع لحظةً بلحظة: أصر السجناء على عدم

الدخول وتوترت الأجواء فانبرى السجين علي صالح من أبناء قضيتي وهو من أهل الكوت قضاء الحي -والقول لسيد ماهر- فصعد على دكة مرتفعة وصاح بأعلى صوته: تهددونا بالقتل هيّا ها أنذا فاقتلوني، هيّا اقتلوني وفتح قميصه وهو غاضب يومي بكلتا يديه أن اقتلوني إن كنتم شجعانا ويُشير إلى صدره العاري، فأومأ مدير السجن رياض حمام آلدين لجلاد من الجلادين أن أرمِهِ؛ فسدد نحوه فأرداه قتيلاً ثم هرع الحرس الخاص والقوات الخاصة وبيدهم الدونكيات يضربون السجناء ضرباً مبرحاً يدخلونهم الممر ثم يخرجوهم إلى الساحة وبعد أن أنهكوهم اقتادوا ٢٧ سجيناً أخر إلى قاطع الإعدام وقسموا الباقين إلى فريقين الأول اقتيد إلى قسم الأحكام الخفيفة والثانية أُبقي في قسم الأحكام الخاصة المفتوحة؛ وبدأت التحقيقات مع أولئك المعزولين الذين تعدى عددهم الثلاثين؛ انتهى كلام السيد ماهر الحسني.

كل تلك الأحداث تصلنا أولاً بأول وحالة القلق والترقب تسود الزنازين، تخلص السجناء مما لديهم من سيوف وآلات حادة كان قد تم إعدادها في الأيام السابقة للطوارئ؛ فرصة تاريخية ضاعت، أملٌ كبير تلاشى؛ انتظار أحد عشر عاماً ليس بالأمر الهيّن، من بالغ فينا بالتفاؤل بات أكثرنا هماً وغماً فقد تصور الكثير منا أنه قاب قوسين أو أدنى من التحرر من هذه

القيود التي أرهقتنا، وقليل منا مَنْ كان مستعداً لكل ظرف ومتحسباً لكل احتمال.

عودة زوار الليل

زوار الليل فارقناهم منذ أمد في أيام التحقيق الأولى قبل سنين؛ كان ضباط التحقيق يستأنسون بأن يسهروا مع ضحاياهم ليلاً وكما أسلفت سابقاً؛ أما في السجن فقد اعتدنا أن يكون التعذيب مع وجبات الأكل صباحاً وظهراً وغروباً ليُطعمونا الألم مع الطعام؛ في العشرة الأواخر من شهر نيسان عام ١٩٩١ عاد إلينا زوار الليل، فبعد أن اقتحموا الأقسام المفتوحة واقتادوا الناشطين منهم إلى قاطع الإعدام، ساقوهم بعد ذلك إلى معسكر الاعتقال الكبير في الرضوانية حيث عشرات الألوف من الثوار وغير الثوار وكل من اشتبه بموالاة الانتفاضة يقبع هناك، استمرّت التحقيقات أيام معدودة ليعود زائر الليل في الساعة الثانية فجراً إلى القسم الذي نقبع فيه وينادي على السجين عقيل من أهالي الكوفة، وفي الليلة الثانية جاءوا على السجين رحيم الساعدي من أهالي العمارة ثم في ليلة الثالث والعشرين على الرابع والعشرين من شهر نيسان لعام ١٩٩١ جاء الجلادون في الساعة الثانية فجراً ومعهم هذه المرة قائمة بالأسماء فمن قسمنا (ق١) نادوا على: محمد حسن كاظم (أبو سرمد)، المهندس صباح من

الكاظمية، عبادي حرز الشوكي من أهالي العمارة ويسكن النجف الأشرف، عقيل (أبو آلاء) من أهالي أبي الخصيب، راضي دحام من أهالي البصرة، السيد كريم من أهالي السماوة، راضي الضويري من أهالي السنية في الديوانية، ومجموعة من أسرة آل الحكيم على رأسهم المرجع الديني محمد سعيد الحكيم، يقول الحاج المهندس محمد حسن كاظم (أبو سرمد): ما إن خرجنا من القسم وفي الممر باشر الجلادون بتعصيب عيوننا وتقييد أيدينا بالقيود البريطانية الحديدية (الكلبشات) التي ألفناها أيام التحقيق قبل سنين، نفس الكلمات البذيئة، والتعامل السوقي، ضرب الأكف على وجوهنا والضرب بأحذيتهم على مؤخراتنا، يجروننا جراً إلى سيارات معدة لهذا الغرض، لكننا لا نعلم أين يريدون بنا، الأسلوب والطريقة هي ذاتها من أول أيام الاعتقال ولكننا اليوم أمضينا عشر سنوات من مدة محكوميتنا في السجن وحكمنا بالمؤبد، فإلى أين يأخذوننا هذه المرة، وما عسانا جنينا، نحن لم نقم بشيء سوى الدعوة إلى التهدئة، واذا ما فكر أحدنا بالخلاص هروباً لنيل حريته فذاك حق مشروع لكل سجين، العقوبة تبدأ عندما نشرع بعملية الهروب، وهذا ما لم يحصل، القوانين لا تحاسب على النوايا، بل نحن من دعونا إلى التهدئة وعدم التسرع، كل تلك الأفكار تراودني ويقطع سلسلتها أنواع الشتائم والكلمات البذيئة والصفعات

القوية على خدي وخدود من معي، حتى وصلنا إلى الوجهة التي يريدون.

أول عمل قام به الجلادون هو حلاقة شعرنا رقم (صفر)، وأدخلونا زنازين مغلقة تماماً لا شباك ولا نافذة والمصدر الوحيد للهواء هو ما يتسرب من تحت الباب الحديدي، وما إن أصبح الصباح حتى بدأ التحقيق، وللأسف فقد تبين أن أحد إخواننا قد انهار تماماً بمجرد رؤيته مناظر التعذيب وبشاعة الأساليب وليس هناك ما يعترف به سوى تلك الجلسة في غرفة الدكتور علي والتي لم نقل فيها شيئاً سوى تهدئة إخواننا السجناء وعدم التهور في اتخاذ موقف قد يضر بكبار السن الذين معنا وقد تكون عواقبه وخيمة، وأن نتريث حتى تستبين الأمور، وإذا كان هناك من نصر يلوح في الأفق فسيأتينا الفرج إن شاء الله، هذا عدّه حسين كامل وصدام كامل اللذين كانا يشرفان على تحقيقات الرضوانية، تنسيقاً مع الانتفاضة الشعبانية وتأييداً لها وذلك وحده يكفي لأن يكون سبب لإعدام ثلاثين سجيناً كان يقضي أقلهم حكماً بخمس سنين أما أغلبهم فقد كانوا يقضون مدة حكمهم بالمؤبد، هذا العدد من الأقسام المفتوحة والمغلقة، ويضيف الحاج المهندس أبو سرمد: في اليوم الثامن والعشرين من نيسان والذي يصادف يوم مولد الديكتاتور والذي اعتاد على الاحتفال به في كل عام أصدر النظام عفواً خاصاً عن

المشاركين في الانتفاضة الشعبانية وبدأت الأناشيد الوطنية عبر مكبرات الصوت تصك أسماعنا، وجمعونا نحن السجناء الذين تم ألقاء القبض علينا من داخل السجن وعددنا كان ستين سجيناً ثم بدأوا يقرأون الأسماء وقالوا كل من يسمع اسمه يتوجه صوب تلك العجلات، لقد رأيت الآلاف من الموقوفين في هذا المعسكر وكل مجموعة من الجلادين تنادي على مجموعة من المعتقلين ليقودوهم إلى تلك العجلات، أصوات الأناشيد مع قراءة الأسماء، مع صدور العفو أعطى انطباعاً أن جميع من نودي بأسمائهم سيطلق سراحهم (خطة خبيثة لكي يستسلموا للموت ولا يحاولوا المقاومة)، أما من بقي منهم فلهم بهم شأن آخر، ربما التحقيق ثانيةً أو الإعدام، أو السجن مدداً أخرى، هكذا ظننت -والقول لأبي سرمد- وبعد يومين أو ثلاثة نودي على أسمائنا نحن الثلاثين المتبقين من الستين وتمت إعادتنا إلى السجن؛ انتهى قول الحاج أبو سرمد.

عاد أبو سرمد والسيد عبادي (هادي) حرز الشوكي والحاج رحيم الساعدي فالتففنا حولهم حلقات، حلقات، نريد معرفة ما حصل، فالكل يترقب بقلق ما تفضي إليه هذه النازلة الجديدة، لم نعد نتحمل الانتظار، أوضاعنا باتت تسوء، كل ما حققناه من مكاسب معرض لأن يزول مجدداً.

أفضوا إلينا ما شاهدوه من بشاعة وفظاعة، إنهم كانوا في مسلخ بشري بحق، ورغم أنهم قد عايشوا في مديريات (الأمن) سابقاً صنوف التعذيب وسمعوا الكثير أيام توقيفهم إلا أن ما رأوه من كثرة الأعداد واللامبالاة بحياة المعتقلين، والقتل العمد بدافع الحقد لا بدافع الحصول على المعلومات، والنفس الطائفي الواضح والصريح، لم يروه ولم يسمعوه من قبل، لقد كانت السخرية بأئمة أهل البيت وسب وشتم الزهراء عليها السلام ما تقشعر منه الأبدان ويجزع من سماعه كل ذي مروءة.

مهما بدى النظام قوياً وإنه انتصر على معارضيه وقمع المنتفضين؛ إلا أنه لم يعد كما كان، فالانتفاضة أفقدته الكثير من هيبته؛ جهازه الحزبي يكابر أمام الناس لكن الذلة والمسكنة تسكن دواخله، جهازه الأمني تعرض لهزة قوية إذ صودرت أو أحرقت معظم الملفات الأمنية في المحافظات، جهازه العسكري تعرض للمحاكمات الصورية وأعدم عدد من قادته؛ لذا اكتفى بما غيّب منا من السجناء في الأقسام المفتوحة والمغلقة ولم يبالغ في البطش والتعذيب، فمقابلاتنا لذوينا لم تمنع، وساعةً بعد ساعة نحسب لأول مقابلة لمعرفة مصير من تم سوقهم من معسكر الرضوانية، فهل أطلق سراحهم فعلاً كما ادعى الجلادون أو إنهم سيقوا إلى الإعدام، وحلت المواجهة ومواجهة الحقيقة الصادمة فقد

تيقنا أن جميع من لم يعودوا إلى زنازين الأحكام الخاصة إنما سيقوا إلى المقابر الجماعية داخل المعسكر أو خارجه، فخيم علينا الحزن، ففقدهم وهم أخوة ورفاق محنة عايشناهم سنين، وهم كانوا يعدون الأيام ليطلق سراحهم، كان ذووهم ينتظرون يوماً بعد يوم لمقابلتهم بعد عام ١٩٨٨ إذ فتحت الصناديق المغلقة، فكم رسم آباؤهم أو أبناؤهم أو أخواتهم أو زوجاتهم من آمال وخططوا من خطط بعد خروجهم من السجن وإذا بهم يقتادون من السجن إلى الموت.

ما بين الحزن على إخواننا والقلق من عودة الجلادين إلى طريقتهم القديمة في التعامل معنا التزم معظمنا بضبط النفس وعدم استفزاز الجلادين وإدارة السجن بانتظار ما ستؤول إليه الأمور فدوام الحال من المحال، وأكثر مما رأينا لن نرى إن شاء الله.

الإيمان هو الحل في الأزمات

لا شيء مثل الدين يستطيع أن يُهدئ النفوس في المحن، لا شيء مثل الدين يبعث الأمل ويحول التحدي إلى فرصة، فالمقتول شهيد، والمسجون ممتحن من الله، وكل ممتحن محبوب، وبلاء المؤمن قدر إيمانه فكلما عظم إيمانه عظم بلاؤه، والغيب عند الله وهو أعلم بما ينفع المؤمنين، ورب شر هو خير ولكننا لا نعلمه، والخير كل الخير فيما يختار الله،

ورب ضارة نافعة ونحن لا نعلم ذلك، الأجر قدر المشقة، (والله خيرٌ حافظاً وهو أرحم الراحمين)، ولجوؤك إلى القوي يعطيك قوة، (وطلب المحتاج من المحتاج سفهٌ من رأيه وزلة من عقله)، ولا يُحمد على مكروه سواه، ومنع الله عطاء، ولو لم يكن للدين غير تقويتك في المحن لكفى بذلك دافعاً لأن نتدين، إيماننا بالله هو من أبقانا أصحاء، أقوياء، صابرين، مُتَحدّين (من التحدي) ومتحدين (من الوحدة) طيلة أيام السجن الطويلة ها قد انقضى أحد عشر عاماً وأنا والكثير معي بخير ولسان حال كل منا يتغنى بأبيات أبو القاسم الشابي:

سأعيش رغمَ الداءِ والأعداءِ   كالنسر فوق القمةِ الشماءِ
أرنو إلى الشمسِ المضيئةِ   بالسحب والأمطارِ والأنواءِ
وأُصيخُ للصوتِ الإلهي الذي   يُحيي بقلبي ميتَ الأصداءِ

عفو جديد ولكن لم ينفذ

ما بعد الانتفاضة الشعبانية ليس كما قبلها، صحيح أنها كلفت الشعب وكلفتنا نحن في السجن الكثير لكنها كسرت حواجز كثيرة، وأوجبت على النظام اتخاذ خطوة ما لتهدئة النفوس والتقرب إلى الشعب؛ لم نكن ندري أن الدكتور حسين الشهرستاني وقبل أن يهرب إلى الحرية كان قد هرّب

أسماء السجناء من قسم الأحكام المغلقة الذي كان فيه، وعددنا يربو على ١٣٢٩ سجيناً كلهم محكومون بالسجن المؤبد؛ لم نكن نعلم أن هذه القوائم تحولت إلى وثيقة لدى منظمة العفو الدولية ومجلس حقوق الإنسان وان الموظف الأممي والمقرر الخاص لحقوق الإنسان في العراق (فان دير شتول)، قد بات صديقاً للدكتور حسين الشهرستاني الذي أعطاه أماكن وجودنا بالتحديد وطلب الشهرستاني منه زيارة هذه الأقسام ليطلع على هذه الأسماء التي بين يديه.

إن اعتقال الآلاف في الانتفاضة الشعبانية وإعدام الآلاف الأخرين في مقابر جماعية سرية يستدعي خطوة مثل إطلاق سراحنا لأن ذلك سيبعث الأمل لذوي المغيبين بأنهم سيلتقون يوماً ما بأبنائهم كما عاد اليوم هؤلاء السجناء، وباختصار وبحسبة بسيطة (أخرج ٤٠٠٠ سجين) ستقنع ذوي ١٠٠ ألف معتقل ومعدوم بأن ينتظروا، وتقنع الأمم المتحدة ومنظمات حقوق الإنسان بأنك عفوت عن السياسيين، هكذا كانت دواعي القرار.

مع كل ما تقدم من دواعي إلا أن النظام ولطائفيته وحقده وهمجيته فقد تلكأ كثيراً في إطلاق سراحنا فقرار العفو المرقم ٤٢١ صدر في ١٩٩١/٧/٢١ إلا أنه لم ينفذه على الفور، ولأننا لدينا تجارب سابقة في استثنائنا من كل عفو كما

فعل عام ١٩٨٣ و١٩٨٥ و١٩٨٦ فقد انتابنا اليأس من هذا العفو وقرر بعضنا أن يهرب إلى الحرية بطريقته الخاصة.

عبد الله المظفر وخطة خارج المألوف

التفكير بالخلاص من السجن والهروب إلى الحرية خيال يراود كل سجين، وعبر الزمن تنوعت أفكار الخلاص، مرت على صدور العفو حوالي أسبوعين ولم يتخذ النظام أي خطوة ليثبت فيه صحة ادعائه، أصيب أحد السجناء واسمه من مهدي من أهالي الدجيل بوعكة صحية استدعت إرساله إلى مستشفى الرشيد العسكري، وهناك رصد المكان فرأى وجود نافذة كبيرة من غير كتائب ولا مشبكات حديدية، بإمكان النزيل أن يهرب منها، بعد أيام عاد إلى الزنزانة، فقص ما شاهده على عبد الله المظفر من أهالي النجف الأشرف الذي كان يمتلك من الشجاعة، وكان دائب التفكير في عملية الهروب إلى الحرية، وطالما ندم أنه لم يستثمر أيام هجوم قوى التحالف الجوي والبري ليكون خارج هذه الأسوار كما فعلها الشهرستاني والقبنجي وآخرين، راقت له فكرة الهروب ولكن كيف الوصول إلى مستشفى الرشيد العسكري الذي لا تتم الإحالة إليه إلا في الحالات الطارئة جداً والتي تحتاج إلى إجراء عملية فورية، راح يسأل بتلطف وهدوء عن تلك الأمراض التي من شأنها إرساله إلى هناك، فعرف أن الحل

هو ادعاء الإصابة بمرض الزائدة الدودية، سأل عن الأعراض وعملية التشخيص وشكل الألم وحفظ ذلك كله عن ظهر قلب واتفق مع مهدي أن يكون هو أول من يتمارض ثم يتمارض بعده مهدي بيوم ليهربا من هناك سويةً.

تمارض عبد الله المظفر وحاول الأطباء في مستشفى الأحكام الثقيلة أن يعالجوه وامتنع الحرس عن إرساله خشية الهروب، ولكنه بقي يتلوى ويصرخ حتى اقتنع الجميع بأرساله على الفور وذهب مكبلاً إلى هناك، ولكن المفاجأة أنهم أرسلوه إلى مستشفى الشعلة وليس مستشفى الرشيد العسكري الذي بنيت عليه كل الخطة

دخل المستشفى فلم يجد مثل ذلك الشباك وكانت غرفة الحرس مدخلاً لغرفة الرقود؛ تهيأ الأطباء لفحصه قدم أعراضه ولا زال مصراً على تكملة المشوار عسى أن يجد أن يجد فرصة.

مساءً أُجريت له العملية ولم يشك الطبيب بشيء وهو يرى الزائدة غير ملتهبة أو ربما التهبت الزائدة بعد هذا الإيحاء النفسي والتمارض الذي استمر لأيام، لا أعلم؛ ذلك ما زاد من إصرار عبد الله على أن يجدّ في تنفيذ الهدف، فلقد خسر زائدته الصحيحة، وخرج من تلك الأسوار، بعد يومين من إجراء العملية خرج يتفحص المكان، بعد أن غط الحراس بنوم عميق، ولم يتخيلوا أن مريضاً لم يمض على استئصال

زائدته الدوية أكثر من يومين يفكر بالهروب فوجد كوّةً صغيرةً يستطيع أن يخرج منها، عاد إلى سريره وخلع ملابس العملية وارتدى دشداشته وتوكل على الحي القيوم الذي كفاه الكثير من الملاحقات والمسائلات وهو في طريق الهروب إلى أهله والتي تحتاج لوحدها قصةً كاملة.

لم تتهيأ لرفيقه مهدي من أهالي ألدجيل الذي قدم لذات المستشفى بعد يوم وأدخل في ردهة أخرى، لم تتهيأ له الفرصة، بل ضيق عليه وأعيد إلى السجن بعد هروب عبد الله ليمنع بعد ذلك أي سجين منا من الإرسال إلى مستشفى خارجي.

من السجن الصغير إلى السجن الكبير

بعد مرور أربعة أشهر على صدور قرار العفو في ١٩٩١/٧/٢١ ها قد بدأ الحراك الإداري في الأقسام المغلقة والمفتوحة، قوائم أسماء، عناوين، صور، طبع أصابع، همس من هنا وهناك، تداول السجناء بين مصدق ومكذب لكل هذه الإجراءات، أكثر التحليلات من لغة أجساد الجلادين، ابتساماتهم، مزاحهم، إعدادهم للأوراق والسجلات، كل ذلك يوحي أن شيئاً ما قد صدر وإن إطلاق سراحنا قريب، ومع هذا كله لم يحمل جميعنا الأمر على محمل الجد فلدينا تجربة بكتابة الأسماء والتصوير وطبع الأصابع في العفو

الذي صدر عام ١٩٨٦ ثم وزعوا لنا بعد ذلك أحذيةً فوقف أحد السجناء من أفراد الخدمات لينادي: أن قيادة الحزب والثورة لم ينسوكم وارسلوا لكم هذه الهدية التذكارية.

يوما بعد أخر تستمر إجراءات الإدارة مصحوبةً بوجوه جديدة من رجال (الأمن) يدخلون الأقسام، الجميع يؤكد أننا سيطلق سراحنا، لأول مرة تتطابق الروايات بين إدارة السجن من الحرس التابعين لوزارة العمل والشؤون الاجتماعية ورجال (الأمن) التابعين إلى وزارة الداخلية، تخفق القلوب، تسرح الأفكار، نتمازح، كيف سنلتقي بعضنا بعضاً، هذه أطول صحبة، أنا شخصيا أكملت أحد عشر عاماً وستة أشهر منها أحد عشر عاماً في سجن الأحكام الخاصة المغلقة في القسم الأول فقط (ق١) بهذه الأمتار المعدودة أتنقل بين زنازينه العشرين، هل سأعود إلى كليتي، هل سيسمحون لي، وكيف لي أن التحق بالكلية مع طلبة الصف الثاني الذين لا تتعدى أعمارهم العشرين وها أنت قد جاوزت الثلاثين، وهل استطيع أن أخفي أمري على (أمن) الكلية واتحاد الطلبة من الرفاق البعثيين، في المنطقة كيف لنا أن نتعامل مع الرفاق ورجال (الأمن)، أفكار سلبية، لكنها واقعية، لم يجد الكثير منا سوى القول الله كريم، لن نرى أسوء مما رأينا.

نظرية العمر الزائد

ونحن في روحةٍ ومجيء هشوشين بشوشين يمازح أحدنا الآخر: أنا لا أعرفكم ولا تعرفونني بعد السجن، ويحذر السجين نجف من أهالي كركوك منطقة تسعين إخوانه السجناء في حال التقوه خارج السجن أن لا يسلموا عليه أبداً، هناك انبرى أحدهم قائلاً: كل ما لدينا منذ عام ١٩٨٠ هو عمر زائد، أين إخواننا الذين اعتقلوا معنا؟ ألم يساقوا إلى الإعدام؟ نحن نلعب في الوقت الإضافي سنلتقي ان شاء الله وليكن ما يكن. سمعت ذات يوم من الدكتور حسين الشهرستاني أنه تحدث بهذا الموضوع (العمر الإضافي) مع بول بريمر عندما سمع منه ما يشبه التهديد إبان إعداد الدستور والاختلاف حول بعض المواد. بين حمد الله وشكره وبين القلق من المستقبل، وبين احتمال أن لا تصدق نوايا الجلادين بإطلاق سراحنا، في خضم ذلك كله طلب الجلادون منا ما يشبه التعهد أو الشكر على إطلاق سراحنا ولم نختلف كثيراً مثل ما حصل أيام الحرب وطلبوا منا التطوع لجبهات القتال فانقسمنا فريقين بين مؤيد ومعارض، فالحرب قد انتهت وجبهة العراق الجديدة مع أمريكا التي نتفق جميعاً على رفض هيمنتها وسطوتها على الشعوب، كما أننا بلغنا من التجارب ما يسمح لنا بتجاوز هذه التحديات فأمامنا معترك كبير، ولدينا واجبات أهم ولكل منا رسالة

يجب أن يؤديها، لم يتخلف عن هذا التعهد أو سطور الشكر إلا السجين السيد هاشم العذاري من أهالي النجف الأشرف الذي استثني من هذا العفو مع ستة عشر آخرين لأسباب تختلف عن سبب السيد هاشم، وهؤلاء الستة عشر منهم من أطلق سراحهم بعدنا بأربعة سنوات ونصف في عام ١٩٩٥ وآخرين بقوا حتى إكمال محكومياتهم والبالغة عشرون عاماً لوجود مواد أخرى عدا مادة الـ١٥٦. بقاؤهم وخروجنا كان غصة ومرارة في حلوقنا سلبت الكثير من مشاعر الفرح والاستبشار بالعالم الجديد.

يوم ليس كباقي الأيام

اصطف المئات في طوابير يوم ١٩٩١/١٢/٢٣ بعد المناداة بأسمائهم فرداً فرداً، ليخرجوا مصطحبين معهم ذكرياتهم وما حرصوا عليه من بعض مقتنياتهم، كان من بين من نادوا عليه ابن أختي باهر سلمان الذي كان معي في نفس الزنزانة لسنوات، ظلت أذنه تصغي باهتمام للمنادي علّه ينادي باسمي، دون جدوى، كان عليه أن يصطف في الطابور خرج وعيناه مشدودتان نحوي، ترى ماذا سيقول لأهلي وقد اتفقنا أن يكون لقاءنا الأول بأمي وأبي وأخي، لقد اتفقنا على مواساتهم أولاً برحيل أخي الذي أعدم في عام ١٩٨٢؛ يقيناً أن إطلاق سراحنا سيكون مناسبةً لتأجيج مشاعرهم

وذكرياتهم، وبصراحة كنا متفقين على أن لا يكون إطلاق سراحنا مكسباً للسلطة التي أذاقتنا وأذاقتهم -الأهل- كل صنوف التعذيب والإذلال والإهانة، عليه أن يتدبر هذا الاتفاق وحده، وستكون هناك مناحة كبيرة إن أبقوا عليّ في السجن.

بات المكان الذي قضيت فيه أحد عشر عاماً موحشاً وموحشاً جداً فمن مجموع ٧٠٠ سجين كان يضج بهم المكان إلى عشرين فرداً ليس أكثر، جمعوا ما تبقى من القسم الثاني معنا لنكون قرابة الأربعين سجيناً؛ تقابلت وجوهنا كل ينظر إلى الآخر لا نعرف السر، الدقائق تمر وما أثقلها، لقد كانت الأيام كالساعات فما بالي الآن؟ استعذت بالله من الشيطان الرجيم، فأنا من كان يجيب حين يسأله إخوته في السجن متى تتوقع أن نخرج؟ أجيب عندما تنقضي محكومياتنا؛ كلما أردت دفع القلق ومشاعر الأسى عن نفسي لم أستطع، أحتاج إلى من يلهمني الاطمئنان إلى الإيمان المطلق بقضاء الله وقدره، هذه اللحظات أتحدث بها عن نفسي لا أجزم بمشاعر غيري، أتحدث عن نفسي بصدق، اقتربت الشمس من الغياب ومع صفرتها أشعر أنني مسحون الروح حزين متألم، نحن بني البشر مهما أردنا القضاء على ما جبلنا عليه لا نستطيع إلا برياضات روحية قد لا ينالها إلا الأنبياء والأولياء الصالحون، لا نستطيع رغماً عنا، نحن بشر

نألف ونؤلف، نميل إلى الاجتماع بطبعنا في ساعة واحدة يتفرق عنك جمعك وأي جمع؟ نفس التوجه، العقيدة، الجنس، الرؤيا، المدة التي أقلها سبع سنين وبعضهم مثلي أنا أحد عشر عاماً، لا أجد وصفاً دقيقاً لتلك الساعات أفضل من أن أقول إنهم أخذوا روحي وتركوني جسداً خاوياً. استعذت بالله وتوجهت نحوه مخلصاً حانياً أن يحسن عاقبتي وألا يحبط عملي، فله الأمر وإليه مرجعي.

حلّ الليل فكان لابد من التداول مع بعضنا البعض، فوضى الحاجيات المبعثرة في الزنازين تشبه الديار التي هجرها أهلها على حين غرة، أدركت معنى مناجاة الأطلال في الشعر الجاهلي وتعلقهم بالديار الخاليات من أهلها، قهقهات من رحلوا، مزاحهم، مناجاتهم، أدعيتهم، تصرخ في أذني، صورهم تتحدث معي ولا أجساد لهم، إنه الشعور بالوحدة، لقد تفرق الجمع على حين غرة، ما أوحشني بعدهم حتى المشاكل التي كانت تحصل كانت تخفف من ثقل السجن وتسرع من مرور الأيام، هذه الليلة ليس كسائر الليالي أنها تعدل أحد عشر عاماًً، أحمدُ الله أني ما زلت مع أبناء جنسي فكلنا متهمون بتهمة الانتماء لحزب الدعوة الإسلامية أو الحركة الإسلامية في العراق، فما بالك لو كانت هذه الليلة مع الجواسيس أو الأحكام الجنائية -لا سمح الله-.

عيوننا جميعاً ترصد باب القسم لعل أحداً يدخل فالف استفهام واستفهام يجول في خواطرنا، تُرى ماذا سيقول باهر لأمي وأبي، مثلما تثاقلت عليّ الساعات ستتضاعف عليهم آلام الفراق، ماذا عن أم فلاح وسائر أخواتي.

جالت الكثير من الاحتمالات في رأسي، ولكنها كالشائعات ليس لنا تصديقها أو تكذيبها وعند رجال (الأمن) الخبر اليقين. دخل أحدهم وكأنه يعلم ما نود سماعه عن مصيرنا، ولابد له من أن يعلم إلا إذا كان من غير صنف الآدميين؛ لكنه مع ذلك انتظر حتى نبادره بالسؤال، لماذا نحن هنا ولم نخرج مع أخوتنا؟

قال وبكل برود: العسكريون سيتم تسفيرهم إلى وحداتهم، التبعية الإيرانية -رغم أنهم عراقيون بالولادة- سيتم تسفيرهم إلى إيران، وبعضكم غير مشمول بالعفو، كنت قريباً منه فقلتُ له:، لست عسكريا ولا من التبعية الإيرانية، فبادرني ما اسمك؟ حميد مسلم فرهود؛ فقال أتذكرك أنت قضيتك فيها نظر ستبت بها اللجنة الليلة.

أدركت حينها أن لدي حكمان بالسجن المؤبد الأول في ١٩٨٠/١٢/١ والثاني في نيسان عام ١٩٨١ والقضيتان منفصلتان.

كان معي عبد الرضا عبد الحسين من كربلاء، وماهر حسين علي الريحاني من الكاظمية، وحسين كاظم زيارة من

كربلاء طويريج، وقاسم آبادي من البصرة، وجاسم حسن كاظم، ومزهر تركي هندي وفلاح حسن لازم وغيرهم.

نمنا ليلتنا تلك ولم ينم أبي ولا أمي ولا أخي ظلوا يتقلبون على فراشهم قلقين ومستبشرين، لا يعلمون ماذا يُضمر لهم الجلاد غداً هل سيطلق سراحي أم لا؟ وما إن حان آذان الفجر حتى انطلق أخي عبد العال (أبو زكي) بعجلته من كربلاء إلى أبي غريب ووقف على باب السجن ينتظر خروجي على أحر من الجمر.

تذكرتُ وأنا أنتظر قرار اللجنة تلك اللحظة التي غمرني بها الله بالاطمئنان يوم أرسلت إلى الطب العدلي للتحقق من سنوات عمري علها تبلغ العشرين فأسال إلى الإعدام، تذكرت كيف أسلمت وجهي لله، ما هو مختلف اليوم أن فراق أصحابي ووحشة أمكنتهم، ومغادرتهم بعد كل تلك السنين هو من أحدث كل هذه المشاعر عندي، أعود لنفسي فأقول لا إن تلك السنين قد سلبت الكثير من طاقتي وقوتي وها قد بان ضعفي في مواجهة التحديات، أنا اليوم باقٍ هنا وبالأمس عندما سيق بي إلى الطب العدلي كان لغرض إعدامي ومع ذلك نزل الخبر بعد ان تيقنت سببه وغاياته كالماء البارد على صدر الضمان، إذن على أن أراجع إيماني وقربي من الله.

جاء قِدْرا الغداء إلى القسم نظرت إليهما قِدران صغيران بعد أن تعودنا طيلة الأيام الخوالي على تلك القدور التي لا يستطيع أحد حملها إلا على عربة معدة لهذا الغرض فما بين ٧٠٠ و٢٠ فرق كبير فقد خرج أولئك من معيشة القِدر والتموين، أكثرنا لم يمل لتناول طعام الغداء أو تناوله ولكن ليس بشهية كما هو الحال في كل يوم.

بعد ساعة وفي تمام الساعة الواحدة ظهراً من يوم ١٩٩١/١٢/٢٤ جاءت الأوامر بنقل المتبقين إلى قسم المحجر أما أنا فقد نودي علي منفرداً لأخرج إلى الممر ومنه إلى الباب الذي لم أره مذ دخلت فيه يوم ١٩٨٠/١٢/١، فلا غرابة ألا أعرف أين أذهب إلا بدلالات من معي من السجناء من الأقسام المفتوحة ورجال الحرس من هنا، من هناك، ذلك الطريق، حتى عبرت ثلاث بوابات لأجد هناك عشرات العجلات تنتظر ما بين خاصةً تنتظر من تبقى من السجناء وعامة تنتظر من يستأجرها ولم أكن أعلم أن أخي يرصد الوجوه بإمعان فما إن رآني حتى صاح بأعلى صوته حميد، حميد، فاستدرت نحوه فأركبني بجواره، وانطلقت عجلته تطوي الطريق وأنا شارد الذهن عند من بقي من إخواننا كيف سيكون حالهم بعدنا وكيف ستنقضي أيامهم وقد جربت ليلةً واحدة، يحاول أخي أن يقطع علي شرود ذهني وخيالي دون جدوى، دخلت ولم أتم العشرين وهاأنذا تجاوزت الثلاثين،

كم فارقت من الناس ذهبوا إلى المجهول وكم ودعت من ذهبوا إلى المشانق، وكم فارق الحياة من عاش معنا في السجن، خواطر لا تنتهي ولن تنتهي حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا، الاستبداد آفة، الاستبداد ضياع، الاستبداد مذلة للشعوب. وطأت رجلي عتبة الدار ليبدأ فصل جديد أسمه الحرية شكلاً وسجن كبير مضموناً وله قصة وحكاية أخرى، لكن والحق أقول ليس ما بعد ١٩٩١/١٢/٢٣ كما قبله، فلكل ظرف حكاية وموقف إلا أن حقبة السجن الصغير لم أرَ مثلها حقبة يشيب فيها الصغير ويهرم فيها الكبير والله المستعان وهو نعم المولى ونعم النصير والحمد لله رب العالمين.

تمت بحمد الله

الاسم: حميد مسلم فرهود حبيب الطرفي
تاريخ الولادة: ١٩٦١م
التحصيل الدراسي: بكالوريوس قانون – ماجستير علوم سياسية، دكتوراه علوم سياسية.

* دخل كلية الطب جامعة الموصل وفي الصف الثاني في عام ١٩٨٠م تم اعتقاله لانتمائه إلى حزب الدعوة الإسلامية.

* في ١٩٨٠/١٢/١حكم عليه بالسجن المؤبد، ولم يطلق سراحه إلا في ١٩٩١/١٢/٢٤ بعد أن أمضى أحد عشر عاماً وستة أشهر في سجن أبي غريب (الأحكام الخاصة المغلقة).

* منع من العودة إلى مقاعد الدراسة في كليته بعد إطلاق سراحه.

* بعد سقوط النظام دخل كلية القانون وحصل على البكالوريوس في عام ٢٠٠٨.

* كـان مـن المسـاهمين فـي تأسـيس اتحـاد السـجناء السياسيين في العراق بعد سقوط النظام وعمل في توثيق الشهداء والسجناء في كربلاء حتى انتخابات عام ٢٠٠٥م.

* اشترك في انتخابات مجالس المحافظات ٢٠٠٥ بقائمة مستقلة (رابطة المثقفين المستقلين) وفاز بعضوية مجلس المحافظة للدورة ٢٠٠٥-٢٠٠٩.

* شغل منصب نائب رئيس مجلس محافظة كربلاء بعد التصويت له بالإجماع وبقي كذلك حتى انتهاء الدورة عام ٢٠٠٩م.

* حصـل علـى شـهادة الماجسـتير علـوم سياسـية عـام ٢٠١١م.

* حصل على شهادة الدكتوراه علوم سياسية عام ٢٠١٩م.

* عضو نقابة المحامين العراقيين ....

* عضو نقابة الصحفيين العراقيين ....

* في عام ٢٠١١م عُينَّ مديراً لفرع جمعية الهلال الأحمر العراقي في كربلاء المقدسة حتى عام ٢٠٢١.

* له شقيق (نوري مسلم فرهود) أعدمه نظام البعث عام ١٩٨٢م بتهمة الانتماء إلى الحركة الإسلامية في العراق.

المحتويات

الإهداء ٧
المقدمة ٩
الفصل الأول ١٣
استعدادات مبكرة ١٣
فعاليات البعث الطلابية ٢٠
حكاية الأستاذ خلف ٢١
هيبة المعلم ٢٢
الدراسة المتوسطة ٢٣
الصداقة مع أستاذ ٢٤
حكاية الشقيق الكسول ٢٦
الانتقال إلى أصلنا في كربلاء ٢٨
وفاء الكلاب ٢٩
الحياة الجديدة ٣٠
القرار المستعجل ٣٥
الانتماء إلى حزب الدعوة الإسلامية ٣٦
ذكرى عن الأكراد ٣٩
سوء الاستقبال ٤١
لحظة الفرح الغامر ٤٣
الثورة الإسلامية في إيران ١٩٧٩ .... ٤٤

الصدمة الكبيرة ٤٩
الشعور بالوحدة.. ٥٠
العمل النخبوي ٥٣
الشهيد الدكتور عاصم الربيعي........................ ٥٥
أحداث نيسان عام ١٩٨٠................................ ٥٨
مع الشهيد الدكتور عاصم الربيعي ثانيةً.............. ٦١
الفصل الثاني ٦٣
الوقوع في المحذور ٦٣
السفر إلى الموصل لغرض النتيجة.................... ٦٣
الاعتقال... ٦٨
وفاء المجانين.. ٧٤
التسفير الأول ٧٥
الجلاد الخلوق!!....................................... ٧٧
أين أنا؟ ٧٩
في الطريق إلى كربلاء ٨٠
(أمن) كربلاء والأيام الصعبة.......................... ٨٤
الانهيار المفاجئ...................................... ٩٠
التوقيف في مديرية (أمن) كربلاء ١٠٥
مقابلة قاضي التحقيق ١٠٨
جارٌ وقريب يتنكر..................................... ١١٤
التسفير إلى (الأمن) العامة ١١٧
موقف (الأمن) العامة.................................. ١١٩
النظام في الزنزانة ١٢٥
وجبات المقابر الجماعية.............................. ١٤٠
التسفير إلى الموصل ثانيةً............................ ١٤٦
اللقاء بالدكتور عاصم ١٥٩

التسفير إلى بغداد مجدداً ١٦١
محكمة الثورة.. ١٦٧
الفصل الثالث.. ١٧٣
السفر إلى ما وراء الشمس ١٧٣
مراسيم الاستقبال ١٧٣
الزنزانة رقم ٢٠ .... ١٧٧
الوجبة الأخيرة ١٨٤
من السجن إلى مكان مجهول...................................... ١٨٦
حفلُ الزفاف إلى الموت.. ١٨٩
لحظات لا زلت أتذوقها ١٩٣
مَلَكيّون أكثر من المَلِك ١٩٥
العودة إلى المحكمة... ١٩٦
انعكاسات الحرب على السجن..................................... ١٩٩
الدرسُ البليغ ٢٠٠
قساوة العام ١٩٨٢ .... ٢٠٥
استشهاد السجين الحاج رزاق ٢١٢
محنة الماء في أبي غريب.. ٢١٣
ضيق المكان... ٢١٧
حكاية (أبو هيفاء).. ٢٢٠
صورة الديكتاتور وذوي العاهات النفسية ٢٢٥
الأمل مع الألم ٢٢٨
ثقافة تشبه التنظيم ٢٣٢
المنافقون.. ٢٣٣
ترقبُ أخبار العائلة.. ٢٣٥
أخبار صادمة ٢٣٨
القلم والقرآن.. ٢٤٤

إياك أن تصرخ... ٢٤٨
هدية العام الجديد ١٩٨٤/١/١ .... ٢٥٣
السجنُ يزيد من وطأته ٢٥٤
آل الحكيم في الأقسام المغلقة ٢٥٨
انتفاضة في قاطع الإعدام ١٩٨٦ .... ٢٦١
علاء وعلاء؛ الشجاعة مَلَكَة ٢٧٤
عفو عام ١٩٨٦ .... ٢٧٦
الدرجة الحرجة للانفجار ٢٧٩
النشوةُ والجرأة.. ٢٨٤
الفصل الرابع ٢٨٧
السماح بمقابلة ذوينا.. ٢٨٧
لقاء يشبه الحُلم ٢٨٧
أحوال ما بعد مقابلة الأهل... ٢٩٥
قرار وقف الحرب في ١٩٨٨/٨/٨ .... ٢٩٨
الله أكبر ثانيةً ٣٠١
استجابة تشبه الخيال.. ٣٠٩
انقلاب الموازين ٣١٣
آب ١٩٩٠ .... ٣١٩
تدابير الحرب ٣٢٢
بدأت الحملة... ٣٢٨
فوضى المواقف ٣٣٠
رجال قرروا أن يكونوا خارج السرب ٣٣٣
وزير العمل يحضرُ إلى السجن ٣٣٥
الفصل الخامس.. ٣٣٧
الانتفاضة الشعبانية وتداعياتها على السجن.......................... ٣٣٧
تحرير الكويت ٣٣٧

بوادر انتكاسة الانتفاضة ٣٤٢
عودة زوار الليل ٣٤٧
الإيمان هو الحل في الأزمات ٣٥٢
عفو جديد ولكن لم ينفذ ٣٥٣
عبد اللّه المظفر وخطة خارج المألوف ٣٥٥
من السجن الصغير إلى السجن الكبير ٣٥٧
نظرية العمر الزائد ٣٥٩
يوم ليس كباقي الأيام ٣٦٠
المحتويات ٣٦٩

١ ، ٩٢٨
ط ٤٧٩ الطرفي ، حميد
ما وَراءَ الشّمسِ / حميد الطرفي
ط١ :- بغداد: دار السرد ، ٢٠٢٤ .
٣٧٤ ص ؛ ١٤ × ٢١ سم .
١- الأدباء - تراجم - ٢ - الطرفي ، حميد (أديب) - أ- العنوان .

رقم الإيداع
٤٠٢١ / ٢٠٢٤

المكتبة الوطنية / الفهرسة أثناء النشر

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٤٠٢١) لسنة ٢٠٢٤م

دار السرد للطباعة والنشر والتوزيع
العراق - بغداد - شارع المتنبي
هاتف: ٠٧٧٣٥٩٢٩٤٨٤
بريد إلكتروني: alrtyu44@gmail.com
رياض داخل: Facebook